قَالَتِ المَنَابِرُ

(المجموعةُ الثانيةُ)

❊ ❊ ❊

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

❊ ❊ ❊

قَالَتِ المَنَابِرُ

مجموعةٌ مِن خُطَب الجُمُعة أُلقِيَت في جامع

الأَميرِ الرَّاحل صاحبِ السُّمو الشَّيخ عِيسى بنِ سَلْمانَ آل خَلِيفَة

رحِمَه اللهُ تعالى

(المجموعةُ الثانيةُ)

أَلقاهَا الرَّاجِي عَفْوَ رَبِّهِ

راشِدُ بنُ مُحمَّدِ بْنِ فَطِيسٍ الهاجِرِيُّ

خَطِيبُ جامِعِ عِيسى بْنِ سَلمانَ آل خَلِيفَة

الرِّفَاعُ الغَرْبِيُّ - مَمْلَكَةُ البَحْرَيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المجموعة الثانية

الحمدُ لله وَحْدَهُ، والصلاةُ والسَّلامُ علَى مَن لا نَبيَّ بَعدَهُ، وعَلى آلِهِ وصَحْبِه ومَنْ سارَ علَى مَنهجِهِ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فهذِه هِي المجموعةُ الثانيةُ مِن مَوسوعةِ خُطَبِ الجُمُعة: **(قالَتِ المَنَابِرُ)** والتِي أكرَمَنِي اللهُ بإلقائِها مِن علَى مِنبر جامِع الأميرِ الرَّاحل صاحِبِ السُّمو الشَّيخ عِيسَى بنِ سَلْمانَ آل خَلِيفة، بمَدِينة الرِّفاعِ الغَرْبي بمَمْلكةِ البَحْرين حرَسَها اللهُ تعالَى .

وقَد ذكرتُ في مُقدمةِ المجموعةِ الأُولى السَّببَ الداعِيَ لجَمْع هذِه الخُطَب فِي هذِه الموسُوعةِ ممَّا يُغْنِي عَن إعادتِه هُنا، سائلًا المولَى عَزَّوَجَلَّ أنْ يَجْعلَها خالصةً لوَجْهِه الكريمِ، وأنْ يَكْتبَ لِي ولوالدَيَّ بِها الأجرَ والثوابَ.

والشُّكرُ والتقديرُ لجَمِيع مَن قدَّم لِيَ المُساعدةَ في إخراجِ هذِه المَوسوعةِ، وأخُصُّ بالشُّكرِ الشَّيخَ سُلطان بن إبراهيمَ عاشُور مُؤذِّن الجامعِ والمُشرِف المُباشِر على جَمْع وأَرْشَفة جميعِ الخُطَب، كمَا أتقدَّم بالشُّكر الجَزِيل للأخِ الفاضِل الشَّيخ فوَّاز الرّمَيْحِي المسؤُول عَن تَفريغِ سِلسلة الخُطب ومُتابعة طِباعتها، كما أَشْكُر الأخَ عِمرانَ إبراهيم على جُهده الدَّؤُوب فِي تَسْجيل الخُطَب وتَرْتيبِها.

وفِي الخِتام يَحْضُرني قَول البَيْسانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنِّي رأيتُ أنَّه لا يَكتب إنسانٌ كتابًا في يومٍ، إلَّا قالَ في غَدِهِ: لو غُيِّرَ هَذا لكانَ أحسنَ، ولو زِيدَ هَذا لكانَ يُسْتحسَنُ،

ولو قُدِّمَ هذا لكانَ أفضلَ، ولو تُرك هذا لكانَ أجملَ، وهَذا مِن أعظمِ العِبرِ، وهُو دليلٌ على استيلاءِ النَّقص على جُملة البَشر. فأسألُ اللهَ أنْ يَغْفرَ لي مَا في هذِه المجموعةِ مِن خطأٍ ونَقْص، وأنْ يَتجاوَزَ عَن تَقصيرِي فِيها.

وكتَبَهُ : الراجِي عَفْوَ رَبِّهِ

راشدُ بنُ محمَّد بن فَطِيس الهاجِريُّ

الرِّفَاعُ الغَرْبِي – مَمْلكةُ البَحْرَيْنِ

١ شَعْبان ١٤٣٩ للهِجْرة ، الموافِق : ١٧ أبْرِيل ٢٠١٨

• • k • •

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المجموعة الأولى

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فقد بدأتُ الخطابةَ -بصفةٍ رسميةٍ- قبلَ عشرينَ سنةً تقريبًا، وذلكَ حينَ التحقْتُ بشعبةِ الإرشادِ والثقافةِ بالحرسِ الوطنيِّ، وكانَ منْ جملةِ مهامِّي الوظيفيةِ إلقاءُ خطبةِ الجمعةِ في جامعِ معسكرِ الحرسِ الوطنِّي، إلى أنْ تشرفْتُ بصدورِ التَّوجيهِ السَّامي الكريمِ لصاحبِ الجلالةِ الملكِ حمد بن عيسى آل خليفة ملكِ مملكةِ البحرينِ -حفظَهُ اللهُ ورعاهُ- بتعييني خطيبًا رسميًّا لجامعِ المغفورِ لهُ -بإذنِ الله تعالى- صاحب السموّ الأمير الراحلِ الشيخِ عيسى بن سلمان آل خليفة طيبَ اللهُ ثراهُ، وذلكَ في عام ١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠م.

وفي خلالِ هذه الفترةِ التي قضيتُها خطيبًا أدركْتُ تمامًا أهميَّةَ خطبةِ الجمعةِ وخطورةَ التَّهاون فيها، فلقدْ كنْتُ أقابلُ في كلِّ جمعةٍ عقولًا راجحةً جديرةً بالاحترامِ والاهتمامِ، فكنتُ أهتمُّ كثيرًا بموضوعِ الخطبةِ، ولا أبالغُ إذا قُلْتُ: إنِّي أفكِّرُ في موضوعِ الخطبة التاليةِ منذُ بدايةِ الأسبوعِ، ولقد زادني تعظيمًا لشأن الخطبةِ أنَّ هذا المقامَ هو مقامِ النبيين والمرسلين، وهو توقيعٌ عن ربِّ العالمين، ووسيلةٌ عظمى لنشرِ الحقِّ وإذاعةِ الدِّين.

هــذا المقــامُ مقــامُ الرُّســلِ قاطبــةً وفوقــهُ حــاربوا كيــدَ الشَّــياطينِ
وموطنُ النُّصحِ والإرشادِ من زمـنٍ ومنــبرُ الحــقِّ والتَّعلــيمِ للــدينِ

والحقُّ أنَّنِي استفدْتُ كثيرًا منَ خطبِ العلماءِ ودروسِهمْ وكتبِ الدُّعاةِ ومقالاتِهم، فكنتُ أخصُّ بعضَ الكتبِ والمقالاتِ والخطبِ وأُعيدُ صياغَتها؛ ليتناسبَ المقالُ معَ المقامِ، ولا أدَّعي أنِّي جئتُ في هذهِ الخطِب بالجديدِ أبدًا، وإنَّما هي نُقولٌ جمعتُها وألَّفْتُ بينها وقدمتُها على هيئةِ خطبةٍ.

ولَّما كنتُ ألقي هذهِ الخطبَ ارتجالًا من ذاكرتي دونَ كتابتِها أشارَ على بعضُ الإخوةِ بتسجيلِها، ثمَّ تفريغِها في كتابٍ ليستفادَ منها.

زكــاةُ العلــمِ بــذلٌ ثــمَّ نشــرُ ومــا كــالعلمِ في أخــراكَ ذُخــرُ
تُفيــدُ بــهِ الخلائــقَ كــلَّ حــينٍ ويبقــى منــهُ بعــدَ المــوتِ أجْــرُ

ولقد كنت مترددًا كثيرًا في تلبيةِ طلبِهم إلى أنْ شرحَ الله صدري لذلكَ، فقمْتُ بتفريغِ المجموعةِ الأولى من هذه الخطبِ – وعددُها تسع وأربعونَ خطبةً- في هذه المؤلفِ، وتكرتُ البقيَّةَ للمجموعاتِ القادمةِ بإذن الله تعالى.

ولا يَسَعُني في هذا المقامِ وبعد شكري لله على ما منَّ بهِ عليّ من فضلٍ إخراجِ هذهِ المجموعةِ منَ الخُطبِ إلا أن أشكُرَ جميعَ من ساعدني وساهمَ في إخراجِ هذهِ الخطبِ سائلًا الله لي ولهمُ الأجر والثَّواب السَّداد والصَّواب.

تــــولاني الأحبــــةُ والصِّــــحابُ أعــــانوني فصــــاحبَني الصَّــــوابُ
وخيرُ الصحبِ من يؤتيكَ نصحًا يفيــدُك حــينَ يغشــاك الــترابُ

وفي الختامِ أرجو مِمَّنْ سيقرأُ هذهِ الخطبَ أن يعذرَني إن وجدَ خطأً وخللًا؛ فقدْ ألقيتُ هذهِ الخطبَ –كما تقدَّم– حفظًا من ذاكرَتي.

وإنْ تجـدْ عيبًـا فَسُـدَّ الخلـلا جـلَّ مَـنْ لا عيْـبَ فيـه وعَـلا

وعليه فأرجو ممنْ رأى شيئًا أنْ يبذلَ النَّصيحةَ ويوافيَني بما وجدَ؛ لأتداركَ ذلك في الطبعاتِ القادمة إن شاءَ اللهُ.

والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكتبه

راشد بن محمد بن فطيس الهاجري

الرفاع الغربي – مملكة البحرين

جمادى الأولى ١٤٣٨هـ/ فبراير ٢٠١٧م

•• k ••

(١)

طريقُ السعادةِ

هذِه قصةٌ مشهورةٌ وردت في (فيض القديرِ) للمناويِّ -رحمه الله تعالى-[١]، جاء فيها أن الإمامَ العالمَ الربانيَّ ابنَ حَجَرٍ العسقلانيَّ -رحمه الله تعالى- خرجَ في موكبٍ مهيبٍ، وهكذا كانَتْ مواكبُ العلماءِ، تحفُّها أقدامُ طلبةِ العِلمِ، تَتبعُها حيثُ ذهبَت، فمرَّ بالسوقِ وهو في هيبةٍ وجلالةٍ، فنظرَ إليهِ يَهوديٌّ يعملُ في مِهنتِه، تلطَّخَت ثيابُه ويداهُ بالقذرِ والوسخِ، وعلا وجهَه السوادُ، فتأمَّلَ هذا اليهوديُّ في حالِ نفسِه وفي حالِ قاضي القضاةِ ابنِ حجرٍ العسقلانيِّ، فقامَ مسرعًا نحوَ هذا الركبِ، وأوقفَ هذه الكوكبةَ المنيرةَ ليَسألَ ابنَ حجرٍ -رحمه الله تعالى-.

فيقولُ: يا ابنَ حجرٍ، يا شيخَ الإسلامِ، إنَّكم تَزعُمون أنَّ نبيَّكم يقولُ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**»[٢]، فكيف تكونُ الدنيا سجنَ المؤمنِ وجنةَ الكافِرِ وأنتَ فيها أنتَ فيه وأنا فيها أنا فيه؟ كيف تَكونُ الدنيا بالنِّسبةِ لكَ سِجنًا، والدنيا بالنِّسْبة لي جَنةً؟!

نظرَ اليهوديُّ إلى حالِه فوجدَ نفسَه في مِهنةٍ وضيعةٍ، وفيها القذرُ والتعبُ والضنكُ، والحديثُ يقولُ: هو في جَنةٍ. ونظرَ إلى ابنِ حجرٍ وهو في هذا الموكبِ المهيبِ، لبِسَ ما عندَه منَ الثيابِ الجميلةِ الحسَنةِ، ونبيُّنا يقولُ: هذا في سِجنٌ. قالَ: كيفَ ذلكَ؟

---

(١) فيض القدير (٣/ ٥٤٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فأزالَ عنهُ ابنُ حجرٍ -رحمه الله تعالى- الالتِباسَ والإشكالَ، فقالَ: نعَم، «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ»؛ فإنَّ المؤمنَ في هَذه الدُّنيا بالنسبةِ لما أعدَّه اللهُ له في الآخرةِ هو في سِجنٍ، مهما تنعَّمَ وتمتَّعَ وتلذَّذَ، فهو في دُنيا زائِلةٍ، فهو في سجنٍ سيَخرُج منه إلى جَنةٍ عَرضُها السمواتُ والأرضُ، والكافرُ مَهما تواضعَ وذلَّ في الدُّنيا فهو في جَنةٍ بالنسبةِ لما أعدَّه اللهُ له في الآخرةِ مِنَ النارِ.

فما مِنْ أحدٍ مسلمٍ أو كافرٍ، غنيٍّ أو فقيرٍ، كبيرٍ أو صغيرٍ إلَّا ويَنشُدُ السعادةَ، وكلٌّ اتخذَ طريقًا ظنَّ أنه يوصِّلُ إلى السعادةِ، فهذا ظنَّ أنَّ السعادةَ يوصلُ إليها عن طريق المالِ والغِنَى، وآخرُ ظنَّ أنَّ السعادةَ يوصلُ إليها عن طريقِ الغِنا والخَنا، وآخرُ ظنَّ أنَّ هذا الطريقَ يوصلُ إلى السعادةِ، ولكِنْ لا يُمكِنُ أن يتوصلَ إلى السعادةِ إلَّا بطريقٍ واحدٍ هو طريقُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذي ارتَضاهُ.

والإشكالُ ليسَ في هذه الطرقِ، ولكِنِ الإشكالُ في رؤوسِنا وفي أفهامِنا، إذْ إنَّنا لم نعرِفْ معنَى السعادةِ على حقيقتِها، فإذا أرَدْتَ أن تنشدَ السعادةَ -وتجعلَها هدفًا لكَ- لا بُدَّ أنْ تتعرفَ على ماهِيَّتِها.

فالسعادةُ هي التوفيقُ إلى طاعةِ اللهِ، فإذا رأيتَ إنسانًا قد وُفقَ إلى طاعةِ الله فاعلَمْ أنه سعيدٌ، أمَّا إذا اغتَنَى أوِ افتَقَرَ فليسَ لذَلِك اعتبارٌ، فالموفَّقُ لطاعةِ اللهِ هو السعيدُ؛ لذا يقولُ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ» فقيلَ: كيفَ يستعملُه يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ»[1]. فالسعيدُ هوَ الَّذي يُوفَّقُ للطاعةِ ويتلذَّذُ بها.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٦)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار، رقم (٢١٤٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكِنْ هنا أقولُ: ليسَتْ أيَّ طاعةٍ! فإنَّما الطاعةُ هي الَّتي تُنجي منَ العذابِ الأليمِ، وتُوصِلُ إلى جناتِ النعيمِ، فعدد المسلمينَ في العالَمِ كثيرٌ، تجاوزوا المليارَ ونصفًا، وكلُّهم يظنُّ أنَّه على طاعةٍ، لكِنْ هذا ليسَ بصحيحٍ، فإنَّ مِنهم مَنْ طاعتُه خِداجٌ ناقصةٌ، ومِنهم مَنِ انحرفَ بطاعتِه عنِ الحقِّ، فدخلَ في دائرةِ الكفرِ -عياذًا باللهِ- وهُم يَحسَبون أنَّهم يُحسنون صُنعًا.

فلا يُتصورُ مِنْ إنسانٍ يَنشدُ السعادةَ بطاعتِه المنحرفةِ، فهذا يَدَّعي أنَّه طائعٌ للهِ، وهو إذا سألَ سألَ غيرَ اللهِ، يقفُ عندَ قبرٍ لا يملكُ صاحبُه لنفسِه نفعًا ولا ضرًّا، ويقولُ: يا صاحبَ القبرِ، أعطِني الولدَ، يا صاحِبَ القبرِ، أعطِنِي المالَ، يا صاحبَ القبرِ، أسألُكَ الأمانَ! واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦] ويقولُ أيضًا: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود:٦١] ويقولُ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ:٥٠]. أمَّا ذاك الرَّجُل فتركَ اللهَ وسألَ صاحبَ القبرِ!

فهؤلاءِ الَّذين تعلَّقَت قلوبُهم بالشجرِ والحجرِ، فصاروا يتَّخذونَ شجرةً يتبرَّكون بها ويَسألونَها البركةَ، وهُمْ يظنُّونَ أنَّهم على طاعةٍ وهُم منَ الطاعةِ للهِ بعيدٌ؛ لذا يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورةِ الكهفِ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

وهذا هوَ الإشكالُ الكبيرُ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، فهوَ يَتصوَّرُ أنَّه على خيرٍ، تَراهُ طوالَ العامِ وهو ظالمٌ لزوجتِه أو لأولادِه أو لعُمَّالِه في مصنعِه، ويأكلُ أموالَ الناسِ بالباطلِ، ويسرقُ، ثُمَّ إذا جاءَ رمضانُ اعتمرَ واعتكَفَ في المسجدِ عشَرةَ أيامٍ، يظنُّ أن هذهِ هيَ الطاعةُ، وليسَتْ هذهِ هيَ الطاعةَ الَّتي يَترتبُ عليها الحصولُ على السعادةِ، إنَّما هذا انحرافٌ عنِ الطاعةِ والمَقْصُودِ مِنها.

وفي سورةِ الأعرافِ يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:٢٩-٣٠]، ففي سورة الكهف يقول: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، وهنا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

فإذا قالَ قائلٌ: لكنَّنا نرَى البُعداءَ عنِ اللهِ منَ الفجارِ والعُصاةِ، أو منَ الكفارِ، نراهُم في سعادةٍ، يَتمتَّعون بالمأكلِ والمشربِ والملبَسِ، ويتمتَّعونَ بالأجواءِ الطيِّبةِ والأنهارِ الجاريةِ؟

قُلنا: نعَمْ يَتمتَّعون، لكنَّهم لا يَسعَدون، فالمتاعُ محصورٌ بالدنيا، والسعادةُ مُتصلةٌ بالدنيا والآخِرةِ، هذا الفارقُ، نعَمْ هُمْ يَتمتَّعون، الذينَ قضَوْا الليلَ وهُم يَسكَرون -عافانا اللهُ وإيَّاكم منَ البلاءِ، وأصلحَ لنا ذُرِّيَّاتِنا- وتتمايلُ أجسادُهم منَ السُّكْرِ والغِنا، هُمْ في زعمِهم سعداءُ، لكِنْ في الحقيقةِ هم ليسوا بسُعداءَ.

وهُم يَتمتَّعون لكنِ المتاعُ ليسَ محصورًا بابنِ آدمَ، فالبهائمُ تتمتعُ أيضًا، يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابِهِ الكريمِ لَمَّا عدَّدَ خيراتِ الدنيا منَ الأنهارِ والأزهارِ: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ﴾ [النازعات:٣٣]، وفي سورة عبَسَ قالَ: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس:٣٢-٣٣] فكُلُّ هذا متاعٌ، والمتاعُ يَزولُ!

وتدبَّرْ هذه الآياتِ في سورةِ الإسراءِ يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: همُّه وقصدُه وجهدُه وعملُه الدنيا ليسَ الآخِرةَ ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ

لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٨-١٩]، وقالَ تعالى عنِ الذينَ أرادوا الدنيا والذينَ أرادوا الآخرةَ: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ [الإسراء:٢٠] أي: نُعطي المسلمَ ونُعطي الكافرَ، ونُعطي القريبَ ونُعطي البعيدَ، ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء:٢٠-٢١]، أي: يَتفاضَلون في الدنيا.

فمِنَ المُمكنِ أَنْ يَرتقيَ الفاسدُ إلى أعلى الدرجاتِ، ولا يزالُ الصالحُ مِسكينًا في الأسفلِ، لكِنْ هذا في الدنيا، ومنَ المُمكنِ أَنْ يَموتَ الفاسدُ وهو في الأعلى، ويَموتَ الصالحُ وهو في الأسفلِ، لكِنَّ الحياةَ مُتصلةٌ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، لكِنْ لا تَنتهي القَضيةُ ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

والمصيبةُ أنَّ هذا التفضيلَ في الدنيا يَنتهي مهما عُمِّرَ الإنسانُ، وعُمرُ الدنيا بعُمرِك أنتَ، فالدنيا قد تُعمرُ ملايينَ السنينَ، لكِنْ عمرُ الدنيا هو عمرُك أنتَ؛ ستون أو سَبعون أو مِئة ثُمَّ تَنتهي الدنيا بالنسبةِ لكَ؛ لذا يقولُ المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه:١٣١]، سمَّى هذا المتاعَ زَهرةً؛ لأن الزهرةَ سريعةُ الذبولِ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

إذَنْ ماذا أفعلُ؟

قالَ الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢]، ويقولُ سبحانَه في سورةِ محمدٍ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ أي: في الدنيا

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢] فلا تَنتهي القَضيَّةُ فهُناك ثوابٌ للمُحْسِن وعِقابٌ للمُسِيء.

وقَد وضعَ لنا نبيُّنا ﷺ قاعدةً عظيمةً لِمَنْ تأملَها، ففي الحديثِ المرفوعِ عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه يقولُ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ يُعْطِي المَالَ مَنْ أَحَبَّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الإِيمَانَ إِلَّا لِمَنْ يُحِبُّ»(١).

فوجودُ المالِ والعقارِ والغِنى في يدَيْ إنسانٍ هذا ليسَ دليلًا على محبةِ اللهِ، وحالُ الفقرِ في إنسانٍ ليسَتْ دليلًا على أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَبغضُ فلانًا، فليس هناكَ ارتباطٌ! وكلُّنا يقرأُ في سورةِ الفَجرِ قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ﴾ أي: ضيَّقَ ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ يقولُ اللهُ: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر:١٥-١٧].

فليسَ الغِنَى دليلًا على الإكرامِ، وليسَ الفقرُ دليلًا على الإهانةِ، فاللهُ يُعطي الدنيا مَنْ يُحبُّ ومَنْ لا يُحبُّ، ولا يعطِي الإيمانَ إلَّا لِمَنْ أحبَّ، فإنْ رأيتَ إنسانًا مؤمنًا صالحًا تقيًّا فاعلَمْ أنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا.

وهذا حديثٌ عظيمٌ -جاءَ عندَ الحاكمِ في (مُستدركِه)-: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثُمَّ تلا رسولُ الله ﷺ مِنْ سورةِ الأنعامِ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥].

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٢٧٥).

إذَنِ فالسعادةُ معناها: التوفيقُ لطاعةِ اللهِ المنجيةِ منَ العذابِ الأليمِ، والموصلةِ إلى جناتِ النعيمِ، والاستسلامُ التامُّ لقضاءِ اللهِ وقدَرِه.

يقولُ الحربيُّ -رحمَه اللهُ تعالى- وما أجملَ ما قالَ! قالَ: مَنْ لَمْ يؤمِنْ بالقدَرِ لم يَتهنَّ بعيشٍ[(١)].

وهذا عُروةُ بنُ الزبيرِ -رحمَه اللهُ تعالى- سيدٌ مِنْ ساداتِ التابعين، وكبيرٌ مِنْ كُبرائِهم، يُقدِّرُ اللهُ عليهِ أَنْ يُبتلَى في رِجلِه بالأَكَلةِ، فيأخذُ هذا المرضُ مأخذَه، فيشيرُ الأطباءُ عليه بأنَّه لا بُدَّ أن تُقطعَ هذه الرِّجلُ، فيَستسلِمُ لأمرِ اللهِ وقضائِه وقدَرِه، فيَقومون على رِجْله بالمنشارِ فيَنشرون رِجْلَه!.

ولَمَّا أفاقَ في يومِه -لم تغِبْ شمسُ ذلكَ اليومَ- فإذا بالصارخِ يصرخُ، يقولُ: يا عروةُ ماتَ ابنُكَ!.

فتُقطعُ رِجلُه ويموتُ ابنُه في يومٍ واحدٍ! لكِنْ لأنَّه منَ السُّعداءِ الَّذين تشبَّعَت قلوبُهم باليقينِ والرِّضا، فإذا بِهِ يقولُها مُدوِّيةً -وهوَ ينظرُ إلى رِجلِه في يدِ الأطباءِ لم تُدفَنْ بعدُ-: الحمدُ للهِ، أمَا والَّذي حمَلَني عليكِ إنهُ ليعلَمُ أنِّي ما مشَيْتُ بكِ إلى حرامٍ قطُّ.

هذا همُّه، فليسَ الإشكالُ في قطعِ هذه الرِّجْلِ، إنما الإشكالُ إلى أينَ مشَتْ.

ثُمَّ قالَ: اللهمَّ لكَ الحمدُ! إنْ كنتَ أخَذْتَ فقَدْ أعطيتَ! وإنْ كنتَ ابتلَيْتَ فقَدْ عافيتَ! منَحْتَني أربعةَ أعضاءٍ فأخَذْتَ عضوًا! ومنحتَني أربعةَ أبناءٍ فأخَذْتَ ابنًا! ثُمَّ سكَتَ[(٢)].

---

(١) انظر: صفة الصفوة (١/ ٥١٢)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٧٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦١/ ٤١٠)، وانظر: وفيات الأعيان (٣/ ٢٥٧).

وهذا دليلٌ على السعادةِ العظيمةِ الَّتي تجيشُ في صدرِه -رحمَهُ اللهُ تعالى-، كما قالَ الأولُ:

ولستُ أَرَى السَّعادةَ جمعَ مالٍ ولكِنَّ التَّقِيَّ هوَ السَّعِيدُ[1]

الطريقِ الموصلِ إلى السعادةِ:

هُوَ طريقٌ واحدٌ عليهِ عددٌ منَ المحطاتِ لا بُدَّ أَنْ تقفَ عندَها لتتزودَ منها، وتتأكَّدَ أنكَ استزَدْتَ منها، وأخَذْتَ منها الزادَ الكافيَ.

المحطةُ الأولى: الإقبالُ التامُّ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

بأَنْ تُقبلَ كلُّكَ على اللهِ تعالى، لا يُقبلَ بعضُكَ ويَبقى البعضُ، بل تُقبِلُ على اللهِ بكُلِّيَّتِك، ولا تترُكْ مِنْ ذلكَ شيئًا حتَّى تحصِّلَ هذه الثمَرةَ، وذلك بالطاعةِ والإيمانِ والعملِ الصالحِ، وقَدْ قيلَ:

إِذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانٌ ولا دُنيا لِمَنْ لم يُحْيِ دِينَهُ

ومَنْ رضِيَ الحياةَ بغيرِ دِينٍ فقَدْ جعلَ الفَناءَ لها قرينَا

يقولُ ابنُ القيمِ -رحمَه اللهُ تعالى-: قالَ بعضُ العلماءِ: فكَّرْت في مطلوبِ العُقلاءِ فرأَيْت سعيَهم كُلهم في مطلوبٍ واحدٍ وإنِ اختَلفَتْ طرقُهم في تحصيلِه، رأيتُهم جميعَهم إنَّما يسعَوْن في دفعِ الهمِّ والحزنِ عن نفوسِهم، هذا هو المطلوبُ لهم، ولكِنِ الطرقُ مختلفةٌ، فهذا بالأكلِ والشربِ، وهذا بالتجارةِ والكسبِ، وهذا بالنكاحِ، وهذا بسماعِ الأغاني والأصواتِ المطربةِ، وهذا باللهوِ واللعبِ، فقُلتُ:

---

(١) البيت للحطيئة، انظر: ديوانه بشرح ابن السِّكِّيت (ص:٧٩).

هذا مطلوبُ العقلاءِ! ولكِنَّ الطرقَ كلَّها غيرُ موصلةٍ إليه، بل لعَلَّ أكثرَها إنما يُوصلُ إلى ضدِّه.

ثُم قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: -نقلًا عَنْ هذا العالِمِ- قالَ: ولم أَرَ في جميعِ هذِه الطرقِ طريقًا موصلةً إليهِ إلَّا الإقبالَ على اللهِ وحدَه، ومعاملتَه وحدَه، وإيثارَ مرضاتِه على كلِّ شيءٍ[1].

ولهذا قالَ يحيَى بنُ معاذٍ -رحمَهُ اللهُ تعالى- قالَ: مَنْ سُرَّ بخدمةِ الله سُرَّتِ الأشياءُ كلُّها بخدمتِه -وهذا مِنْ جميلِ الكلامِ- ومَنْ قَرَّتْ عينُه باللهِ قرَّتْ عيونُ كلِّ شيءٍ بالنظرِ إليه[2].

فما أجملَ هذا الكلامَ! ولكنَّ الأجملَ قولُ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦].

ونقرأُ أيضًا في قولِ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، إذا حققَ الإيمانَ المقرونَ بالعملِ الصالحِ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

يقولُ ابنُ القيمِ -رحمَه اللهُ تعالى-: ولا تَحسَبْ أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] مقصورٌ على نعيمِ الآخرةِ وجحيمِها

(١) الجواب الكافي (ص:١٩٣).

(٢) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في الفتوة (ص:٣٥)، والبيهقي في الزهد الكبير رقم (٧٢٦).

فقَطْ، بَلْ هوَ في دورِهم الثلاثةِ كذلك: دارِ الدنيا، ودارِ البرزخِ، ودار القَرارِ، هؤلاءِ في نعيمٍ، وهؤلاءِ في جَحيمٍ[١].

فحينَما تقرأُ قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ يَعني في نعيمِ الدنيا، وفي نعيمِ البرزخِ، وفي نعيمِ الآخِرةِ، وحينما تقرأُ: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ يَعنِي: في جَحيمِ الدنيا، وجَحيمِ القبرِ، وجحيمِ الآخرةِ.

المحطةُ الثانيةُ: الانعتاقُ مِنْ كلِّ ذنبٍ ومعصيةٍ.

فلا بدَّ أَنْ نتخلَّصَ مِنْ هذِه الذنوبِ إذا أرَدْنا أَنْ نَسعدَ؛ لأنَّ الذنبَ يَمحقُ كلَّ شيءٍ، أَقْرَأُ لابنِ القيمِ -رحمَه اللهُ تعالى- فإذا بِهِ يقولُ عنِ الذنوبِ وعَنْ عقوباتِها: أنها تَمحقُ بركةَ العمرِ، وبركةَ الرزقِ، وبركةَ العِلمِ، وبركةَ العمَلِ، وبركةَ الطاعةِ، وبالجملةِ أنها تمحقُ بركةَ الدِّينِ والدُّنيا[٢].

فكلَّما أوغَلْنا في الذَّنْبِ والمعصيةِ، وكلَّما أثقَلْنا ظهورَنا بهذه الذنوبِ مُحِقَتِ البركةُ مِنْ أعمارِنا وأرزاقِنا وعِلْمنا وعمَلِنا وطاعاتِنا، دِينِنا ودُنيانا.

المحطةُ الثالِثةُ: الاستِسلامُ لقضاءِ اللهِ تعالى وقدَرِه.

فالَّذي يستسلمُ لقضاءِ اللهِ تعالى وقدرِه تجدُه أسعدَ الناسِ، والَّذي كلما نزلَ عليه بلاءٌ قالَ: الحمدُ للهِ. تجدُه أسعدَ الناسِ، فالراضِي بأمرِ اللهِ تعالى تجدُه سَعيدًا، أمَّا المتسخطُ المعترضُ فتجدُه دائمًا في شقاءٍ -والعياذُ باللهِ-.

يَقولُ نبيُّنا ﷺ: «**عِظَمُ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ،**

(١) الجواب الكافي (ص:٧٦).
(٢) الجواب الكافي (ص:٨٤).

فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[١].

وقالَ الحربيِّ -رحمَه اللهُ تعالى-: مَنْ لم يُؤمِنْ بالقدَرِ لم يتهَنَّ بعيشٍ[٢].

وقالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وإنَّ اللهَ بقِسْطِه وعدلِه جعلَ الروحَ والفرحَ في اليقينِ والرِّضا، وجعلَ الهمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخطِ[٣].

وابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَّا كبرَ فقَدَ بصرَه وعمِيَ، فكانَ يقولُ لنفسِه معزِّيًا ومستسلِمًا لقضاءِ الله وقدرِه في عِزةٍ -وليسَ في خنوعٍ-:

إِنْ يأخُـذِ اللهُ مِـنْ عينَـيَّ نورَهُمـا ... ففـي فُـؤادِي وقلبـي مِـنْهما نـورُ

قَلْبـي ذكـيٌّ غـيرُ ذي عِـوَجٍ ... وفي فَمي صارمٌ كالسَّيفِ مَشهورُ[٤]

المحطةُ الرابعةُ: القناعةُ بكلِّ شيءٍ.

فاقنَعْ بغِناكَ وفقرِكَ، واقنَعْ بيُسرِكَ وعُسرِكَ، واقنَعْ بما كتبَ اللهُ لكَ، واقنَعْ بكلِّ ما جاءَكَ منَ اللهِ تكُنْ أسعدَ الناسِ، يقولُ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، كُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّهُ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ»[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: صفة الصفوة (١/ ٥١٢)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٦٧).

(٣) أخرجه هناد في الزهد رقم (٥٣٥)، وابن أبي الدنيا في اليقين رقم (٣١)، والبيهقي في الشعب رقم (٢٠٥).

(٤) أخرجه الدينوري في المجالسة رقم (١٨٥٢)، وانظر: الاستيعاب (٣/ ٩٣٨).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم، رقم (٢٣٠٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، رقم (٤٢١٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ ﷺ أيضًا: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»[١].

ويقولُ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: يا ربِّ، أيُّ عبادِك أحبُّ إليكَ؟ قالَ: أكثرُهم لِي ذِكرًا. قال: فأيُّ عبادِك أغنَى؟ قال: أقنعُهم بما أعطيتُه. قالَ: فأيُّ عبادِك أعدلُ؟ قالَ: مَنْ أدانَ نفسَه مِنْ نفسِه[٢].

هِـيَ القناعـةُ فالزَمْهـا تكُـنْ ملكًـا ... ولَوْ لَـمْ يكُنْ مِنها إلَّا راحـةُ البـدَنِ

وانظُـرْ لِمَـنْ ملَـكَ الـدُّنيا بأجمَعِهـا ... هَلْ راحَ منها سِوى بالقُطنِ والكفَنِ

المحطةُ الخامسةُ: إذا أرَدْت أن تَسعَدَ فانظُرْ إلى مَن هوَ أسفلَ منكَ.

مهما أعطاكَ اللهُ فانظُرْ إلى مَنْ هو أسفلَ منكَ، إذا أعطاكَ بيتًا فلا تنظُرْ إلى مَنْ ملكَ بيتَيْنِ، وانظُرْ إلى مَنْ لا يجِدُ بيتًا، إذا أعطاكَ ما أعطاكَ فانظُرْ إلى مَنْ هو دونَكَ تكن مُرْتاحًا مطمئنًّا، وهذا ليس كلامِي، بَلْ هذا كلامُ وحيٍ أخبرَ به النبيُّ ﷺ، فخُذْ به تسعَدْ.

فانظُرْ إلى مَنْ هو أسفلَ منكَ في حياتِكَ كلِّها، ولا تفهَمْ مِنْ هذا أنَّني أقولُ لكَ: لا تُطوِّرْ مِنْ نفسِك، بَلْ طوِّرْ مِن نفسِكَ، واسْعَ في رزقِك، فهذا لا يضرُّكَ ولا يعيبُكَ إذا كان فيما أحلَّه اللهُ، لكِنْ لا تَتطلَّعْ إلى ما عندَ الناسِ فتتعبَ.

ونبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ -فيما يرويه مُسلمٌ-: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّه أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ»[٣]،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، رقم (١٠٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه هناد في الزهد رقم (٤٨٩)، وابن السني في القناعة رقم (٢١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٣/ ٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويقولُ ﷺ أيضًا -في روايةٍ عندَ البُخاريِّ ومُسلمٍ-: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ»[١].

ويوردُ الترمذيُّ -رحمه الله تعالى- عَنْ عبدِ اللهِ بنِ عونٍ -رحمَهُ اللهُ تعالى- أَنَّه يَقُولُ: صَحِبتُ الأغنياءَ فلَمْ أرَ أحدًا أكثرَ همًّا منِّي، أرى دابةً خيرًا من دابَّتي. وثوبًا خيرًا من ثوبي، قالَ: فصحبتُ الفُقراءَ فاستَرَحْت[٢].

فإذا تعلقَ نظرُك بما عندَ الناسِ الَّذين هُمْ فوقَك وأغنَى منكَ تعبتَ وشقِيتَ؛ لأنَّك تفكرُ أَنْ تكونَ مثلَهم.

المحطةُ السادسةُ (الأخيرة): وهِيَ الدُّعَاءُ.

واعلَمْ أنَّ هذِه المحطةَ ما أخذَ بها أحدٌ إلَّا رشَدَ وسعِدَ، إنَّها تلكَ الأيدي الطاهرةُ المتوضئةُ الَّتي ترفعُ إلى السماءِ تطرقُ أبوابَ السماءِ.

وتقولُ: يا ربِّ اشرَحْ لي صدري. وتُردِّدُ هذا الدعاءَ، فقَدْ أمرَ المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيَّه أَنْ يُرددَ هذا الدعاءَ: اشرَحْ لي صدري ويسِّرْ لي أمري. فإذا انشرحَ الصدرُ حصلَتِ السعادةُ، كَمْ مرةً تقولُ: يا ربِّ أسألُك أَنْ أكونَ سعيدًا، يا ربِّ ارفَعْ عنِّي الشقاءَ.

يقولُ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانَ نبيُّنا ﷺ كثيرًا ما يَقولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه، رقم (٦٤٩٠)، ومسلم: كتاب الزهد والرقاق، رقم (٨/٢٩٦٣).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب اللباس، باب ما جاء في ترقيع الثوب، بعد حديث رقم (١٧٨٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة، رقم (٢٨٩٣).

وكانَ يأمرُنا ﷺ في حديثٍ آخرَ يقولُ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَهْدِ البَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ»[1].

فاطرُقْ بابَ السماءِ، واسأَلْ مَن بيَدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ.

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وزِدْ وبارِكْ على عبدِكَ ورسولِكَ نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصَحْبِه أَجمَعينَ.

• • k • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب من تعوذ بالله من درك الشقاء، رقم (٦٦١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢)

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

القارئُ في كتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يجدُ أنَّ الأمرَ بالصلاةِ يتكررُ كثيرًا، والقارئُ في سُنةِ النبيِّ ﷺ يجدُ الأمرَ بالصلاةِ كثيرًا، والناظرُ في المواعظِ والوصايا والخُطبِ يجدُ أنَّها تتحدثُ عنِ الصلاةِ كثيرًا، والسامعُ لوصايا الآباءِ والأمهاتِ لأَوْلادِهم يجدُ الصلاةَ تتكررُ كثيرًا في وصاياهم.

يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [هود:١١٤]، ويقولُ لنا نبيُّنا ﷺ: «**الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ**»(١). وما ذلك كلُّه إلَّا لأهمِّيَّتِها وعظيمِ منزلتِها عندَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإنَّني أذكِّرُ نفسي وإيَّاكم -المصلِّيَ وغيرَ المصلِّي- بمنزلةِ الصلاةِ، فإنْ كانَ مُصلِّيًا تشبثَ بما هو عليهِ وعضَّ عليه بالنواجذِ، وإنْ كانَ مِنْ غيرِ المصلِّينَ انتبَهَ مِنْ غفلتِه، واستمسَكَ بهذا الأمرِ العظيمِ.

وهَذِه بعضُ مَنازِلِ تَعظيمِ قَدْرِ الصَّلاة وأَهميَّتها:

المنزلةُ الأُولى: جعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصلاةَ في مكانةٍ عظيمةٍ تأتِي مباشرةً بعدَ توحيدِه والأمرِ بعبادتِه.

تدبَّرْ قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١١]. فقال: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٢٤٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَيْ: إنْ تابَ هؤلاءِ المُشركون الكفارُ مِنْ شركِهم وكفرِهم، ثُمَّ تَلَا ذَلِك بقَوْلِه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة:١١].

ومَعنَى ذَلِك: أنهم إذا تابوا ولم يُقيموا الصلاةَ ولم يُؤتوا الزكاةَ، فليسوا لكُمْ بإخوةٍ في الدِّينِ، بَل لا يزالون على كُفرِهم وضلالِهم وشركِهم، ونبيُّنا ﷺ يقولُ في الحديثِ المشهورِ -فيما جاءَ في (صحيح البُخاريِّ) مِنْ حديثِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**» أي: على خمسةِ أعمدةٍ، «**شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»[(١)]، وكَمْ مرةٍ طرقَ أسماعَنا هذا الحديثُ، وحَفِظْناهُ ونَحنُ صِغارٌ!.

وقد كانَ مِنْ عادةِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه يكتبُ إلى عُمالِه -والعاملُ في مصطلحِ ذاكَ الجيلِ الرائعِ هوَ الأميرُ؛ لأنَّ الأميرَ عاملٌ، يعملُ في خِدمةِ رعيتِه، فلم يُنَادَوْا: بالأُمراء. بَلْ كانوا يُلقَّبُونَ: بالعُمَّال- يقولُ لهم: إن أَهمَّ أمورِكم عندي الصلاةُ، مَنْ حفظَها وحافظَ عليها حفظَ دينَه، ومَنْ ضيَّعَها فهوَ لِما سواها أضيعُ[(٢)]. يقولُ: أيُّها العاملُ، أيُّها الأميرُ إنْ ضيَّعْت صلاتَكَ فأنتَ مضيعٌ لِما سِواها، وإنْ حافَظْتَ على صلاتِكَ فأنتَ حافِظٌ لدِينكَ وما دونَه.

المنزلةُ الثانيةُ: أنَّها تقرَنُ بأعظمِ الفرائضِ وأعظمِ الطاعاتِ.

ونادرًا ما تجدُها تأتي مُنفردةً -أي: ذِكْر الصلاةِ- فتُقرَنُ بأعظمِ العباداتِ؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام، رقم (١٦).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٦، رقم ٦).

لعظمِها، نعَمْ هيَ قَدْ تأتي أحيانًا منفردةً، كما في قولِ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤]، لكنِ الأغلبُ أنَّها تأتِي وقَدْ قُرِنَتْ بها أعظمُ الفرائضِ، يقول تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥]، وقَد قالَ أيضًا: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، ونبيُّنا ﷺ يقولُ -كما جاءَ في حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: «**ثَلَاثٌ أَحْلِفُ عَلَيْهِنَّ**» أي: أحلفُ أنَّها ستكونُ، وأنَّ نتيجتَها حتميةٌ، وذكرَ مِنْ هذِهِ الثلاثةِ قالَ: «**لَا يَجْعَلُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَنْ لَهُ سَهْمٌ فِي الإِسْلَامِ كَمَنْ لَا سَهْمَ لَهُ، وَأَسْهُمُ الإِسْلَامِ ثَلَاثَةٌ: الصَّلَاةُ، وَالصَّوْمُ، وَالزَّكَاةُ**» رواهُ أحمدُ في (مسندِه)[1]. وما ذاكَ إلَّا أنَّها تتكررُ دائمًا مقترنةً بأعظمِ العباداتِ.

المنزلةُ الثالثةُ: أنَّها منَ الأوامرِ المتكرِّرةِ في كتابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلا تتجاوزُ صفحةً أَوْ صفحتَيْنِ إلَّا وجَدْتَ الأمرَ بالصلاةِ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] في سورةِ البينةِ، في سورةِ إبراهيمَ يقولُ الحقُّ سبحانَه: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم:٣١]، في سورةِ البقَرةِ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨].

وأعجبُ مِنْ ذلكِ كلِّه أنَّ النبيَّ ﷺ وهوَ مسجًّى على فراشِ الموتِ يُوصِي بأعظمِ وَصايا، لو كانَ هناكَ وصيةٌ أعظمُ لوصَّى بها وهو يودعُ أمَّتَه، جاءَ في (مسند أحمدَ) مِنْ حديثِ أُمِّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ آخرُ وصاياهُ: «**الصَّلَاةَ!**

(١) مسند أحمد (٦/ ١٤٥).

الصَّلَاةَ! وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»[1]؛ لعظمِها عندَ اللهِ يوصِي بها ﷺ أمتَه، فمَنْ أعرضَ عَنْ هذهِ الوصيةِ، فليسَ لَهُ إلَّا الخيبةُ والخسرانُ، ومَنْ أخذَ بهذِهِ الوصيةِ، واستمسَكَ بها، وجعلَها على رأسِ أولوياتِه أفلحَ وأنجحَ.

المنزلةُ الرابعَةُ: أنَّها لم تُشرَعْ في أمةِ محمدٍ ﷺ، وإنَّما شُرعَتْ عندَ الأنبياءِ والمرسلِينَ ممَّنْ سبقَ النبيَّ ﷺ.

ففي كتابِ اللهِ كثيرًا ما يَتردَّدُ ذكرُ هذَا، فهاهوَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقولُ كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم:٤٠] وهذا يدلُّ علَى أنَّ الصلاةَ موجودةٌ في شريعةِ إبراهيمَ.

ويمتدحُ المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيَّه إسماعيلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيقولُ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٥].

ويقولُ في شأنِ نبيِّه موسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه:١٤].

ويخاطبُ مريمَ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ فيقولُ لَهَا: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٣].

ويقولُ عَنْ عيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:٣١].

ويقولُ في شأنِ نبيِّنا ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢].

---

(١) مسند أحمد (٦/ ٢٩٠).

وقَد جمعَ النبيُّ ﷺ ذلكَ كلَّه، كما جاءَ في (صحيح ابنِ حبانَ) مِنْ حديثِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، إذْ يقولُ: «أُمِرْنَا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أَنْ نُؤَخِّرَ سُحُورَنَا، وَنُعَجِّلَ فِطْرَنَا، وَأَنْ نُمْسِكَ بِأَيْمَانِنَا عَلَى شَمَائِلِنَا فِي صَلَاتِنَا»[1]، فهذا مِمَّا أمرَ به الأنبياءُ كلُّهم.

المنزلةُ الخامسَةُ: أنَّ الصَّلاةَ مقياسُ الإيمانِ.

فإذا رأيتَ نفسَكَ مِنْ أهلِ الصلاةِ فاعلَمْ أنكَ مؤمنٌ، أمَّا إذا رأيتَ أنكَ لا تصلِّي إلَّا الجمعةَ، أو إذا ماتَ لكَ قريبٌ أو زميلٌ، فاعلَمْ أنَّ بينَكَ وبينَ الإيمانِ خندقًا عظيمًا، وأنَّ بينَكَ وبينَ الإيمانِ مسافةً كما بينَ السماءِ والأرضِ؛ لأنَّها مقياسُ الإيمانِ، نبيُّنا ﷺ يقولُ كما جاءَ في حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»[2]؛ لذا يقولُ الحسنُ -رحمه اللهُ تعالى-: يقولُ ابنُ آدمَ: أيُّ دينِكَ يعزُّ عليكَ إذا هانَتْ عليكَ صلاتُكَ؟! إذا هانَتْ عليكَ صلاتُكَ فهيَ على اللهِ أهونُ[3].

المنزلةُ السادسةُ: أنَّ جميعَ الكائناتِ تُصلِّي وتسجدُ للهِ.

إنَّ الَّذي يتكبرُ اليومَ منَ المكلَّفين منَ الإنسِ والجنِ ولا يُصلِّي، فلْيَعلَمْ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ غنيٌّ عَنْ صلاتِه وغنيٌّ عَنْ صلاةِ العالَمين كلِّهم، لكِنْ يقالُ لهُ: إذا لم تُصَلِّ أنتَ فما بينَ السماءِ والأرضِ كلُّهم يُصلُّون للهِ، فماذا أكونُ أنا وأنتَ؟!

---

(١) صحيح ابن حبان (١٧٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، رقم (٤١٣)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة، رقم (٤٦٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٢٩٠٧).

قد يقول قائلٌ: هذا فيه مبالغةٌ. لكن لا مبالغةَ فيهِ أبدًا، اذهَبْ وافتَحْ سورةَ الحجِّ واقرَأْ فيها قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ليسَ كلُّ الناسِ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨] كلُّ هؤلاءِ يسجدونَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإنَّكَ تقرأُ -أو لا شكَّ قُرِئَ عليكَ يومًا منَ الأيامِ-: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦]، وقُرِئَ عليكَ قولُ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور:٤١].

يقولُ نبيُّنا ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ»، والأطيطُ هو الصوتُ الصادرُ منَ الشيءِ إذا وضَعْتَ عليه ثقلًا «مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعَةِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ»[(١)]، السماءُ كلُّها -والتي لا يحويها عقلُنا وذهنُنا ولا تَطالُها أبصارُنا-: ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلَّا وفيها ملَكٌ واضعٌ جبهتَه للهِ ساجدًا، فعلى المصلِّي ألَّا يَغترَّ بصلاتِه، وعلى الَّذي لا يُصلِّي ألَّا يظنَّ أنَّه يضرُّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئًا.

وقَد جاءَ في كتابِ (الزهد) لابنِ المبارَكِ -رحمه الله تعالى-: أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ على قبرٍ دُفنَ مَنْ فِيهِ حديثًا فوقفَ عندَه، فقالَ: «رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتُنَقِّلُونَ يَزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ»[(٢)]، أَيْ: يَتمنَّى صاحبُ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا»، رقم (٢٣١٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الزهد لابن المبارك رقم (٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القبرِ هذا لَوْ خرجَ الآنَ وصلَّى ركعتَيْن خفيفتَيْن، لو قيلَ له: نعطيكَ الدنيا بأَسْرِها، قالَ: لا، بل ركعتانِ أصلِّيهما للهِ!

فكُنْ أنتَ صاحبَ الركعتَيْن، فأنا وأنتَ لا نَزالُ على قيدِ الحياةِ.

المنزلةُ السابعَةُ: أنَّ الصَّلاةَ تُكفِّرُ الذُّنُوب والمعاصِي:

خرجَ الصحابيُّ الجليلُ أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معَ النبيِّ ﷺ في زمنِ الشتاءِ والورقُ يتهافَتُ، فأخذَ النبيُّ ﷺ بغصنَيْنِ من شجرةٍ، فجعلَ ذلك الورقُ يتهافتُ، فقالَ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ**» قلتُ: لبيكَ يا رسولَ اللهِ. قال: «**إِنَّ العَبْدَ المُسْلِمَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ يُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللهِ فَتَهَافَتُ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا يَتَهَافَتُ هَذَا الوَرَقُ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**»[1]، فكما أنَّ هذِهِ الشجرةَ مثقلةٌ بهذهِ الأوراقِ كذلكَ أنا وأنتَ يا عبدَ اللهِ مُثقَلون بالذنوبِ والمعاصِي، ولا تتساقطُ هذه الخطايا والذنوبُ إلَّا بالعملِ الصالحِ والإكثارِ منَ الحسناتِ، والصلاةُ منَ العملِ الصالحِ، فإذا صلَّى العبدُ تساقطَتْ ذنوبُه كما يتهافَتُ الورقُ مِنْ هذه الشجرةِ.

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -والحديثُ عندَ الطبرانيِّ- عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَكًا يُنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ**» أي: عندَما يؤذِّنُ المؤذنُ هناكَ ملَكٌ نؤمنُ بوجودِه، ونؤمنُ بهذه الدعوةِ الَّتي يرسلُها «**يَقُولُ: يَا بَنِي آدَمَ قُومُوا إِلَى نِيرَانِكُمُ الَّتِي أَوْقَدْتُمُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَأَطْفِئُوهَا**»[2]، إنَّ الذنبَ محرقٌ، وإنَّ العبدَ إذا أذنبَ أوقدَ على نفسِه نارًا، فإذا قامَ يصلِّي أطفأَ هذه النارَ وغسلَ آثارَها.

وقد جاءَ أيضًا -عندَ الطبرانيِّ- مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٩٤٥٢)، والمعجم الصغير رقم (١١٣٥).

يقولُ ﷺ: «تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ» أي: تُحرقُكم الذنوبُ والمعاصي، فأيُّ ذنبٍ نقَعُ فيه فهوَ كالحرقِ، يقعُ على أجسادِنا فيحدثُ تقرُّحًا وصديدًا «فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الفَجْرَ غَسَلَتْهَا» أي: غسَلَتْ ذلكَ الصديدَ، وعالجَتْ تلكَ الجروحَ، وطهَّرَتْ ذلكَ المكانَ، «ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ العَصْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ المَغْرِبَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ العِشَاءَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَنَامُونَ وَلَا يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا»[1]، أي: ولا يكتبُ علَيْكم شيءٌ منَ السيئاتِ حتَّى تستيقِظوا، وهذا مِنْ رحمةِ اللهِ ومِنْ عظيمِ منزلةِ الصلاةِ.

المنزلةُ الثامنةُ: أنَّ الصلاةَ تغيظُ الشيطانَ.

مِن مزاياها العظيمةِ -أي: الصلاةِ- أنَّها تغيظُ الشيطانَ، فإذا رآكَ شيطانُ الإنسِ وشيطانُ الجنِّ تصلِّي يغتاظُ، ويتضايقُ، ويتململُ، ويضطربُ، وإذا رآكَ تتوضأُ وتذهبُ إلى مصلَّاكَ انزعَجَ! وانظُرْ في عينَيْ شيطانِ الإنسِ وانظُرْ حركاتِه كيفَ يضعُ أمامَكَ العوائقَ لئلَّا تُصلِّيَ! فإذا صلَّيْت أغَظْتَ شيطانَ الإنسِ والجنِّ.

يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورةِ المائدةِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، فهُوَ يعملُ جاهدًا أَنْ يصدَّكم عَنْ ذِكرِ اللهِ، والصلاةُ منَ الذِّكرِ لكِنْ ذكَرَها لأهميتِها، ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

ويقولُ نبيُّنا ﷺ، والحديثُ في صَحيحِ مُسلمٍ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ، اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي» منَ الغيظِ «يَقُولُ: يَا وَيْلِي!» -وفي روايةٍ «يَا وَيْلَهُ!» يعنِي:

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٢٢٢٤).

نفسَه-، «أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِي النَّارُ»[(١)]؛ لذا هو يحاربُ بأيِّ طريقةٍ أيَّ وسيلةٍ تُوصلُك إلى الصلاةِ، وأيَّ شعارٍ يَحملُ للصلاةِ.

واقرَأْ في سورةِ المائدةِ يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أَيْ: إذا رفَعْتم أيَّ شعارٍ تَدْعون فيه الآخرينَ إلى الصلاةِ، الأذانَ أو غيرَ ذلكَ ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:٥٨]، جاءَ عثمانُ بنُ أبي العاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى النبيِّ ﷺ -والحديثُ في (صحيح مسلمٍ)- قالَ: يا رسولَ اللهِ إنَّ الشيطانَ قَدْ حالَ بينِي وبينَ صلاتِي وقراءَتِي يُلَبِّسها عليَّ- إمَّا أثناءَ الصلاةِ بالوسوسةِ والسهوِ، أو قبلَ الصلاةِ بالتشكيكِ فيها وفي فرضيَّتِها، أو بالتقليلِ مِنْ قيمتِها وأجرِها وثوابِها، أو بعدَ الصلاةِ- قالَ ﷺ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خَنْزَبٌ. فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ، فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ وَاتْفُلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا» قالَ عُثمانُ: ففعلتُ ذلكَ فأذهبَه اللهُ عنِّي[(٢)].

إنَّها عداوةٌ دائمةٌ وغيظٌ حاصلٌ إذا رآكَ تصلِّي!

فمِنْ خصائصِ الصلاةِ أنَّها تغيظُ الشيطانَ، فأغِظْ أعداءَكَ منَ الإنسِ والجنِّ بصلاتِك، واظهَرْ بها في الملأ، فإذا تركناها استحوذَ علينا الشيطانُ، وإذا استحوذَ علينا الشيطانُ هلَكْنا، ثُمَّ تحسَّرْنا في يومِ القيامةِ.

والآياتُ الدالةُ على ذلكَ كثيرةٌ، لكِنِ اقرَأْ ما جاءَ في سورةِ الزخرفِ يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ والصلاةُ منَ الذِّكْرِ، كما أنَّ القرآنَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم (٨١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، رقم (٢٢٠٣).

أعظمُ الذِّكْرِ، قالَ: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: ومَنْ يغفُلُ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يَعنِي: يومَ القيامةِ ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٨]، لكِنْ لا يُفيدُ، فقَدْ جاءَ يومُ القيامةِ يومُ الحِسابِ لا العَمَل.

ويقولُ ﷺ: «مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ» ليس أَلْفًا، أو ألفين، أو عشَرةَ آلافٍ، أو مئةَ ألفٍ «فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ»[(١)]، فكَمْ بيتًا مِنْ بيوتِ المسلمين اليومَ لا يُصلُّون كلُّهم؟! لا الأبُ، ولا الأمُّ، ولا الأولادُ، ولا الخدمُ، أكثرُ مِنْ عشَرةِ أنفسٍ في هذا البيتِ لا يُصلُّون، فاستحوَذَ عليهمُ الشيطانُ، وركِبَتْهم المشاكلُ في ليلِهم ونهارِهم، والشيطانُ يترصَّدُ لهذا.

وقَدْ جاءَ في (صحيح البخاريِّ): أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ» أي: إذا جِئْنا للنومِ عقَدَ الشيطانُ على قافيةِ أحدِنا ثلاثَ عقدٍ «يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا» أي: يجعلُ ختمًا على كلِّ عقدةٍ مكتوبًا عليهِ: «عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ» يقولُ ﷺ: «فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»[(٢)]. فانظُرْ إلى عِظمِ قدرِ الصلاةِ، وعِظمِ منزلتِها.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، رقم (٥٤٧)، والنسائي: كتاب الإمامة، باب التشديد في ترك الجماعة، رقم (٨٤٧)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٦٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع، رقم (٧٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المنزلةُ التاسعةُ: أنَّ الصلاةَ سياجٌ يحمينا ونحنُ في قبورِنا.

يقولُ ﷺ -كما جاءَ في حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «**إِنَّ المَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ**» أحدُنا لَوْ وضعَ في غرفةٍ مكيفةٍ وبينَ يديهِ أصنافُ الطعامِ والشرابِ، ويغلقُ عليهِ البابُ، ويسمعُ مَنْ أغلقَ عليهِ البابَ يخطو متجهًا بعيدًا عنهُ يضيقُ حسرةً، وهوَ في مكانٍ آمِنٍ مُهَيَّأٌ، وُفِّرَتْ له وسائلُ الراحةِ، فكيفَ بمَنْ كانَ في قبرِه «**فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ**» أي: يأتيهِ العذابُ، لكِنْ هؤلاءِ الحـرسُ، وهذا السياجُ الآمـنُ يمنعُ العذابَ أَنْ يصلَ إليهِ، «**فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ. ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَيَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ. ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ. ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَتَقُولُ فِعْلُ الخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ**»[1].

إنَّها خاصيةٌ تُضافُ إلى ما تقدَّمَ، فالصلاةُ سياجٌ يحمينا ونحنُ في قبورِنا، ومَهما بلغَ الجمعُ الذي حولَكَ لو شيَّعوكَ إلى قبرِك سيُولونَ عنكَ كلُّهم، ولَنْ يَبقَى معَنا حتَّى هذِهِ الثيابُ الَّتي علينا، والأموالُ الَّتي في حسابِنا، ومعارفُنا وجاهُنا ومناصبُنا كلُّ ذلِك سيُولِّي عنَّا، وتأتي الصلاةُ عندَ رؤوسِنا تقولُ: ما قِبَلي مدخلٌ. فلا تُفرِّطْ في هذه الخاصيةِ العظيمةِ الَّتي جعلَها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى للمصلِّينَ.

(١) أخرجه عبد الرزاق رقم (٦٧٠٣)، وابن أبي شيبة رقم (١٢١٨٨)، وابن حبان رقم (٣١١٣)، والحاكم (١/ ٣٧٩).

المنزلةُ العاشرَةُ: أنَّ الصلاةَ فيها نجاةٌ مِنْ عقوبةِ الدارَيْنِ.

يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ والعربُ تسمِّي الولدَ الطالحُ: خلْف، وتُسمِّي الولدَ الصالحَ: خلَف[1]، وهُنا هؤلاءِ الذين جاؤُوا على إثرِ ذِكرِ الأنبياءِ والمرسَلين جاؤُوا خلْف ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ [مريم:٥٩].

لكِنَّ الفرصةَ متاحةٌ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٦٠] فانظُرْ إلى عظمةِ كرمِ الكريمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأقولُ للَّذي ضيعَ الصلاةَ سِنينَ: يقولُ لنا الربُّ الكريمُ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.

ثُم تدبَّروا قولَ الحقِّ سبحانه: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨] أي: محبوسةٌ، وحبسُها كَسبُها، أي: تُحبسُ بما كسبَتْ ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المدثر:٣٨-٤٠] أَيْ: يسألونَ ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المدثر:٤١] فإذا وجَدوهم قالوا: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٢] أي: ما الَّذي أوجدَكم في سقرَ؟ ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المدثر:٤٢] أي: ما كُنا في عدادِ المصلِّين، إذا ذهبَ الناسُ إلى صلاةِ الفجرِ نحنُ منَ النائِمينَ، وإذا ذهبَ الناسُ إلى صلاةِ الظهرِ نحنُ منَ الغافِلين، لا نصلِّي إلا حسبَ الظروفِ، إذا كانَتْ هناكَ فرصةٌ صلَّيْنا وإلَّا فلا، ولا تأتي الصلاةُ على رأسِ الأولوياتِ.

لذا يَقولُ نبيُّنا ﷺ حينَما ذكرَ الصلاةَ يومًا قالَ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا**» وتدبرَ، ليسَ (مَنْ صلَّاها)، بَلْ «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا**» يقول ﷺ: «**كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ**

(١) انظر: معجم لسان العرب (مادة: خلف).

القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ» رواهُ أحمدُ في (مسنده) وصحَّحَه أحمدُ شاكِر -رحمه اللهُ تعالى-[1].

وانظُرْ إلى وصيةِ النبيِّ ﷺ لأَبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا وَإِنْ قُطِّعْتَ أَوْ حُرِّقْتَ، وَلَا تَتْرُكَنَّ الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ مُتَعَمِّدًا، وَمَنْ تَرَكَهَا مُتَعَمِّدًا بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ»[2]، فالأمرُ ليسَ سهلًا، ففيها نجاةٌ مِنْ عقوبةِ الدارَيْنِ.

المنزلةُ الحادية عشرَة: مَنْ حافظَ على الصلاةِ نالَ الفلاحَ والنصرَ والتأييدَ.

فالمصلِّي مُفْلِحٌ مَنصورٌ مُؤيَّدٌ، ولنقرَأْ قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حينَما ذكرَ أولئِكَ القومَ الفضلاءَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]، ويقولُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤-١٥]، ويقولُ في أولِ سورةِ لقمانَ: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:١-٥].

وانظُرْ إلى هذا القرارِ مِنَ النبيِّ ﷺ يقولُ: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ» فالَّذي يبحثُ عنِ النصرِ لهذهِ الأُمَّةِ لَنْ يجدَ نصرًا إلَّا في هذا الحديثِ: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ»[3].

---

(١) مسند أحمد (٢/ ١٦٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وصححه شاكر رقم (٦٥٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (١٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣٤).

(٣) أخرجه النسائي: كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف، رقم (٣١٧٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالأمةُ الَّتي لا تصلِّي لا تُنصرُ، والأمةُ التي لا تعرفُ طريقًا إلى المساجدِ لا تنصرُ أبدًا، خاصةً إذا كانت مسلمةً؛ لأنَّه يُستغربُ منَ المسلمِ أنَّه لا يصلِّي.

المنزلةُ الثَّانية عَشرة: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استودعَ في الصلاةِ أجورًا عظيمةً كثيرةً جدًّا.

وحسبي وإيَّاكُم قولُ النبيِّ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسْبِغُ الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُومُ فِي صَلَاتِهِ فَيَعْلَمُ مَا يَقُولُ إِلَّا انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الخَطَايَا، لَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ»[1]، انظُرْ إلى الأجورِ العظيمةِ، فشنِّفوا لهذا الحديثِ الأسماعَ، وافتَحوا لهُ القلوبَ، وافرَحْ به أيُّها المصلِّي، والَّذي يصلِّي منذُ سنواتٍ، وفي نِيَّتِه أَنْ يصلِّيَ حتَّى يَلقى ربَّ العالَمينَ.

وفي الحديثِ الآخرِ يقولُ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ» أيِّ صلاةٍ: فجرٍ، أو ظهرٍ، أو عصرٍ، أو مغربٍ، أو عشاءٍ «فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الحَاجِّ المُحْرِمِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ المُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى إِثْرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ»[2].

المنزلةُ الثَّالثة عَشرة: أنَّ في الصلاةِ أجورًا غيرَ متوقَّعةٍ.

وقد جمعَها ابنُ القيمِ -رحمَه اللهُ تعالى- في كتابِه الماتعِ (زاد المعاد)، وراجِعْه هناكَ تجِدْ كلامًا مطولًا، أخَذْت لكَ شيئًا يسيرًا مِنْه؛ يقولُ -رحمَه اللهُ تعالى- وهوَ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٣٤٧، رقم ٩٥٦)، والحاكم (٢/ ٣٩٨-٣٩٩)، من حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة، رقم (٥٥٨)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يبينُ فضائلَ الصلاةِ: «والصلاةُ مجلبةٌ للرِّزقِ، حافظةٌ للصحةِ، دافعةٌ للأذَى، مطردةٌ للأدواءِ، مقويةٌ للقلبِ، مبيِّضةٌ للوجهِ».

ثُمَّ يمضِي -رحمَه اللهُ تعالى- مسترسلًا في ذِكرِ فضائِلِها، ثُمَّ يقولُ: «حافظةٌ للنعمةِ، دافعةٌ للنقمةِ، جالبةٌ للبرَكةِ، مبعدةٌ مِنَ الشيطانِ، مقرِّبةٌ منَ الرحمنِ».

ثُمَّ يَكشفُ اللثامَ عَنْ سرِّ ذلكَ فيقولُ -رحمَه اللهُ تعالى-: «وسِرُّ ذلكَ أنَّ الصلاةَ صلةٌ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وعلى قَدْرِ صِلةِ العبدِ بربِّه عَزَّوَجَلَّ تُفتحُ عليهِ منَ الخيراتِ أبوابُها، وتُقطعُ عنهُ منَ الشرورِ أسبابُها، وتفيضُ عليه موادُّ التوفيقِ مِنْ ربِّه عَزَّوَجَلَّ»[1]. وهذا فضلٌ عظيمٌ.

إِذَنِ: الَّذي لا يصلِّي، بعدَ أنِ استمعَ إلى هذِهِ الوصايا والأوامرِ والمواعظِ، ولا يَزالُ نفَسُه يترادُّ في صدرِه وهو يرَى إخوانَه وزملاءَه وأحبابَه يسيرونَ قبلَه إلى القبرِ ولم يَتَّعِظْ بعدُ هوَ مغبونٌ.

باركَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ، وصلُّوا وسلِّموا -رحمَكُمُ اللهُ- على النبيِّ الكريمِ، نبيِّنا محمدٍ كما أمرَ الربُّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قائلًا في كتابِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

••k••

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٣)

وبلغَ أربعين سنةً

يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:١٥-١٦].

هذه الآيةُ العظيمةُ احتوَتْ عددًا منَ المعاني والتوجيهاتِ، وإنِّي واقفٌ عندَ قولِ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ هذه المرحلةُ الَّتي ما منَّا مِن أحدٍ الآنَ إلَّا وقد وصلَها، أو تجاوزَها، أو هو في طريقِها إنْ أطالَ اللهُ في عمرِه، مرحلةُ الأربَعين هذهِ المرحلةُ الَّتي هي غايةُ الأَشُدِّ، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، والإنسانَ كما هو مَعلومٌ محفوفٌ بضَعْفين:

- ضَعْفِ الطفولةِ.
- وضَعْفِ الشيخوخةِ.

فإذا بلغَ الأربَعين بلغَ رأسَ الهرمِ، فعلَيْه هنا أَنْ يَنتبهَ إلى نفسِه، فإنَّه في كاملِ ذِهْنه وعقلِه ونُضجِه، فحريٌّ بِهِ أَنْ يَكونَ في الطريقِ الأسلمِ إلى ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقَدْ بيَّنَ لنا سلفُ الأمةِ أهميةَ أَنْ يصلَ الإنسانُ إلى عمرِ الأربعينَ سَنةً:

- فهذا الخليفةُ الراشدُ الَّذي تربَّى بينَ يدَيِ النبيِّ ﷺ وأخذَ ونهلَ مِنْه، الخليفةُ

عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: إذا أَتى على العبدِ أربعون سنةً يجبُ عليه أَنْ يخافَ اللهَ ويَحذرَه[١]؛ لأنَّه وصلَ الأشُدَّ، وما بعدَ هذا الأشُدِّ إلَّا النقصانُ.

k وابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ترجمانُ القرآنِ، حبرُ الأمةِ، الَّذي نهلَ أيضًا مِنْ علمِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: مَنْ أتَى عليه أربعون سَنةً فلَمْ يغلِبْ خيرُه شرَّه فلْيَتجهَّزْ إلى النارِ[٢].

وهذا كلامٌ في غايةِ الخطورةِ، فإنَّهم يُثمِّنون هذه المرحلةَ العُمريةِ، وعلى هذا الأثَرِ سارَ السلفُ -رحمهم الله تعالى-.

k وهذا مسروقٌ -رحمَه اللهُ تعالى- يقولُ: إذ بلَغْت الأربعين فخُذْ حِذرَكَ[٣].

ولا يزالُ كثيرٌ ممَّنْ بلغَ الأربعين وتجاوزَ الأربعين في غفلةٍ وفي لَهْوٍ وفي ضياعٍ، أسألُ المولى لي ولهُ الهدايةَ والرشادَ.

لذا لا بُدَّ أَنْ نَعلمَ أنَّ الدقائقَ والثوانيَ والأيامَ والشهورَ الَّتي تمرُّ علينا في مرحلةِ الطفولةِ وما قبلَ الأربَعين تختلفُ كثيرًا عن تلكِ الدقائقِ والثواني والأيامِ والشهورِ التي تَأتِي علينا بعدَ الأربَعين، كما قالَ الشَّاعِر:

دَقَّـاتُ قَلْـبِ المَـرْءِ قَائِلَـةٌ لَـهُ ... إِنَّ الحَيَـاةَ دَقَـائِقٌ وَثَـوَانِ

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْـدَ مَوْتِـكَ ذِكْرَهَـا ... فَالـذِّكْرُ لِلْإِنْسَـانِ عُمْـرٌ ثَـانِ[٤]

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس رقم (١٢٤٣).

(٢) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٧٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعا.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٤٢)، وعزاه لابن أبي حاتم في التفسير.

(٤) البيتان لأحمد شوقي، انظر: الشوقيات (٣/ ١٥٨).

فأقولُ لِمَنْ بلغَ الأربعين: إذا بلَغْتَ الأربعين فتعوَّذْ باللهِ مِنْ أرذلِ العمرِ، لأن مَنْ بلغَ الأربعين فهوَ في طريقِه إلى أرذلِ العمرِ، وأرذلُ العمرِ هوَ أخسُّه، حينَما تتعطلُ جوارحُ الإنسانِ عَنْ عبادةِ الواحدِ الديَّانِ، خاصةً إذا حصلَ هذا العطلُ في مناطِ التكليفِ في عقلِه؛ فأُصِيبَ بالخرَفِ والهذيانِ.

يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤] هو محفوفٌ بينَ هذَيْن الضَّعْفين: ضعفٍ قبلَ القوةِ، وضعفٍ بعدَ القوَّةِ.

ويقولُ سبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل:٧٠].

ويقولُ سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

وكَمْ يأسَى الإنسانُ ويحزنُ حينما يرى غيرَه ممَّنْ أنعمَ اللهُ عليه بنِعَمٍ عديدةٍ، فإذا به كلَّما قوِيَ واشتدَّ عضدُه استخدَمها في معصيةِ اللهِ، أمرٌ مذهلٌ ومحزنٌ! اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلَّما أعطَى الإنسانَ منَ القوةِ والأشُدِّ يزدَدْ طغيانًا وجبروتًا وعصيانًا، ويغفلُ أنَّه ليسَ بعدَ هذا الأشُدِّ وهذه القوةِ إلَّا الضعفُ!.

وكانَ مِنْ دعاءِ النبيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ»[١]، فهذه مرحلةٌ كانَ ﷺ يتعوذُ باللهِ منها، وأرذلُ العمرِ حينما تتعطلُ هذه الجوارحُ فلا تستطيعُ أَنْ تقومَ بالواجبِ الَّذي عليها، وإلَّا فإنَّ العبدَ إذا طالَ عمرُه في الصالحاتِ وفي الذِّكْرِ وفي القرباتِ فهوَ أمرٌ محمودٌ، فقَدْ قالَ ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الإِسْلَامِ لِتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ»[٢].

فإذا قلتَ لإنسانٍ: أطالَ اللهُ في عمرِك. بغيرِ عملٍ صالحٍ، فإنَّه يضيعُ ويهلكُ، فهذه الأيامُ الَّتي تُغافلُ عمرَ الإنسانِ ليسَ لها قِيمةٌ إذا لم تَكُنْ مَليئةً بالطاعاتِ والقرباتِ، يأتِي رجلٌ يقولُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الناسِ خيرٌ؟ قالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ» قالَ: فأيُّ الناسِ شرٌّ؟ قالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[٣].

أما ترى حولَكَ فلانًا الَّذي تجاوزَ السِّتِّينَ وهو لا يزالُ يشربُ الخمرَ، أمَا تلتفتُ إلى ذاكَ الَّذي تجاوزَ السِّتِّينَ وهو إلى الآنَ لا يُصلِّي، أما تَرى ذاكَ الَّذي تجاوزَ السِّتِّين وهو لا يزالُ يلاحقُ النساءَ ويعبثُ في أعراضِ الناسِ.

وهاهُنا رَسائلُ لِمَن بَلَغ الأَرْبعِين:

الرسالةُ الأُولى: تَعوَّذْ باللهِ مِن أَنْ تردَّ إلى أرذلِ العُمرِ.

الرِّسالةُ الثانيةُ: إلى مَن بلغَ الأربَعين فلْيَعلَمْ أنَّه لا بُدَّ أَنْ يَلتفِتَ إلى قضيةِ حُسنِ الختامِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من أرذل العمر، رقم (٦٣٧٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٦٣)، من حديث عبد الله بن شداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٠)، والترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٣٠)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذَلِكَ لأنَّ أعمارَ هذِه الأمةِ بينَ السِّتِّينَ والسَّبعينَ، كما قالَ نبيُّنا ﷺ[1]، فليتجهَّزْ للارتحالِ، أتألَّمُ كثيرًا حينما أسمعُ أنَّ فلانًا قضَى في حادثٍ وماتَ وهوَ سكرانُ، أمرٌ مؤلِمٌ! ليسَ المؤلمُ أنه فارقَ الدنيا، إنما المؤلمُ أنَّه فارقَها على هذا الأمرِ الَّذي يُبعثُ عليهِ.

فتصوَّرْ إنسانًا يُبعثُ يومَ القيامةِ ساجدًا راكعًا مصلِّيًا تاليًا، وثانيًا يبعثُ سكرانَ، وثالثًا يبعثُ زانيًا، وآخرَ يبعثُ كذا وكذا، فهذا هو الَّذي يؤلمُ؛ لذا يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ يحتاجُ العملُ إلى تعبٍ وجَهدٍ ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أَيْ: ملائكةُ الموتِ الَّتي تقبضُ الروحَ ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢]. أيُّ ضيافةٍ هذه الَّتي هيَ بينَ يدَيِ الربِّ الكريمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!.

يدخلُ المُزَنيُّ -أحدُ العلماءِ رحمَه اللهُ تعالى- على سيدٍ من ساداتِ العلماءِ وهو الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في عِلتِه التي ماتَ فيها، فيقولُ المزنيُّ: أبا عبدِ اللهِ كيفَ أصبحتَ؟ قالَ: أصبحتُ منَ الدنيا مرتَحِلًا، وللإخوانِ مفارقًا، وبكَأْسِ المَنيَّةِ شاربًا، وعلى اللهِ تعالى واردًا، ولا أدري نفسي تصيرُ إلى الجنةِ فأهنِّيها، أو تصيرُ إلى النارِ فأعزِّيها، ثُم بكَى -رحمَه اللهُ تعالى-، وأنشأَ يقولُ:

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٤٧)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، رقم (٤٢٣٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك**».

ولَمَّا قسَا قَلْبي وضاقَتْ مَذاهِبي جَعَلْتُ رَجائِي نحْوَ عفْوِكَ سُلَّمَا
تَعاظَمَني ذَنْبي فلَمَّا قَرَنْتُه بِعَفْوِكَ رَبِّي كانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
وما زِلْتَ ذا عَفْوٍ عَنِ الذنبِ سَيِّدي تَجودُ وتَعْفو مِنَّةً وتَكرُّمَا[1]

الرسالةُ الثالثةُ: عجِّلْ بالفرارِ إلى اللهِ، واغتنِمِ الأوقاتَ، بَلِ اغتنِمِ الثوانِيَ قبلَ الدقائقِ، فما بقِيَ أقلُّ مِمَّا مضَى، وعلمُ ذلكَ عندَ اللهِ.

يقولُ المولَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات:٥٠-٥١]، ويقولُ سبحانَه: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٣-٨٤]، فعليكَ بالعجَلةِ والفرارِ إلى اللهِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ**» فقيلَ: كيفَ يَستعمِلُه يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوْتِ**»[2].

فعلى الإنسانِ أَنْ يحرصَ على الصالحاتِ فإنَّها مِنْ أعظمِ القُرباتِ التي يتقربُ بها إلى اللهِ.

قالَ الفضيلُ -رحمَه اللهُ تعالى- لرجلٍ: كَمْ أَتَتْ عليكَ؟ قال: سِتُّونَ سنةً. قالَ: فأنتَ منذُ سِتِّين سنةً تسيرُ إلى ربِّكَ يُوشِكُ أَنْ تبلغَ، قالَ الرجلُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ. قالَ الفضيلُ: أتَعلمُ ما تقولُ؟ قالَ: قلتُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ. قالَ: تعلمُ تفسيرَه؟ قالَ: علِّمْني تفسيرَهُ. قالَ: تَفسيرُه: إنَّكَ إذا قلتَ: إنَّا للهِ وإنَّا

(١) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (٢/ ١١١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٤٢٩-٤٣٠).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٦)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار، رقم (٢١٤٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إليهِ راجِعونَ؛ فإنَّك للهِ عبدٌ، وإنَّكَ إليهِ راجعٌ، ومَنْ رجعَ إلى اللهِ وقفَ عندَه، فمَنْ علِمَ أنَّه موقوفٌ فلْيَعلَمْ أنَّه مَسؤولٌ، ومَن علِمَ أنَّه مَسؤولٌ فلْيُعِدَّ للسؤالِ جوابًا، قالَ: فما الحيلةُ يا أبا عليٍّ؟ قالَ: الحِيلةُ يَسيرةٌ. قالَ: فما هِيَ؟ قالَ: تُحسنُ فيما بقِيَ يُغفَرُ لكَ فيما مضَى، فإنْ أسأتَ فيما بقِيَ أُخِذْتَ بما مضَى وبما بقِيَ[1].

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ -رحمه الله تعالى-: قرأتُ في بعضِ الكُتبِ أنَّ مناديًا ينادِي منَ السماءِ الرابعةِ: يا أبناءَ الأربَعينَ أنتُمْ زَرْعٌ قَدْ دنا حصادُه، يا أبناءَ الخمسينَ ماذا قدَّمْتُم وماذا أخَّرْتُم؟ يا أبناءَ السِّتِّينَ لا عُذرَ لكُمْ![2].

اللَّهُمَّ مُدَّ في أعمارِنا على طاعتِكَ، واملَأْها بالباقياتِ الصالحاتِ.

اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ وزِدْ وبارِكْ على عبدِكَ ورسولِكَ نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

• • k • •

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١١٣).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٣).

(٤)

توقيرُ الكبارِ

إنَّه مِمَّا يجبُ علينا أَنْ نُصغيَ على الدوامِ لِمَنْ يذكِّرُنا بما يجبُ علينا مِن أداءٍ للحقوقِ، وقدِ امتدحَ المولى تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَنْ يُذكِّرُ ومَنْ يتذكرُ، فقالَ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

وفِعلُ ما يجبُ وأداءُ الحقوقِ هوَ مِنْ جملةِ الأخلاقِ الَّتي أمرَ بها المولى تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبيَّنَ لنا الأجرَ فيها، فهاهوَ ﷺ يقولُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ**»(١).

والحقوقُ كثيرةٌ، وحديثُنا الآنَ عَنْ حَقٍّ ربَّما غفَلْنا عنه، أو تغافَلْنا، إنَّه حقُّ الكبارِ، وحقوقُ كبارِ السنِّ علينا كثيرةٌ، سواءٌ كانَ هذا الكبيرُ والدًا أو والدةً، سواءٌ كانَ هذا الكبيرُ قريبًا أَمْ بعيدًا، جارًا مسلمًا أو غيرَ مسلمٍ، فإنَّ اللهَ تعالى أوجَبَ علينا حقًّا لكبيرِ السنِّ، وسيأتِي ما يدلُّ على ذلكَ.

ويَكفينا في البدايةِ أَنْ نشنِّفَ الأسماعَ ونطهرَ القلوبَ بما أخبرَ به نبيُّنا ﷺ حينَما قالَ: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ**» أي: مِنْ تعظيمِ اللهِ «**إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ القُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ**»(٢)، هذا الربطُ المباركُ، أنَّكَ إذا أرَدْتَ أن تُعظِّمَ اللهَ فلا تغفَلْ عن تعظيمِ كبيرِ السنِّ، أيًّا كانَ والدُكَ أَوْ غيرَ ذلكَ.

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم (٤٧٩٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم (٤٨٤٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذه الشريحةُ في المجتمعِ لسانُ حالِها يقولُ: كَمْ قدَّمْتُ! وكَمْ ضحَّيْتُ! وكَمْ بذَلْتُ! وكَمْ أعطَيْتُ! فهي تحتاجُ إلى لَفْتةٍ حانيةٍ منَّا كأشخاصٍ، ومنَّا كمؤسساتٍ أن نَلتفِتَ إلى هذهِ الشريحةِ الَّتي بيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ البرَكةَ فيها، وأنَّ البرَكةَ معها.

فإذا وُجِدَ كبيرُ السنِّ فهناكَ ثَمَّ البركةُ، يقولُ ﷺ: «البَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ»(١) فلا تقُلْ: أنا في بيتي شايبٌ. بَلْ قُلْ: أنا في بَيْتي برَكةٌ. ولا تقُلْ: أنا عندي عجوزٌ. بَلْ قُلْ: أنا عندِي البرَكةُ. وإذا أرَدْتَ تعبيرًا أفضلَ قُلْ: أنا معَ البرَكةِ. فإنَّ مِنَ الإجلالِ لَهُم ألَّا نقولَ: هُمْ معَنا، بَلْ نقولُ: نحنُ معَهُم، فبُيوتُنا بُيوتُهم، ومنازِلُنا منازِلُهم، فإنَّ مِنَ العيبِ أَنْ أقولَ: والِدي يسكنُ معِي. بَلْ أنا أسكنُ معَه، وأتقرَّبُ إلى اللهِ بهذا التعبيرِ الذي يرفعُ مِنْ معنوياتِه.

إنَّ لكبارِ السنِّ حقوقًا بيَّنَها المولى تَبَارَكَ وَتَعَالَى فلا يُبدَأُ قبلَهم بكلامٍ، وهُم محلُّ شورَى، ولا ينادَوْن إلَّا بأحبِّ الأسماءِ، ولا تَكونُ صدورُ المجالسِ إلَّا لهم، فإنَّه مِنَ المُخزي أَنْ يَتسابقَ الناشِئةُ والشبابُ فيَجلِسوا في صدرِ المجالسِ ويُترَكَ كبارُ السنِّ عند أبوابِها؛ لذا قيلَ:

إِذا لَمْ يَكُنْ صَدْرُ المَجالِسِ سَيِّدًا ... حَكيمًا تَصَدَّرُه الخِصالُ النَّفائِسُ

فَكُلُّ امْرِئٍ أَمْسَى شَرِيفًا بِغَيْرِهِ ... فَلا خَيْرَ فيمَنْ صَدَّرَتْهُ المَجالِسُ

والحقوقُ الَّتي تَجِبُ علينا تُجاهَهم كثيرةٌ، لكِنِّي سأَسْرُدُها في أدلةٍ شرعيةٍ نطقَ بها الوحيُ المباركُ:

---

(١) أخرجه ابن حبان رقم (٥٥٩)، والطبراني في الأوسط رقم (٨٩٩١)، والحاكم (١/ ٦٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يقولُ أنسٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ والحديثُ عندَ الترمذيِّ في سُننِه-: جاءَ شيخٌ يريدُ النبيَّ ﷺ وقَدْ حفَّه الصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فأرادَ الشيخُ أَنْ يصلَ هناكَ إلى النبيِّ ﷺ، وأنسٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُصورُ لنا المشهدَ- فأبطَأَ القومُ عَنْه أَنْ يُوسِّعوا له. كحالِ بعضِنا اليومَ، تَراهُ خاملًا في المروءةِ، فإذا رأَى كبيرَ السنِّ لا يَنهضُ إليه، ولا يُقدِّمُ خدمةً إليه، ولا يوسعُ له المجلسَ.

وإذا كانَ أنسٌ هناكَ يراقبُ الموقفَ فالمربِّي الأولُ ﷺ أيضًا يراقبُ الموقفَ، فإذا بِهِ يرسلُها مدوِّيةً مُربِّيةً للصحابةِ ومربِّيةً لنا، فإذا بِهِ يقولُ ﷺ وهو يشاهدُ الموقفَ: «لَيْسَ مِنَّا» أي: ليسَ على طريقتِنا وسُنَّتِنا ومنهجِنا وسلوكِنا «مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»[1].

لقَد رأى النبيُّ ﷺ هذا المشهدَ، فرأَى فيه عدمَ توقيرٍ، بغَضِّ النظرِ ماذا عندَكَ مِن عِلمٍ أيُّها الشابُّ، وبغَضِّ النظرِ ما عندَك مِنْ جاهٍ وشهاداتٍ، وبغَضِّ النظرِ ماذا عندَ كبيرِ السنِّ هذا من جهلٍ، فهو كبيرٌ إذَنْ: يُوقَّر.

وجاءَ في روايةٍ أخرى أيضًا عندَ الترمذيِّ بلفظٍ آخرَ قالَ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا»[2]، لعلَّ الناشئةَ هؤلاءِ الَّذين لا يُوقِّرون كبيرَ السنِّ ما أدرَكوه لَمَّا كانَ في سِنِّهم، كان له شرَفٌ، وكانَ له سُؤددٌ، وكانَت له مكانةٌ.

بَلْ جاءَ في روايةٍ ثالثةٍ عندَ الحاكمِ مِن حديثِ عُبادةَ بنِ الصامتِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، رقم (١٩١٩).
(٢) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، رقم (١٩٢٠)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

النبيَّ ﷺ قالَ: «لَيْسَ مِنَّا» وتدبَّرْ كأنَّه يقولُ: يا أصحابَ السُّنَّةِ، يا من تَبحثونَ عن طريقِها فههُنا طريقُها: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا»[(١)] أي: حقَّه.

ولم يَكتفِ ﷺ بالقولِ، بل طبَّقَ ما يقولُ عمَليًّا على أرضِ الواقعِ، والناسُ لا يأخُذون منكَ قولًا، وإنما يُريدونَ منكَ فِعلًا يَرَوْنه على أرضِ الواقعِ، فقَدْ جاءَ في (مسند أحمدَ) مِنْ حديثِ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ -رضي الله عنها وعن أبيها-، تقولُ: دخلَ رسولُ اللهِ ﷺ مكةَ فاتحًا منتصرًا غالبًا، فرأَى وجوهَ مَن أَخرَجوه يومًا منها؛ حيثُ أخرَجوهُ مِن أرضِه وموطنِه ومكانِ مولدِه طريدًا هوَ وأصحابَه ﷺ، فدخلَ المسجدَ ﷺ، فجاءَه أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأبيهِ أبي قحافةَ، وكانَ أبو قحافةَ يومئذٍ مشركًا لم يُسلِمْ بعدُ، فقالَ له النبيُّ ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ» توقيرًا واحترامًا لمشركٍ لم يسلِمْ بعدُ.

وانظُرْ إلى هذِه العباراتِ الحانيةِ في وقتٍ يدخلُ فيه مكةَ بعدَ أَنْ كانَ طريدًا منها «يَا أَبَا بَكْرٍ، هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ» قالَ أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ هوَ أحقُّ أَنْ يمشِيَ إليكَ مِنْ أَنْ تمشيَ أنتَ إليهِ. فمسحَ صدرَه ﷺ وقالَ لهُ: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ»، فإذا بالرجلِ يتأثَّرُ مِن هذا الخُلقِ العظيمِ، فيسلِمُ بينَ يدَيِ النبيِّ ﷺ[(٢)].

إنَّها رسالةٌ للشبابِ أَنْ يَتلطَّفَ معَ كبيرِ السنِّ، فإنَّ نبيَّنا ﷺ وضعَ لنا فنونَ التعاملِ في المجتمعِ، فلم يَترُكْنا هكذا هَمَلًا.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٣)، والحاكم (١/ ١٢٢).
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٤٩).

جاءَ في (صحيح البخاريِّ): قالَ ﷺ: «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الكَبِيرِ، وَالمَارُّ عَلَى القَاعِدِ، وَالقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ»[(١)]، وأنتَ تَرى أحيانًا بعضَ التصرُّفاتِ الهوجاءِ حينَما ينظرُ بعضُ الموظَّفينَ لمراجِعينَ مِن كبارِ السنِّ بازدراءٍ واحتقارٍ، ورُبَّما آذاهُ بقولِه: تعالَ غدًا أو بعدَ غدٍ. ولا يعلمُ أنَّه إذا أجَلَّه وعظَّمَه وقدَّرَه فإنه يعظمُ الربَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهاهوَ الوحيُ ينزلُ على النبيِّ ﷺ بهذه الوصيةِ، يقولُ ﷺ: «أَمَرَنِي جِبْرِيلُ أَنْ أُقَدِّمَ الأَكَابِرَ»[(٢)]، فأُمِرَ منَ اللهِ أن يقدِّمَ الأكابرَ في كل شيءٍ.

جاءَ في كتابِ (غذاء الألبابِ في شرحِ منظومةِ الآدابِ) للسَّفَّارينيِّ -رحمه الله تعالى-: أنَّه خرجَ مالكُ بنُ مُعوذٍ معَ طلحةَ بنِ مصرِّفٍ، قالَ: فصِرْنا إلى مضيقٍ -أي: لا يمرُّ فيه إلَّا واحدٌ- فتقدَّمَني -أي: طلحةُ بنُ مصرِّفٍ- ثُمَّ قالَ: لو كنتُ أعلمُ أنَّكَ أكبرُ مِنِّي بيومٍ ما تقدَّمْتُكَ[(٣)]. فهؤلاءِ همُ العظماءُ الذينَ يُعظِّمون النصَّ النبويَّ؛ حيثُ أمرَ نبيُّنا ﷺ بالرِّفْقِ بكبيرِ السنِّ.

وانظُرْ إلى هذهِ الروايةِ العجيبةِ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، قالَ: يا رسولَ اللهِ إنِّي لأَتأخَّرُ عَنْ صلاةِ الفجرِ- أي: أنتظرُ حتَّى تُقامَ ويصلِّي الناسُ ثُم أذهبُ- مِمَّا يطيلُ بنا فلانٌ فيها- أي: يطوِّلُ علينا في صلاةِ الفجرِ هو شبابٌ ونحنُ كبارُ سنٍّ- قالَ الراوي أبو مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فغضِبَ رسولُ اللهِ ﷺ ما رأيتُه غضبَ في موضعٍ كانَ أشدَّ غضبًا مِنْه يومئذٍ، ثُم قالَ: «يَأَيُّها النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب تسليم القليل على الكثير، رقم (٦٢٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات رقم (٩٣٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه أحمد (٢/ ١٣٨) بنحوه.

(٣) غذاء الألباب (٢/ ٣٥٠).

فَلْيَتَجَوَّزْ» يعني: يُقصِّرْ «فَإِنَّ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ»[(١)]، فجعلَ لهُ ﷺ اعتبارًا.

وروايةٌ أخرى: أنَّ معاذَ بنَ جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -معَ ما عُرفَ به مِن عظيمِ القَدرِ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ- كانَ يُصلِّي صلاةَ العشاءِ معَ النبيِّ ﷺ في مسجدِه، ثُم يَنصرِفُ إلى حَيِّه يُصلِّي بهِم إمامًا صلاةَ العشاءِ، هي لَهُ نافلةٌ ولهُمْ فريضةٌ، فكانَ إذا كبَّرَ يَقرأُ بهمُ البقرةَ أوِ النساءَ -والناسُ مِنهم مَن كانَ يعملُ طولَ النهارِ- فلمَّا بدَأَ معاذٌ في قراءةِ سورةِ البقرةِ أوِ النساءِ تركَ أحدُ الصحابةِ الصلاةَ، وذهبَ ناحيةَ المسجدِ وصلَّى بمفردِه ثُم خرجَ، فلمَّا أُخبرَ معاذٌ بذلكَ قالَ: هذا منافقٌ، فغضبَ هذا الرجلُ، قالَ: يطيلُ علينا الصلاةَ ويَصِفُني بالنفاقِ، فشكاهُ إلى النبيِّ ﷺ -والروايةُ في البخاريِّ- فاستَدْعى رسولُ ﷺ معاذًا، قالَ: «يَا مُعَاذُ؛ أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ» يُكرِّرُها ثلاثًا، أي: تفتنُ الناسَ عَنْ دِينِهم، «فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِهِمْ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، و﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، و﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الحَاجَةِ»[(٢)].

إنَّها عنايةٌ نَبوِيَّةٌ بهذِهِ الشريحةِ في المجتمعِ؛ لذا مَنْ أرادَ أَنْ يعظِّمَ المولى تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فلْيُعظِّمْ هذه الشريحةَ الَّتي أُمِرْنا بتعظيمِها وإجلالِها.

وَلا يُقْتَصَرُ تَوقِيرُ الكِبارِ عَلَى المسلمينَ فحَسْب، بل يوقَّرُ الكبارَ حتَّى وإِنْ كانوا مِنْ غيرِ المسلمينَ، فقَدْ يعملُ في بيتِكَ خادمٌ أَوْ خادمةٌ فلا تُحمِّلْه ما لا يطيقُ، قَدْ يكونُ كبيرَ سنٍّ تَجاوزَ عمرُه الخمسينَ أوِ السِّتينَ، فلا تُحمِّلْه ما لا يطيقُ، ولا تفعَلْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، رقم (٧٠٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، رقم (٤٦٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، رقم (٧٠٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم (٤٦٥)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما يفعلُ بعضُ الناسِ يضرِبونَهم ويُؤذونَهم، فقَدْ جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ قالَ: يا رَسولَ اللهِ إنَّ لي خادمًا يُسيءُ ويظلمُ أَفَأَضْربُه؟ قالَ ﷺ: «تَعْفُو عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»[(١)] أي: كلَّما أخطأَ اعفُ عنه سَبعينَ مرةً.

وقَدْ رأَى عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهُوَ في المدينةِ شيخًا كبيرًا مِنْ أهلِ الذِّمةِ، يطرقُ الأبوابَ -أي: يسألُ الناسَ- فقالَ عمرُ مقولتَه الشهيرةَ: ما أَنصَفْناكَ! أَخَذْنا منكَ الجِزيةَ مادُمْتَ شابًّا، ثُم ضيَّعْناك اليومَ، فأمَرَ له أَنْ يُجرَى عليه قوتُه من بيتِ مالِ المسلِمينَ[(٢)].

إِذَنْ هي رسالةٌ أيضًا لكلِّ مَسؤولٍ ولصاحبِ قرارٍ ولصُنَّاعِ القرارِ في البلدِ؛ لا بُدَّ أَنْ يَلتفِتَ لِهَذه الشريحةِ، وقَدْ تَردَّدْت على كثيرٍ من دُورِ الإيواءِ الَّتي يَتردَّدُ عليها الآباءُ والأمهاتُ، ولا أقصدُ تلكَ الدورَ التي فيها إقامةٌ دائمةٌ، ولكِنَّها الدورُ التي يَأتي فيها الآباءُ منَ الصباحِ إلى قبلِ الظهرِ، فوجَدْت فيهم فرحًا وسرورًا وانبساطًا؛ لأنَّهم وجَدوا أُناسًا قَدْ هيَّؤوا لهم سبلَ الاهتمامِ والراحةِ والعطفِ علَيْهم، فوجَدْتها قَليلةً، فقُلْت في نفسِي: لَيْتني أرَى هنا يومًا منَ الأيَّامِ دارًا لكبارِ السِّنِّ يَجتمِعون فيها، ويلتَقون فيها ويَتحدَّثون، فبِناءُ هذه الدورِ كبِناءِ المساجِدِ، وكبِناءِ مراكزِ العِلمِ والتعليمِ في الأجرِ والثوابِ.

هذا وصَلُّوا وسلِّموا -رحِمَكم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ مُحمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابِه الكريمِ قائِلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٩٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه القاسم بن سلام في الأموال رقم (١١٩)، وابن زنجويه في الأموال (١٦٥).

(٥)

بادِروا بالأعمالِ

تأمَّلْت في حديثَيْن عظيمَيْن نطقَ بهما النبيُّ ﷺ، فجاءَ حديثي هذا بِناءً على ذلكَ التأمُّلِ والتدبُّرِ.

أمَّا الحديثُ الأوَّلُ؛ فقولُه ﷺ: «أَعْمَارُ أُمَّتِي بَيْنَ السِّتِّينَ وَالسَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»[(١)].

وأمَّا الحديثُ الآخرُ؛ فقولُه ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونُ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ» أي: كالأسبوعِ «وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ، أَوِ الْخُوصَةِ»[(٢)].

إنَّنا مِن خلالِ النظرِ في هذَيْن الحديثَيْن نُدركُ المغزَى مِنهما، وهو أنَّ الأعمارَ قصيرةٌ فتَنقضِي، والأزمِنةُ في هذا الزمانِ قصيرةٌ فتَنقضِي.

فعمرٌ قصيرٌ وزمنٌ سريعُ الانقِضاءِ يدفعُ ذلكَ العبدَ العاقلَ الراشدَ إلى المبادرةِ بتَحصيلِ الخيراتِ والصالحاتِ إذا نظَرَ في عمرِه، وقالَ: متوسطُ أعمارِ الأمةِ ما بينَ السِّتِّين والسَّبعين، فنظرَ في حدَثٍ فعلَه قبلَ عِشرينَ سَنةً كأنَّه بالأمسِ، أَوْ حدثَ وقعَ قبلَ ثلاثينَ سَنَةً تعودُ الذاكرةُ فيقولُ: سبحانَ اللهِ كأنَّه أمسِ.

إنَّ هذا المغزَى العظيمَ يَدفَعُنا أَنْ نبادرَ إلى تحصيلِ الخيراتِ، كيفَ ونحنُ نَرى مَنْ نحبُّ ومَن يَعِزُّ عَلَيْنا وهُم يَتساقطون صرعَى موتَى أمامَنا، في كلِّ يومٍ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٤٧)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، رقم (٤٢٣٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نُشيِّعُ حبيبًا أَوْ قريبًا، أَلَا يَدفعُك ذلك إلى المُبادرةِ، أَلَا يدفعُك ذلك إلى المسارعةِ، أَلَا يدفعُك ذلكَ إلى المسابَقةِ، أَلَا يدفعُك ذلك إلى التنافسِ في فعلِ الخيراتِ؟!

كيفَ وقَدْ أمرَ المولَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذلكَ، فقالَ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران:١٣٣] كيفَ وقدِ امتدحَ المولَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذين يُسارِعون في الخيراتِ:

فقالَ تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤].

وقالَ أيضًا: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقالَ أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

وقَدْ جعلَ لنا المولَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هدفًا؛ لنَتسابقَ إليه ونتنافسَ عليه، فقالَ سبحانه، وما أجملَها من آياتٍ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ هذا هُوَ الهدفُ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٥] أي: في هذا النعيمِ الَّذي هو أمامَنا فلْنتنافَسْ ولْنتسابَقْ ولْنُسارِعْ.

يقولُ الشيخُ السعديُّ رحمه الله تعالى -في كلِمةٍ عظيمةٍ-: «والأمرُ بالاستِباقِ إلى الخيراتِ قدرٌ زائدٌ على فعلِ الخيراتِ، فإنَّ الاستباقَ إليها يتضمَّنُ فعلَها وتكميلَها وإيقاعَها على أكملِ الأحوالِ والمبادرةَ إليها».

ثُمَّ يقولُ -رحمه اللهُ تعالى-: «ومَنْ سبقَ في الدنيا إلى الخيراتِ فهو السابقُ في الآخرةِ إلى الجناتِ»[(١)].

وهذا الذي أوصَى به نبيُّنا ﷺ، فإنَّنا نَقرَأُ في الحديثِ حينما قالَ: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا**» أي: بادِروا بالعملِ قبلَ أَنْ تدلهِمَّ الأمورُ، فالفتنُ تزيدُ ولا تنقصُ، فتنُ الشهَواتِ، وفتنُ الشبهاتِ، فعليكَ أَنْ تُبادرَ «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»[(٢)].

وانظُرْ إلى هذا الأنموذجِ الفريدِ في وقتِه، والفريدِ إلى قيامِ الساعةِ، يجلسُ ﷺ بينَ أصحابِه يومًا، فيقولُ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ اليَوْمَ صَائِمًا؟**» فيقولُ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا يا رسولَ اللهِ، فيقولُ: «**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ اليَوْمَ جَنَازَةً؟**» فيقولُ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنا يا رسولَ اللهِ، فيقولُ: «**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ اليَوْمَ مِسْكِينًا؟**» فيَقولُ أبو بكرٍ: أنا يا رسولَ اللهِ، فيقولُ: «**فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ اليَوْمَ مَرِيضًا؟**» فيقولُ أبو بكرٍ: أنا يا رسولَ اللهِ. قالَ: «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ**» أي: في يومٍ «**إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[(٣)].

---

(١) تفسير السعدي (ص:٧٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، رقم (١٠٢٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فانظُرْ إلى هذه المبادرةِ والمسارعةِ، فلا تتردَّدْ ولا تسوِّفْ في فعلِ الخيراتِ.

فيجبُ علينا أَنْ نبادرَ إلى فِعلِ الخيراتِ، وما سأذكُرُه الآنَ مجرَّدُ أمثلةٍ، وأوجزُ في ذِكرِ كلِّ مثالٍ، وكلُّ مثالٍ يحتاجُ منا شرحًا طويلًا.

المثالُ الأولُ: أبادرُ إلى تجديدِ الإيمانِ.

ولعلَّ سائِلًا يقولُ: هلِ الإيمانُ يحتاجُ إلى تجديدٍ؟ أقولُ: نعَم، الإيمانُ يحتاجُ إلى تجديدٍ ورعايةٍ، فإنَّه يَعرِضُ له عوارضُ، ويُلَوَّثُ بملوثاتٍ؛ لذا يقولُ ﷺ: «**إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الخَلَقُ، فَسَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»(١).

فالإيمانُ يهترِئ ويَخْلَقُ كما يخلَقُ هذا الثوبُ، والسببُ أَنَّ الإنسانَ إذا فعلَ المعصيةَ ارتفَعَ الإيمانُ عنه، فإذا عادَ إلى الطاعةِ رجعَ الإيمانُ إليه، كثوبِه الَّذي يخلَعُه ويلبَسُه، فمِنْ كثرةِ الخَلْعِ واللبسِ يَهترِئ، فيحتاجُ الإنسانُ أَنْ يجدِّدَ هذا الإيمانَ، بأَنْ يسألَ اللهَ أَنْ يجدِّدَ الإيمانَ في قلبِه.

ولذا فنحنُ نَسمعُ في هذا الخطابِ الربَّاني وربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ينادِينا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فيَنتبهُ المؤمنون وتَشرئِبُّ أعناقُهم ويقولونَ: ماذا يَأتي من أَمْرٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]، فانتبِهْ إلى حجمِ الإيمانِ في قلبِك فإنَّه يزيدُ وينقُصُ.

وبادِرْ بإصلاحِ إيمانِك كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، ونَفهمُ مِنْ هذه الآيةِ أَنَّ الإيمانَ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٣٦-٣٧، رقم ٨٤)، والحاكم (١/ ٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

معرَّضٌ إلى كوارثَ، وإلى زلازلَ، قد يصبحُ الإنسانُ مؤمنًا ولا يأتي العصرُ إلَّا وهو كافرٌ، كهذا البناءِ الَّذي نَراهُ على وجهِ الأرضِ والأبنيةِ الشامخةِ والجبالِ في لحظةٍ إذا دكَّها بركانٌ تَنمَحي، كذلك الإيمانُ في القلوبِ إذا لم يَتعاهَدْه الإنسانُ ويَحرُسْه مِنْ هذه الكوارثِ: مِنْ خرافاتٍ، وشُبَهٍ، وشهواتٍ، فإذا بِهِ يبيعُ دِينَه بعرَضٍ قليلٍ منَ الدنيا.

المثالُ الثاني: يبادرُ الإنسانُ إلى فعلِ ما أمرَ اللهُ بِهِ منَ الفرائضِ.

كَمْ ترى مِن إخوانِك وهو لا يَزالُ يتردَّدُ عَن أداءِ الفرائضِ!

كَمْ تَرَى مِن إنسانٍ لا يزالُ لا يصلِّي، فإذا صلَّى صلَّى بتقاعُسٍ وتكاسُلٍ، ففيه شبَهٌ مِنَ المنافِقين الَّذين إذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسالى!

كَمْ تعرفُ منَ الناسِ لا يزالُ يحتاجُ إلى خُطَبٍ في المبادرةِ ليُزكِّيَ، لا يزال يُجمِّعُ هذا المالَ ولم يخرِجْ زكاتَه بعدُ!

كَمْ تعرفُ مِن هـؤلاءِ الذين لا يَزالون يَتأخَّـرون عن أداءِ الفرائـضِ ورَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقولُ في الحـديثِ القُدسيِّ: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْـدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ**»(١).

المثالُ الثالثُ: أَنْ يبادرَ بتحصينِ نفسِه بالأذكارِ الشرعيةِ.

وفي ذلكَ خيرٌ له في دِينِه ودُنياهُ، فنبيُّنا ﷺ لَمَّا أرشَدَنا إلى هذهِ الأذكارِ لم يكُنِ الأمرُ ترَفًا، وإنَّما أرادَ بنا خيرًا، خُذْ على سبيلِ المثالِ: أنَّ نبيَّنا ﷺ يقولُ عَنْ هذا الرجلِ الَّذي يدخلُ المسجدَ بإمكانِه أَنْ يحصِّنَ نفسَه تحصينًا لو بادرَ إلى هذا الذِّكرِ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ**

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ اليَوْمِ»[١] أي: أَصْبحت في حِصنٍ حصينٍ مِنْ شرِّ الشيطانِ الرجيمِ، وهوَ عدوُّك الأولُ.

فكَمْ منَّا ذكرَ هذا الحديثَ؟! فعلينا كلَّما أرَدْنا أَنْ ندخلَ المسجدَ أن نُبادرَ إلى هذا الذِّكْرِ!.

كَمْ نَرى مِن أصحابِ البلاءِ يوميًّا سواءٌ في صحيفةٍ أو في فضائيةٍ أو نَسمعُ به في الطريقِ، أو نقرأُ عنه في شبَكاتِ التواصلِ، وقَدْ أرشَدَنا نبيُّنا ﷺ إذا رأَيْنا مبتلًى ماذا نقولُ، فقالَ: «مَنْ رَأَى صَاحِبَ بَلَاءٍ» أي: رأى فقيرًا، أو رأى حادثًا، أو رأى إنسانًا سيارتُه متعطلةٌ، أو سمِعَ برجُلٍ مريضٍ، أو سمِعَ برجُلٍ ماتَ ميتةَ سوءٍ، أو سمعَ بإنسانٍ منحرفٍ ضالٍّ «فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ البَلَاءُ كَائِنًا مَا كَانَ مَا عَاشَ»[٢] أي: لا يصيبُه هذا البلاءُ بقيةَ حياتِه بعدَ هذا الذِّكْرِ، فأينَ الَّذين يبادِرون بتحصينِ أنفسِهم بهذهِ الأذكارِ الشرعيةِ.

ويقولُ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا» أي: دخلَ بيتَه، أو غرفتَه، أو ذهبَ إلى البَرِّ، أو ذهبَ إلى البحرِ، أو نزلَ في جزيرةٍ، أو سكنَ في فندُقٍ، «قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ المَنْزِلِ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ»[٣]، فأينَ الَّذين يبادِرون؟!

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد، رقم (٤٦٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا رأى مبتلى، رقم (٣٤٣١)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم (٢٧٠٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يقولُ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَعُودُ مَرِيضًا فَيَقُولُ» أي: عندَه «سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ. إِلَّا عُوفِيَ»(١).

المثالُ الرابعُ -مِن أمثلةِ المبادرةِ إلى الأعمالِ-: أَنْ يبادرَ الإنسانُ إلى التضحيةِ مِن أجلِ هذا الدِّينِ العظيمِ الَّذي هو أعزُّ ما يملكُ العبدُ المسلمُ.

يقولُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣] لم يَجِدوا إلَّا نفوسَهم فضَحَّوْا بها من أجلِ هذا الدِّينِ، وآخرُ يضحِّي مِن أجلِ هذا الدينِ بمالِه فيُنشِئُ المراكزَ الدعويةَ، وآخرُ يكفلُ دعاةً، وثالثٌ يقومُ بفعلِ الطاعاتِ فيما ينصرُ به وينشرُ به هذا الدينَ ويصدُّ عنه سهامَ الكفارِ والمنافِقين وأهلِ البدعِ الضالِّين، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

فبادِرْ بالتضحيةِ من أجلِ هذا الدِّينِ، فسدَّ ثغرةً في الدِّينِ، فإنْ كنتَ مؤهَّلًا للإمامةِ فكُنْ إمامًا، وإنْ كنتَ تَرى نفسَكَ أهلًا للخطابةِ فلا تتردَّدْ وتمرَّ عليكَ السِّنونَ، وكذا إنْ كنتَ كاتبًا فانصُرْ دينَك من خلالِ قلمِك، وهكذا لا بُدَّ منَ المبادرةِ إلى فعلِ الخيراتِ.

المثالُ الخامسُ: أَنْ يبادرَ العبدُ إلى التوبةِ والإنابةِ إلى اللهِ.

فما منَّا من أحَدٍ إلَّا وهوَ مذنبٌ ذنبًا عظيمًا، أو ذنبًا أقلَّ مِن ذلكَ، لكنَّنا كجَمعٍ نحتاجُ إلى التوبةِ والعودةِ والإنابةِ إلى اللهِ، فالَّذي لا يزالُ يشربُ الخمرَ يقالُ لهُ: بادِرْ إلى التوبةِ، والَّذي لا يزالُ تاركًا للصلاةِ يقالُ له: سارِعْ إلى التوبةِ وبادِرْ،

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٩)، وأبو داود: كتاب الجنائز، باب الدعاء للمريض عند العيادة، رقم (٣١٠٦)، والترمذي: كتاب الطب، رقم (٢٠٨٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والَّذي لا يزالُ يَنتهِكُ أعراضَ المؤمِنين والمؤمناتِ لفعلِ الفاحشةِ يقالُ له: تُبْ إلى اللهِ وبادِرْ، هاهُمُ الموتَى قريبون منكَ، ليس بينَك وبينَهم إلَّا أنْ ينقطعَ هذا النفَسُ.

ويقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في امتداحِ هؤلاءِ المبادِرين إلى التوبةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مباشرةً ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥] أي: يُبادِرون إلى التوبةِ، ويُبادِرون إلى العودةِ، ويُبادِرون إلى الإنابةِ إلى اللهِ.

وتدبَّرْ هذه الآياتِ في سُورةِ النساءِ يَقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ مباشرةً ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٦-١٨].

ويقولُ ﷺ -وما أجملَ ما قالَ-: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ»[(١)].

هذا، وصلُّوا وسلِّموا -رحِمَكُمُ اللهُ- على نبيِّ الهدَى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِهِ الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم (١٥٢١)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، رقم (٤٠٦)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في أن الصلاة كفارة، رقم (١٣٩٥)، من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦)

وفي إبريل لا يكذبون أيضًا!

جاءَ في (سُنن ابنِ ماجَهْ) مِن حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بَاعًا بِبَاعٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ وَشِبْرًا بِشِبْرٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ فِيهِ» قالوا: يا رسولَ اللهِ اليهودُ والنصارَى؟ قالَ: «فَمَنْ إِذَنْ!»[1].

يبيِّنُ لنا النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ أنَّ بعضَ أفرادِ الأمةِ سيَقعون في هذه الهاويةِ، وستَنالُهم هذه الآفةُ -وهي تقليدُ الغربِ في مساوئِ أخلاقِه- وسيتَّجهون في هذا الطريقِ، وستكثرُ أعدادُ المقلِّدين لهم فيما يَسوءُ في أخلاقِهم، وليتَهم يتَّجهون إلى تقليدِ الغربِ فيما تنهضُ به الأممُ وتزدهرُ وتزدانُ في العلومِ وفي الصناعاتِ، إنَّما يقلِّدونَهم في كلِّ موضةٍ وحدثٍ يحدثونَه!.

وفي إبريلَ مِن كُلِّ عامٍ يحتفلُ الغربُ الكافرُ بكذبةِ إبريلَ -أو بخدعةِ إبريلَ- فتجدُ بعضَ أفرادِ الأمةِ يَكذِبون لا لشيءٍ، وإنَّما للتقليدِ الأعمَى، فيأتون يرتَكِبون محرمًا عظيمًا وكبيرةً من كبائرِ الذنوبِ وهي الكذبُ، لا لشيءٍ، وإنَّما للتقليدِ فحسبُ.

إنَّ الكذبَ -يا عبادَ اللهِ- مِنْ مساوِئِ الأخلاقِ الَّذي لم تقَعْ فيهِ إلَّا النفوسُ الدنيئةُ والعقولُ والفِطرُ المنكوسةُ، فالكذبُ تتعالى عليه النفوسُ الأبيةُ، ويتعالى عليهِ أصحابُ المروءاتِ، فلا تجدُ صاحبَ مروءةٍ يكذبُ، ولا تجدُ صاحبَ إباءٍ يكذبُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إنَّما يكذبُ الجبانُ صاحبُ النفسِ الدنيئةِ، يقولُ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ يضَعَني الصدقُ -وقَلَّما يفعلُ-، أحبُّ إليَّ مِن أَنْ يَرفعَني الكذبُ -وقَلَّما يفعلُ-»[١].

إنَّ الناظرَ في شريعتِنا -بَلْ في جميعِ الشرائعِ- يجدُ أنَّها حرَّمَتِ الكذبَ لأيِّ غايةٍ كانَ، فربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل:١٠٥]، ونبيُّنا ﷺ يرشِدُ إلى هذِه العلامةِ البارزةِ عندَ المنافِقِ، فيقولُ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[٢]، أي: إذا حدَّثَ في حديثِه تعرفُ الكذبَ في وجهِه في لحنِ القولِ عندَه أنَّه كذابٌ، حتَّى لو أرادَ أَنْ يعبرَ لكَ عَنْ مشاعِرِه، فتجدُه يكذبُ حتَّى في المشاعرِ!.

والمصيبةُ أنَّ أهلَ الكذبِ يَتصوَّرون أنَّ الكذابَ ذكيٌّ، فيقولونَ: ما شاءَ اللهُ عليه أخرجَ نفسَه مِنْ هذِه المصيبةِ بذكاءٍ ودَهاءٍ، ويخلَعون على الكذابِ ألقابًا فيقولونَ: إنَّه ذكيٌّ وداهيةٌ وذو شخصيةٍ مُقتدِرةٍ، ولو أَرادوا الحقَّ لقالوا: كذابٌ. لكنَّهم خلَعوا عليه لقبًا وصدَقوا فيما قالوهُ حينما قالوا عَنِ الكذابِ: شاطِرٌ. وهو فِعلًا شاطرٌ، والشاطرُ كما جاءَ في (مختار الصِّحاحِ): هو الَّذي أَعْيَا أهلَه خُبْثًا[٣].

ويورِدُ الماوردِيُّ كلامًا للعربِ أنَّهم يقولونَ: إنَّ الكذابَ لِصٌّ[٤]. فاللصُّ يسرِقُ مالَكَ، والكذابُ يسرقُ عقلَكَ.

---

(١) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص:٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنفاق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) مختار الصحاح (ص:١٦٥).

(٤) أدب الدنيا والدين (ص:٢٦١).

إنَّ للكذبِ صورًا في المجتمعاتِ، ولَسْنا في مجالِ حصرِ هذِه الصورِ، ولكِنْ حسبي هذه الأَمثلةُ:

الصُّورةُ الأُولى: وهو أعظمُ هذه الصورِ وأخطرُها وأشنَعُها: الكذبُ على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أوِ الكذبُ على رسولِه ﷺ.

فيَأتِي مَنْ يقولُ عنِ الحرامِ: إنَّه حلالٌ. كاذبًا، أَوْ يقولُ عنِ الحلالِ: إنَّه حرامٌ. كاذبًا، أو يقولُ: هذا قالَه النبيُّ ﷺ. كاذبًا، وهذا أشنعُ صورِ الكذبِ، وتدبَّرْ ماذا قالَ الحقُّ سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١١٦-١١٧]، نعَمْ قد يُحصِّلُ مِنْ خلالِ هذا الكذبِ متاعًا قليلًا، ولكِنَّ النهايةَ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ونبيُّنا ﷺ يقولُ: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(١).

لذا أنا أنصحُ نفسي وإخواني بالحذَرِ مِن أَنْ يأتيَكَ حديثٌ في جوَّالِك فتعيدُ نشرَه وأنتَ لا تعلمُ بصحَّتِه، وسيَأتي تفصيلُ هذا الموضوعِ، فلا ترسِلْ أيَّ شيءٍ يأتيكَ، حتَّى لَوْ قدمَ لكَ المرسلُ بمقدِّمةٍ يقولُ لكَ فيها: أستحلِفُك باللهِ أَنْ تنشُرَ هذه الرسالةَ. فقَدْ يكونُ المنصوصُ عليه ليسَ حديثًا للنبيِّ ﷺ، وقد يكونُ حديثًا موضوعًا منكَرًا كذِبًا على النبيِّ ﷺ فتكونُ أحدَ الكاذِبين الَّذين حذرَ منهما النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٩١)، ومسلم: في مقدمة الصحيح، باب في التحذير من الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٤)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصُّورةُ الثانِية: الكذبُ في البيعِ والشراءِ.

وهَذا مِنْ صوَرِ الكذبِ في مجتمعاتِنا، خاصةً إذا قُرنَ هذا الكذبُ باسمِ الدينِ، فإنَّ البعضَ يظُنُّ أنَّه لا تروجُ تجارتُه إلَّا إذا ألصقَها بالإسلامِ، ونبيُّنا ﷺ يقولُ في حديثِ أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»، قالَ أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقرَأَها رسولُ اللهِ ﷺ ثلاثَ مرارٍ، قالَ: فقُلتُ: خابوا وخسِروا يا رسولَ اللهِ، مَنْ هُمْ؟ مَن هؤلاءِ؟ قال: «**المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ**»[1]، كمَنْ يكذبُ ويقولُ للمشتري: أُعطِيتُ فيها قبلَكَ ألفًا. وهو لم يُعطَ إلَّا سبعَ مئةٍ، أو يكذبُ عَنْ جِدَّةِ هذا البيتِ أوِ السيارةِ، وعَنْ جاهزيَّتِها، وهو يعلمُ أنَّ فيها العطلَ الفلانيَّ.

فيكذبُ ليحصِّلَ مالًا، لكِنَّ هذا المالَ تمحقُ بركتُه، يقولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثِ حكيمِ بنِ حزامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»[2].

فالكذبُ في البيعِ والشراءِ صورةٌ مِن صورِ الكذبِ، كما أنَّ الحلفُ بأنِّي أُعطِيتُ فيه كَذا وليس كَذلِك يمحقُ البركةَ، ويقعُ هذا الحالفُ في منكرٍ عظيمٍ وكبيرةٍ مِنْ كبائرِ الذنوبِ، وهي اليمين الغموس.

الصُّورةُ الثالثةُ: أَنْ يكذبَ في مَزحِه.

فيقولُ: ما الموضوعُ إلَّا مُؤَانَسة، وما هذِه إلَّا كذبةٌ بيضاءُ. وليسَ في الكذبِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما، رقم (٢٠٧٩)، ومسلم: كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم (١٥٣٢).

ألوانٌ، بَلْ كلُّه سوادٌ، فالكذبةُ سوداءُ وصاحبُها ليسَ لهُ منَ الوجوهِ إلَّا السوادُ، كما سيأتي.

لذا قالَ ﷺ مرشِدًا للأُمـةِ بهذا الحافزِ العظيمِ، فقالَ في حديثِ أبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ أبي داودَ-: «أَنَا زَعِيمٌ» أي: أنا ضامِنٌ «بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ»[(١)]، فلا يوجدُ مزاحٌ مقرونٌ بالكذبِ؛ لذا قالَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يومًا مِنَ الأيامِ للنبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ إنَّك تداعِبُنا -هُمْ فهِموا أنَّ الممنوعَ هوَ المزاحُ، بلِ المزاحُ مسموحٌ بهِ- قالَ: «نَعَمْ، وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا»[(٢)]، فلَمْ يمنَعِ الإسلامُ مِنَ المزاحِ، ولكِنْ فلْيَكُنْ في الحقِّ، ولا يكونُ في الباطلِ والكذبِ.

الصُّورةُ الرَّابعةُ: الكذبُ لإضحاكِ الناسِ.

فمِنْ صوَرِ الكذبِ في المُجتَمعاتِ ما قَدْ خُدعَ بهِ بعضُ الإخوةِ حينَما قيلَ لهُ: أنتَ فاكهةُ المجلسِ. أَوْ حينَما قيلَ لهُ: أنتَ مِلحُ المجلسِ؛ لأنَّه يكذبُ ليُضحِكَ روَّادَ المجلسِ، فيكذبُ لينالَ حظوةً عندَ مَنْ في صدرِ المجلسِ، يقولُ أشياءَ لم تَحصُلْ، ويصوِّرُ أشياءَ لم تَصِرْ فقَطْ ليُضحِكَ القومَ.

ويقولُ النبيُّ ﷺ لِمثلِ هذَا: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيَلٌ لَهُ، وَيَلٌ لَهُ»[(٣)]، يتكرَّرُ الويلُ لهذا المسكينِ المغبونِ ثلاثَ مرَّاتٍ، ويلٌ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم (٤٨٠٠).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٠)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، رقم (١٩٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٥)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)، من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

له في الأُولى، وويلانِ في الثانيةِ، ويلٌ لهُ في الدنيا، وويلٌ لهُ في قبرِه، وويلٌ لهُ عندَ لقاءِ ربِّه؛ لأنَّه خُدعَ حينما خُلِعَ عليهِ لقبُ: أنتَ مِلحُ المجلسِ ضحِّكْنا. فيَأتِي بأشياءَ لم تَصِرْ، فيقعُ في هذا المنكرِ العظيمِ.

وصورُ الكذبِ في المجتمعاتِ كثيرةٌ، لكِنْ حسبي ما ذكرتُ.

والكاذبُ الَّذي إذا ذُكِّـرَ بحرمةِ الكذبِ فلَمْ يرتدِعْ فإنَّه يسيرُ بنَفْـسِه إلى عواقبَ:

العاقبةُ الأُولى: عاقبةُ النفاقِ.

ويجمعُ معَ النفاقِ الفسوقَ، فتأمَّل الآياتِ في سورةِ التوبةِ، يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَـٰٓئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ إلى أَنْ قالَ سبحانه: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ هـذِه العاقبةُ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٧٥-٨٠].

العاقبةُ الثانيةُ: عاقبةُ الفجورِ.

والفجورُ ليسَ بعدَه إلَّا النارُ، فنبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَالفُجُورُ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ**

حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[(١)].

العاقبةُ الثالثةُ: سوادٌ يعلُو وجهَ الكاذبِ في الدنيا والآخرةِ.

وهذا قـرَأْناهُ كلُّنا، فالَّذي قـرَأَ القرآنَ قَد مرَّ على هذهِ الآيةِ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠] فهَذا سوادٌ، وقد تحدَّثَ ابنُ القيِّمِ -رحمه الله تعالى- عَنْ هذا السوادِ الَّذي يحصُلُ في الدنيا والآخرةِ وقالَ: «هوَ شعارٌ في وجوهِ الكاذِبينَ»[(٢)].

لذا فالمؤمِنُ لا يكذبُ، فإذا وقَعَ في الكذبِ عادَ وتابَ وأنابَ إلى اللهِ.

هذا، وصلُّوا وسلِّموا -رحِمكمُ اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابِه الكريمِ قائِلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٩٥).

(٧)

مَسؤوليةُ الكلِمةِ

تحدَّثْنا فيما سبقَ عَنِ الكذبِ، وأنَّه داءٌ خطيرٌ، وبلاءٌ إذا وقعَ فيه المرءُ فإنَّه يجرُّه إلى الفسوقِ والفجورِ وإلى النارِ، تحدَّثْنا عنِ الكذبِ على اعتبارِ أنَّه سُلَّمُ الجُبناءِ والمنافِقين، وأنَّه يأباهُ أهلُ الصِّدقِ وأهلُ الإباءِ وأصحابُ المروءاتِ.

وحديثُنا الآنَ هو تَكملةٌ لما سبَقَ: كيفَ يَنجو الكذَّابُ مِنْ داءِ الكذبِ، كيفَ ينقذُ نفسَه مِن هذِه الخصلةِ المذمومةِ؛ لأنَّه معلومٌ -كما تقدَّم- أنَّ الَّذي يكذبُ مرةً يحتاجُ أَنْ يكذبَ مِئةَ مرةٍ ليُغطِّيَ تلكَ الكذبةَ، فهوَ في كذبٍ متواصلٍ، كيفَ ينقذُ نفسَه، وهذا هو فحْوَى حديثِنا الآنَ.

إنَّ العبدَ إذا أرادَ أَنْ ينقذَ نفسَه مِنْ هذا الخلقِ الذميمِ عليه أَنْ يَستشعِرَ مسؤوليةَ الكلمةِ، فالكلمةُ في هذا الدِّينِ لها مسؤوليةٌ عظمَى، فكَمْ مِنْ كلمةٍ أفرَحَت وأخرَى أحزَنَت! وكَمْ مِن كلمةٍ رفَعَت وأخرى خفَضَت! وكَمْ مِن كلمةٍ حسَّنَت وأخرَى قبَّحَتْ! وكَمْ مِن كلمةٍ تَنشرِحُ لها الصدورُ وأخرَى تغتمُّ بها وتستوحِشُها الصدورُ! فالكلمةُ مِنَّةٌ منَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، امتنَّ بها على العبادِ، فقالَ سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٨-٩].

إنَّ للكلِمةِ في دِينِنا أهميةً عُظمَى، وإنْ لَمْ نخرُجْ مِنْ هذا الحديثِ إلَّا باستِذْكارِ هذِه الأهمِّيةِ لهذِه الكلمةِ الَّتي إنَّما هي مجموعةُ حروفٍ لكفَى، وتَكمُنُ أهمِّيةُ الكلمةِ فيما يَلي:

أوَّلًا: أنَّ الكلمةَ الطيبةَ مِن سِماتِ المؤمنين الصادِقين.

فقدِ امتدَحهم المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّهم لا يقولونَ اللغوَ، فقالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:١-٣]، فلا يقولونَ اللغوَ، ولا يَستمِعونَ إليه، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]، وهُمْ مُلتزِمون بأمرِ اللهِ أَنْ يَكونَ كلامُهم مسدَّدًا، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدْ أَوْصى المُتَّقين فقالَ لَهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]، فأهمِّيةُ الكلمةِ أوَّلًا تَكمنُ في هذهِ النقطةِ الحساسةِ، وهيَ أنَّها مِن سِماتِ المُؤمِنين، كما أنَّ الكلمةَ القبيحةَ مِنْ سماتِ المنافِقين والكاذِبين.

ثانيًا: أنَّها سببٌ رئيسٌ في الحصولِ على الرضوانِ، وسببٌ رئيسٌ في الحصولِ على السخطِ والحرمانِ.

فقَدْ جاءَ في حديثِ بلالِ بنِ الحارثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ الترمذيِّ-: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ**» كلمةٌ واحدةٌ لم يكُنْ منتبِهًا لها، ولم يُعِدَّها جيدًا، ولم يظنَّ أنَّها تبلغُ ما بلَغَت «**وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ**» لم يُعدَّها، ولم يفكِّرْ فيها، ولم يُخطِّطْ لها، ومعَ ذلكَ «**يَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ**»[(١)].

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٩)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قلة الكلام، رقم (٢٣١٩)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٦٩).

فهذِهِ كلمةٌ واحدةٌ يقولُها لم يدبِّجْها ولا فَكَّرَ فيها ولا عدَّلَها، ولم يظنَّ أنَّها ستُؤخذُ على مَحْمَلِ الجِدِّ، فيكتبُ اللهُ عليه بها سخطَه إلى يومِ يلقاهُ، فكيفَ بالَّذي يقولُ كلماتٍ!.

ثالثًا: أنَّها معيارُ التفاضلِ بينَ المسلِمين.

فقَدْ جاءَ في (صحيح مسلمٍ) مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رجلًا أتَى النبيَّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ أيُّ المسلِمين خيرٌ؟ قالَ: «**مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»(١).

فإذا أرَدْتَ أَنْ تضعَ معيارًا للتفاضُلِ بينَ المسلِمينَ فهوَ ذاكَ الَّذي سلِمَ المسلِمونَ مِنْ لسانِه وسلِمَ المسلِمون مِن يدِه، فلا يصلحُ أَنْ يَسلمَ المسلِمون مِنْ يدِكَ ولا يسلَمونَ مِن لسانِك، بَلْ لا بُدَّ أَنْ يَسلَموا مِن لسانِك ويدِكَ.

رابعًا: أنَّ لها ارتِباطًا وثيقًا بالإيمانِ.

ففي حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ البخاريِّ-: يقولُ ﷺ: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(٢)، فهناكَ ارتباطٌ وثيقٌ بينَ الإيمانِ والكلمةِ الخارجةِ مِن فمِ الإنسانِ.

خامسًا: أنَّها سببٌ رئيسٌ في دخولِ الجنةِ.

فقَدْ جاءَ في (صحيح البخاريِّ): أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ**

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، رقم (٤٠).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

لَحَيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»[1] أي: مَن يضمَنْ هذه العضَلةَ الَّتي بين لَحْيَيه ويضمَنْ فرجَه فله الجَنةُ، فنبيُّنا ﷺ يُبَيِّنُ ضَمانَ الجَنَّةِ لَمَنْ يَستطيعُ أَنْ يَتحكمَ في هذه الأداةِ الَّتي تخرجُ منها هذه الكلماتُ.

سادسًا: أنَّها سببٌ رئيسٌ في دخولِ النارِ.

ولَنا هذا الحديثُ العجيبُ، يقولُ معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -والحديثُ عندَ ابنِ ماجَهْ في (سُننه)- فتدبَّروهُ بقُلوبِكم، وانظُروا أهمِّيةَ الكلمةِ في هذا الدينِ، هذه الكلمةُ الَّتي لا يَلتفِتُ لها الآنَ، وليسَ بالضرورةِ أَنْ تكونَ الكلمةُ هذه الأحرفَ الخارجةَ، إنَّما قَدْ تكونُ هذهِ الكلمةَ المسموعةَ، أو تلكَ الكلمةَ المقروءةَ، فالكلمةُ تأخذُ هذا الشمولَ.

يقولُ معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنتُ معَ النبيِّ ﷺ في سفَرٍ، فأصبَحْت يومًا قريبًا مِنْه ونحنُ نسيرُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أخبِرْني بعمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ ويباعِدُني منَ النارِ، قالَ ﷺ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا» أي: لقَدْ سأَلْت عَنْ أمرٍ عظيمٍ، «وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ» أي: لا تخَفْ، نعَمْ هو عظيمٌ لكِنْ مَن يسَّرَه اللهُ عليه سيجدُه يسيرًا، «تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ» ثُم قالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ المَاءُ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ». ثُم قرأَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتَّى بلغَ ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦-١٧].

هذا كلُّه حوارٌ يدورُ بينَ النبيِّ ﷺ ومعاذٍ، ونبيُّنا ﷺ ينقُلُه مِن شيءٍ إلى شيءٍ؛ ليصلَ بِهِ إلى الأمرِ المهمِّ، بَلْ إلى الأمرِ الأهمِّ، قالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم (٦٤٧٤)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ الجِهَادُ»، ثُم قالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قلتُ: بلَى. فأخَذَ بلسانِه ﷺ -أي: أخذَ بلسانِ نفسِه- قالَ: «تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا»، قالَ: يا رسولَ اللهِ وإنَّا لَمُؤاخَذون بما نَتكلمُ بهِ، قالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[1].

إذَنْ هيَ سمةٌ مِن سماتِ المؤمنين، وهي سببٌ لحُصولِ الرضوانِ أوِ السخطِ والحِرمانِ، وهيَ مِعيارٌ للتفاضلِ بينَ المسلِمين، ولها ارتباطٌ وثيقٌ بالإيمانِ، وسببٌ رئيسٌ في دخولِ الجَنةِ، أو سببٌ رئيسٌ في دخولِ النيرانِ.

ولا يُمكنُ أَنْ نَستفيدَ مِن هذِه الكلمةِ الخارجةِ مِن أفواهِنا إلَّا عبرَ هذِهِ البواباتِ الثلاثِ:

البوابةُ الأُولى: الاستِشعارُ الدائمُ برقابةِ اللهِ عليها.

ولا نَحتاجُ أَنْ نُدلِّلَ كثيرًا على هذا الأصلِ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٨]، فأيُّ شيءٍ يخرجُ قَدْ سجَّلَتْه الملائكةُ، واللهُ مطلعٌ، إذَنِ البوابةُ الأُولى الاستشعارُ التامُّ برقابةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

البوابةُ الثانية: الاستِذْكارُ الدائمُ بعواقبِ الكلمةِ.

فهؤلاءِ الَّذين يَتكلَّمون فيَكذِبون ويَقتطِعون حقوقَ الآخَرين لا بُدَّ أَنْ يَعرِفوا أَنَّ لها عاقِبةً، وكذلِك هؤلاءِ الَّذين يَتكلَّمون في خُطبةِ الجُمعةِ، لا بُدَّ أَنْ يَعرِفوا أنَّ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

لها عاقبةً، فنبيُّنا ﷺ يقولُ: «مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: صَهْ، وَالإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَغَا، وَمَنْ لَغَا فَلَا جُمُعَةَ لَهُ»[(١)].

فاستذكِرْ دائمًا عواقبَ الكلمةِ الَّتي تقالُ، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، خاصةً ما كانَ فيه ظُلمٌ للآخَرين، وهذا الَّذي يتكلَّمُ في الخفاءِ يظُنُّ أنَّه لم يسمَعْه أحدٌ، وهذا الَّذي يتكلمُ دونَ الأبوابِ المغلقةِ، وهَذا الَّذي يتكلَّمُ في الزوايا والتكايا عن بعدٍ، وهذا الَّذي يَكتبُ خلفَ أسماءٍ مستعارةٍ -سيأتي الحديثُ عَنْه في آدابِ مَواقِع التَّواصُل الاجتِمَاعِيِّ- وهذا الَّذي يتكلمُ ويظُنُّ أنَّ الناسَ لَنْ يعلَموا، فلْيتذكَّرَ العواقبَ، يقولُ نبيُّنا ﷺ: «وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ، حَبَسَهُ اللهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»[(٢)].

ويقولُ ﷺ في حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ أبي داودَ-: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»[(٣)]، فالأمرُ ليسَ هينًا حتَّى يكذبَ الكذبةَ، أَوْ يفتريَ الفِريةَ، أو يشهدَ شهادةَ الزورِ، وليدركَ أنَّ هناكَ عواقبَ لهذِه الكلِمةِ.

البوابةُ الثالثةُ: الالتزامُ التامُّ بضوابطِ الكلمةِ.

فالكلمةُ لها ضوابطُ، ولَسْنا في مجالِ الحديثِ عنها الآنَ، لكِنْ يَكفي أَنْ تعرفَ بعضًا مِن آدابِها:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٩٣)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب فضل الجمعة، رقم (١٠٥١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤١)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة، رقم (٤٨٨٣)، من حديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٧٨).

أوَّلًا: أنَّه يجبُ عليكَ أَنْ تأتِيَ بالكلِمةِ الأحسنِ قبلَ الحسنةِ، والكلمةِ الأطيبِ قبلَ الطيِّبةِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء:٥٣]، يقولُ ﷺ -في حديثِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا»، فقامَ أعرابيٌّ قالَ: لِمَنْ هيَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[(١)].

ثانيًا: أنَّها لا تخرجُ إلَّا لمقصدٍ، فلا يصلحُ أَنْ يَكونَ الإنسانُ مِهْذَارًا[(٢)] يقولُ أيَّ شيءٍ؛ لأنَّ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: «مَن كثُرَ كلامُه كثُرَ سقَطُه، ومَن كثُرَ سقَطُه قلَّ حياؤُه، ومَن قلَّ حياؤُه قَلَّ ورَعُه، ومَنْ قلَّ ورَعُه ماتَ قلبُه»[(٣)].

وسارَ على هذا النهجِ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ -رحمه الله تعالى- فعزلَ أحد القضاةِ، فجاءَ هذا القاضِي مستفسرًا يقولُ: يا عمرُ لِمَ عزَلْتَني؟ قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: بلَغَني أنَّ كلامَك معَ الخَصمين أكثرُ مِنْ كلامِ الخصمَين فعزَلْتُك[(٤)]. فكيفَ لو خرجَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ في واقِعِنا اليومَ؟!

هذا، وصلُّوا وسلِّموا -رحِمكمُ اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائِلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٥٥)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في قول المعروف، رقم (١٩٨٤).

(٢) أي: كثير الكلام.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الحلم رقم (١٢٦)، والطبراني في الأوسط رقم (٢٢٥٩)، والبيهقي في الشعب رقم (٤٦٤٠).

(٤) ذكره ابن عبد البر في أدب المجالسة (ص:٥٤).

(٨)

السابِقون إلى الجَنَّةِ

فِي أجواءِ السباقِات يَتفاعَلُ المجتَمَعُ معَها، ويُكثِرون منَ الحديثِ عنها، ويتناقلُ أخبارَه إعلامُنا، فرأيتُ ألَّا نتجاوزَ هذا الموضوعَ ونتحدَّثَ عنه، ولكنَّه حديثٌ يختلفُ عن حديثٍ، وخبرٌ يختلفُ عن خبرٍ، فإن الحديثَ الذي نتحدثُ فيه، والخبرَ الذي نخبرُ عنه هُو السباقُ إلى الجِنانِ، والميدانُ يختلفُ عنِ الميدانِ، فهاهنا الحلبةُ تختلفُ، فهيَ الحياةُ الدنيا منذُ أن يولدَ الإنسانُ إلى أن يُقبضَ، والجائزةُ ليست كأسًا ولا زجاجةً، ولكنَّها جَنةٌ عرضُها السمواتُ والأرضُ.

إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقَ الإنسانَ وجبلَه على حبِّ المنافسةِ والمسابقةِ والتحدِّي، وعلى السعيِ والحركةِ، فقالَ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]، ونبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّنَ لنا أنَّه ما من إنسانٍ إلَّا وإذا أصبحَ غدَا، فقالَ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»[(١)]، فالكلُّ يشاركُ في هذا الميدانِ، والكلُّ ينطلقُ في هذه الحلبةِ، فبائعٌ نفسَه فمعتقُها من النيرانِ، أو موبقُها في الجحيمِ، عياذًا باللهِ.

والناسُ تختلفُ رُؤاهُم وتوجهاتُهم وهم في ميدانِ السباقِ؛ لذا أزاحَ الستارَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ -رحمه الله تعالى- عن كثيرٍ منَ المفاهيمِ الخاطئةِ ورسَّخَ مفهومًا واحدًا حينما رأى الناسَ وهم يُفيضون من عرفةَ في سعيٍ وسباقٍ وحركةٍ، فوقفَ مخاطبًا لهم يقولُ: ليسَ السابقُ مَن سبقَ بعيرُه وفرسُه، ولكِنَّ السابقَ مَن غُفِرَ له[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الدينوري في المجالسة رقم (١٦٨).

فهُوَ هُنا يرسخُ مفهومَ السباقِ ومفهومَ الفوزِ ومفهومَ الآلةِ التي يُسابَقُ عليها، والنتيجةُ عظيمةٌ، والثمرةُ عظيمةٌ، إنها الجنانُ التي قالَ اللهُ في شأنِها: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:١٠-٢٦].

ومَن أرادَ أن يوجِّهَ مِقودَه إلى هذِه الجنانِ العظيمةِ فلا بُدَّ أن يُصغِيَ بسمعِه إلى مَن سبقَ، فإنَّ هناكَ مَن سبقَ إلى هذه الجِنانِ وهو سيدُ السابقين ﷺ، ومَن جاءَ بعدَه من الصحابةِ والتابعين، فقَدْ وضعوا لنا مِنهاجًا قبلَ أن نَدخلَ في هذه الحلبةِ وقبلَ أن نوجِّهَ دفَّةَ هذه المركبةِ، وأوصَوْنا بوصايا متعددةٍ مَن أخذَ بها رشَدَ، ومَن تركَها فلا يَلومَنَّ إلَّا نفسَه، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

الوصيةُ الأولى: لا تقبلُ بغيرِ الفوزِ والصفوفِ المتقدمةِ.

فالَّذي يشاركُ في هذه الحلبةِ، ويريدُ أن ينطلقَ، يقالُ له: لا بدَّ أن تكونَ عندَك همةٌ، فلا تَقبَلْ بغيرِ الفوزِ، ولا تَقبَلْ بغيرِ الصفوفِ المتقدمةِ، وهكذا ربَّانا ﷺ، يقولُ في هذا البيانِ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ: اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ، كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَؤُهَا**»[1]، فهو يرتلُ هنا ويَقرأُ فيرتقِي هناكَ ويرقَى ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٢)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم (١٤٦٤)، والترمذي: كتاب فضائل القرآن، رقم (٢٩١٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وصححه ابن حبان رقم (٧٦٦).

وصاحبُ القرآنِ هو القارئُ للقرآنِ المتأملُ له، المتدبرُ لآياتِه، العاملُ بما فيه، الحافظُ لآياتِه، فنبيُّنا ﷺ يريدُ لنا أن نبذلَ جهدَنا في عمليةِ هذه الترقيةِ.

ويقولُ في حديثٍ آخرَ رواهُ البخاريُّ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ» أي: التبكيرِ «لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي العَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا»[(١)].

يربِّينا ﷺ على هذه الوصيةِ، فيقولُ كما جاءَ في البخاريِّ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ المَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ، يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ»، فاستشعِرْ وأنتَ تدخلُ المسجدَ هذا الذي يؤشرُ بإشارتِه، يقولُ: هذا الأولُ ثُم هذا الثاني، فإنَّهم يكتبون الأوَّلَ فالأولَ «فَإِذَا جَلَسَ الإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ وَجَاؤُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»[(٢)].

يريدُ لنا ﷺ أَنْ نَعيشَ السباقَ الحقيقيَّ، فأسابقُ غيري عندَ بابِ المسجدِ في يومِ الجمعةِ، فهؤلاءِ الذين يأتون بعدَ دخولِ الخطيبِ، نعَمْ هُمْ لهم جمعةٌ، ولكِنْ لم تُدوَّنْ أسماؤُهم في صحفِ الملائكةِ، وهذا شرفٌ كبيرٌ عظيمٌ.

وقَدْ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤] يريدُ أن يكونَ إمامًا، لم يدعُ لذريتِه، وإنما دعا لنفسِه أن يكونَ إمامًا؛ ليربِّيَنا هذا الدينُ أن نكونَ نحن الأئمةَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان، رقم (٦١٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم (٤٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢١١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب فضل التهجير يوم الجمعة، رقم (٨٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمتقدِّمين، حتَّى لو سابقَنا الأبناءُ نكونُ نحنُ السابِقين، حتَّى وإِنْ دخلَ في هذا الدعاءِ الذريةُ.

الوصيةُ الثانيةُ: لا تَرضَى لنفسِك أن تكونَ في ذيلِ القائمةِ.

ولا تكُنْ همتُك همةَ الضعفاءِ، كالذي يقولُ: أهمُّ شيءٍ أن نكونَ في القافلةِ، أو أهمُّ شيءٍ أن اسمِي موجودٌ في القائمةِ، أو أهمُّ شيءٍ أنَّني موجودٌ في الرَّكْبِ، فلا تقبَلْ بأن تكونَ في ذيلِ القائمةِ؛ لأنه لا يقبَلُ بذلكَ إلَّا الذيلُ، وأنتَ قد هُيِّئت لشيءٍ آخرَ، وهو أن تكونَ رأسًا، فإن مَن ربَّاكَ واعتَنى بكَ؛ سواءٌ كان والدًا أو معلمًا أو شيخًا أو مدرسًا، ربَّاك لتكونَ رأسًا، ولم يربِّكَ لتكونَ ذَيلًا، فلا ترضَ لنفسِكَ أن تكونَ ذيلًا، حتَّى وإِنْ كنتَ في القائمةِ فلا ترضَ أن تَكونَ في ذيلِ القائمةِ، قالَ الشَّاعِر:

وإِذَا مَـــا طَمِحْـــتُ لِغَايَـــةٍ ... رَكِبْـــتُ المُنَـــى وَنَسِـــيتُ الحَـــذَرْ

ولَمْ أَتَجَنَّـــبْ وُعُـــورَ الشِّـــعَابْ ... ولَا كبَّـــةَ اللهَـــبِ المُسْـــتَعِرْ

وَمَـــنْ يَتَهَيَّـــبْ صُـــعُودَ الجِبَـــال ... يَعِـشْ أَبَـدَ الـدَّهْرِ بَـيْنَ الحُفَـرْ[1]

أي: مَن يتهيبُ صعودَ الجبال يبقَى في وسطِ الحفرِ والمستنقعاتِ.

واعلَمْ أنَّ الأمرَ، كما قالَ الأولُ:

قَـدْ هيَّـؤُوكَ لأَمْـرٍ لَـوْ فَطِنْـتَ لَـهُ ... فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرعَى مَعَ الهمـلِ[2]

(١) الأبيات لأبي القاسم الشابي، انظر: ديوانه (ص:٩٠).

(٢) البيت للطغرائي من قصيدته لامية العجم، انظر: شرح لامية العجم للدميري (ص:١٢٤).

وقَدْ خاطبَ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى رسولَه ﷺ فقالَ: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ [التوبة:٨٣]، فهؤلاءِ القاعدونَ القابعونَ المتخلِّفون لا يؤذنُ لهم بالخروجِ؛ لأنَّهم يمتلِكون نفوسًا ضعيفةً، فلا يمكنُ لهم دخولُ حلباتِ السباقِ؛ لأنَّهم لا يملِكون النفوسَ القويةَ الأبيَّةَ.

ولا تظنَّ أنَّ السابقَ سيَسبِقُ بنسبِه، ولن يَسبقَ بمالِه، ولن يسبقَ بجاهِه ومنصبِه، يقولُ نبيُّنا ﷺ: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»(١) فإذا كان العملُ بطيئًا وكان النسبُ سريعًا فلا يَنفعُه.

الوصيةُ الثالثةُ: لا تضيِّعِ الفرصَ فإنَّها لا تتكررُ.

ففي حلبةِ الحياةِ الدنيا لا تتكررُ الفرصُ، يقولُ ﷺ: «**يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هِيَ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ القَمَرِ**» فقام عكَّاشةُ بنُ محصنٍ الأسديُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: ادعُ اللهَ يا رسولَ اللهِ أن يجعلَني منهم، قالَ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**»، فقامَ رجلٌ منَ الأنصارِ فقالَ: يا رسولَ اللهِ ادعُ اللهَ أن يجعَلَني منهُم، قالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»(٢).

فهي فرصٌ لا تَتبدَّلُ ولا تتكرَّرُ، فاغتنِمْ فرصةَ الصحةِ الَّتي عندَكَ الآنَ وحرِّكْ عجلتَك إلى اللهِ، واغتنِمْ وجودَ والديكَ على قيدِ الحياةِ وبرَّهُما، فإمَّا أن تموتَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، رقم (٦٥٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أو يموتا أو يموتَ أحدُهما، واغتنِمْ فرصةَ الأمنِ الذي تعيشُه وتقرَّبْ إلى اللهِ، فاغتنِمْ هذه الفرصَ؛ لأنَّها لا تتكرَّرُ، والمتسابقُ الذكيُّ لا يفوِّتُ الفرصَ.

الوصيةُ الرابعةُ: لا تكثِرِ الالتفاتَ وركِّزْ على الطريقِ.

فإن المتسابقَ الذي يكثرُ من الالتفاتِ، وينظرُ إلى مَن خلفَه هل دنا منه أو لا، والَّذي يكثرُ الالتفاتَ يَمنةً ويَسرةً تتأخرُ حركتُه، والَّذي ينشغلُ بالسبُلِ المحيطةِ به ويغفلُ عن السبيلِ الذي أرادَه اللهُ له تنخفضُ حركتُه، وربما خرجَ من الطريقِ، يقولُ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خطَّ لنا رسولُ اللهِ ﷺ خطًّا، وقال: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**» وخطَّ خطوطًا عن يمينِه وعن شمالِه، وقالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثُم قرأَ الآيةَ من سورةِ الأنعامِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣][(١)].

فالمتسابقُ العاقلُ الطامعُ في تلكَ الجنةِ لا يغترُّ بهذه الطرقِ المحاذيةِ لطريقِه، فهيَ طرقٌ فَرْعيَّة، فدَعْكَ من تلكَ السبلِ فإنَّ سبيلَك واضحٌ.

وهو هذا المنهجُ الذي جاءَ به ربُّك تَبَارَكَ وَتَعَالَى وهداكَ إليه رسولُك ﷺ، فاعتصِمْ بكتابِ اللهِ وبسُنةِ رسولِه ﷺ، يقولُ الزهريُّ -رحمه الله تعالى-: الاعتصامُ بالسُّنَّةِ نجاةٌ[(٢)]؛ لأنَّ السُّنةَ كما قالَ مالكٌ -رحمه الله تعالى-: مثلُ سَفينةِ نوحٍ مَن ركِبَها نجا، ومَن تخلَّفَ عنها هلكَ[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الدارمي في سننه رقم (٩٧)، وابن بطة في الإبانة رقم (١٥٩).
(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٣٠٨)، والهروي في ذم الكلام رقم (٨٧٢).

وقد جاءَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ينازعُ الموتَ في لحظاتِ عمرِه الأخيرةِ، وقالَ: يا حذيفةُ أَوْصِني قبلَ أن تموتَ. قالَ: إيَّاك والتلوُّنَ، فإنَّ دينَ اللهِ واحدٌ. أي: إياكَ والتلوُّنَ تارةً هنا وتارةً هناك، تارةً بهذا الثوبِ وتارةً بذاك الثوبِ، إيَّاكَ، فافهَمْ هذه الحياةَ الدنيا على الفهمِ الذي فهمَه رسولُ الله ﷺ[(١)].

وقد أقبلَ بلالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ناحيةِ الحلبةِ -حلبةِ سباقِ الخيلِ في زمنِه- فقابلَه رجلٌ فقالَ: يا بلالُ مَن سبقَ؟ قال بلالٌ: سبقَ المقرَّبون. قالَ: إنما أسألُك عن الخيلِ. قال بلالٌ: وأنا أُجيبُك عن الخيرِ[(٢)].

هكَذا فهِموا الحياةَ الدنيا، وهكذا فهِموا السباقَ، وهكذا فهِموا الجائزةَ، إنَّها تلكَ الجنانُ.

هذا، وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم اللهُ- على نبيِّ الهدَى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه معمر في جامعه رقم (٢٠٤٥٤)، وابن الجعد في المسند رقم (٣٠٨٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٩٥٣).

(٢) ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (٢/ ١٩٣).

(٩)

شيءٌ من أخبارِ الصالحين

ندَبَنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لفعلِ الصالحاتِ، وأثنَى على الذينَ آمَنوا وعمِلوا الصالحاتِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء:٦٩-٧٠].

وبيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ العاقبةَ للمُتَّقين الصالِحين، وأنَّهم هم ورثةُ الأرضِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

والصلاحُ والحشرُ معَ الصالحين هي غايةُ كلِّ عبدٍ، وهكذا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ، تقولُ أمُّنا عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سمِعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»، وكانَ في شكواهُ الذي قُبِضَ فيه أخذَتْه بُحَّةٌ شديدةٌ، فسمِعته يقولُ: «**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**»، فقالَتْ عائشةُ: فعلِمْت أنه خُيِّرَ[1].

والصالِحون يتناقصونَ في هذه الحياةِ الدنيا ولا يزيدونَ، يذهبُ الأولُ فيتبعُه الآخرُ، كما أخبرَ نبيُّنا ﷺ في قولِه: «**يُقْبَضُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَتَبْقَى حُثَالَةٌ** -أو قال: **حفالةٌ**- **كَحُثَالَةِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِمْ شَيْئًا**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، رقم (٤٥٨٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٤٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ذهاب الصالحين، رقم (٦٤٣٤)، من حديث مرداس

وحديثُنا الآنَ عَنْ شيءٍ من أخبارِ الصالِحين، فقَدْ جعلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لهم أخبارًا تجدُها مبثوثةً في كتابِ اللهِ، وفي سُنةِ نبيِّه ﷺ، وهاهُنا شيءٌ مِن أخبارِ الصالِحين:

الخبرُ الأولُ مِن أخبارِ الصالِحين: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تكفلَ بحفظِ الصالِحين ورعايتِهم.

وهاهنا يَحضرُنا قولُ النبيِّ ﷺ وهو يرشدُ كلَّ نائمٍ في قولِه إذا وضعَ جنبَه على الأرضِ قالَ: «**بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**»(١)، فعلِمْنا مِن هذا الحديثِ أنَّ الصالحين في حفظٍ ورعايةٍ منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

بَلْ إنَّهم يُحفَظون ويُحفظُ لهم أهلوهم وذراريُّهم، وقد جاءَ في سورةِ الكهفِ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢]، فحفظَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لهذه الذريةِ هذا الكنزَ؛ لصلاحِ أبيهِم، أو لصلاحِ جدِّهم، أو لصلاحِ أبيهِم السابعِ كما جاءَ عندَ ابنِ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

بل إنَّ حفظَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يمتدُّ إلى ما هوَ أبعدُ من ذلِكَ، يقولُ محمدُ بنُ المنكدرِ -رحمه الله تعالى-: إنَّ اللهَ ليحفظُ بالرجلِ الصالحِ ولدَه وولدَ ولدِه وقريتَه الَّتي هو فيها والدوياتِ التي حولَها، ولا يزالونَ في حفظِ اللهِ وسترِه(٣).

= الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أيضا: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٥٦)، عن مرداس موقوفا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند المنام، رقم (٦٣٢٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ١٦٨).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد رقم (٣٣٠)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٦٥٦٤).

الخبرُ الثاني: الصَّالحون ينتفعون بصلاحِهم في الأوقاتِ الحرجةِ واللحظاتِ الصعبةِ.

وقَدْ قصَّ علينا نبيُّنا ﷺ خبرَ أولئِكَ الذين أَوَوْا إلى الغارِ فانطَبَقَت عليهم الصخرةُ، فقالوا لبعضِهم: إنَّه لا ينجيكُم مِن هذه الصخرةِ إلَّا أن تَدْعوا اللهَ بصالحِ أعمالِكم. فدعا كلُّ واحِدٍ منهم بصالحِ عملِه، فانفرَجَت عنهم تلكَ الصخرةُ فخرَجوا يَمشون، كما أخبرَ النبيُّ ﷺ[1].

فهُم ينتفعون بها في الأوقاتِ الحرجةِ، كما أخبرَ النبيُّ ﷺ حينَما قالَ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[2]، فصلاحُ الآباءِ يحفظُ به الأبناءُ، وصلاحُ الأبناءِ ينتفعُ به الآباءُ، فصلاحُك تحفظُ به ويُحفظُ لكَ مَن جاءَ بعدَك، ويحفظُ لك مَن سارَ قبلَك من الآباءِ والأجدادِ.

الخبرُ الثالثُ: أنَّهم همُ المحضنُ الآمنُ والرفقةُ المباركةُ لِمَنْ ألهبَه حرُّ الذنوبِ، وأرادَ أن يعودَ ويتوبَ ويؤوبَ.

فإلى مَن يفكرُ في التوبةِ، إلى مَن يفكرُ في الرجوعِ منَ الذنبِ، إلى مَن يبحثُ عن المحضنِ الدافئِ الآمنِ، فإنَّك لا تجدُ ذلكَ إلَّا في الصالحِين، وقد بيَّنَ لنا نبيُّنا ﷺ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرا فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار، رقم (٢٧٤٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حديثِ قاتلِ المئةِ نفسٍ أنَّه لَمَّا قتلَ مئةَ نفسٍ سألَ العالِمَ، فأرشدَه ذلكَ العالمُ الربانيُّ قالَ: اذهَبْ إلى قريةِ كذا وكذا فإن فيها قومًا صالِحين فاعبُدِ اللهَ معهم[(١)].

الخبرُ الرابعُ: أنَّهم همُ الأَولى بحفظِ الأمنِ.

والمعيارُ الأولُ في رجلِ الأمنِ الصلاحُ، تقولُ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أرقَ رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ ليلةٍ -أَيْ: ذهبَ عنه النومُ- فقالَ: «**لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي**»، يريدُ أَنْ يأمنَ حتَّى ينامَ، فالإنسانُ الذي لا يجدُ الأمنَ لا ينامُ، قالَتْ عائشةُ: فسمِعْنا صوتَ سلاحٍ -أي: صوتَ رجلٍ مسلحٍ- فقالَ ﷺ: «**مَنْ هَذَا؟**» قال: سعدُ بنُ أبي وقاصٍ يا رسولَ اللهِ، جِئتُ أحرُسُك. قالَتْ عائشةُ: فنامَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى سمِعْت غطيطَه[(٢)]. فالصلاحُ معيارٌ رئيسٌ في رجلِ الأمنِ.

الخبرُ الخامسُ: أنَّ لجنائزِهم شأنًا مختلفًا.

يقولُ ﷺ: «**إِذَا وُضِعَتِ الجَنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي. وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ لِأَهْلِهَا: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟! يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَ الإِنْسَانُ لَصُعِقَ**»[(٣)].

الخبرُ السادسُ: أنَّ لهم شأنًا أيضًا مختلفًا في قبورِهم.

فإنَّا سَمِعْنا هذا الطرفَ من أخبارِ جنائزِهم، فانظُروا ماذا قالَ نبيُّنا ﷺ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التمني، باب قوله ﷺ: ليت كذا وكذا، رقم (٧٢٣١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤١٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب كلام الميت على الجنازة، رقم (١٣٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خبرِ الصالحِين وهُم في قبورِهم، ونحنُ نحملُ هذه الجنازةَ فنضَعُها في قبرِها ونولِّي عنها، فإن كانَ صاحبُ هذه الجنازةِ رجلًا صالحًا قالَ نبيُّنا ﷺ: «المَيِّتُ تَحْضُرُهُ المَلَائِكَةُ»، وذلكَ بعدَ أن ذهَبْنا عنه وهو في قبرِه «فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، وَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ. فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، وَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ»[(١)].

هكَذا شأنُ الصالحين في قبورِهم، يتلطفُ معَه لصلاحِه الَّذي كانَ في الدنيا.

أمَّا الآخرةُ فحدِّثْ ما شئتَ أن تحدِّثَ، وإنْ شئتَ أن تكتفيَ بقولِ النبيِّ ﷺ فيما يرويهِ عن ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يَقُولُ الرَّبُّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ» أي: في الجَنَةِ «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، ثُم قالَ: «اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]»[(٢)]، هكذا شأنُ الصالحِين، وهذا شيءٌ من أخبارِ الصالحِين.

ثُمَّ صلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهدَى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ الكريمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابِه الكريم قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٤)، وابن ماجه: كتاب الوهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٠)

شعارُ الصالحين

تحدَّثْنا فيما مضَى عنِ الصالحِين، وحديثُنا الآنَ عَن شعارِ الصالحِين وهو الأدبِ وحُسنِ الخلقِ، فلا يتصوَّرُ أن يكونَ العبدُ صالحًا وهو بغيرِ أدبٍ وبغيرِ خلقٍ حسنٍ، ولا يتصوَّرُ أبدًا أَنْ ترى صالحًا يدَّعي الصلاحَ في نفسِه وهو سيِّئٌ في أخلاقِه، سيِّئٌ في خلقِه معَ والدِه، أو معَ والدتِه، أو معَ زوجتِه، أو معَ إخوانِه وأخواتِه، أو في بيعِه، أو في شرائِه، أو معَ جيرانِه.

وعمدةُ كلامِنا الآنَ هذا الحديثُ الخطيرُ العظيمُ الذي رواهُ أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قيلَ: يا رسولَ اللهِ: إنَّ فلانةَ تقومُ الليلَ وتصومُ النهار وتفعلُ وتَصَّدَّقُ، وتؤذِي جيرانَها بلسانِها، قالَ: «لَا خَيْرَ فِيهَا هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، قالوا: وفلانةُ تُصلِّي المكتوبةَ وتصَّدَّقُ بأثوارٍ -أي: بالأَقطِ وهو اللبنُ المجففُ- ولا تؤذي أحدًا، قال: «هِيَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» رواهُ البخاريُّ في كتابِه الأدب المفرد، وصحَّحَه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

تأمَّلْ هذا الحديثَ، فهذه المرأةُ عُرِفَت بقيامِ الليلِ نافلةً على الفريضةِ، وعُرِفَت بصيامِ النهارِ نافلةً على فريضةِ رمضانَ، وعُرِفَت بأفعالٍ كثيرةٍ، وعُرِفَت بصدقاتٍ، كحالِ البعضِ تراهُ دائمًا في الصفِّ الأولِ وهذا أمرٌ محمودٌ، وتراهُ دائمًا مصحفُه في يدِه وهذا أمرٌ محمودٌ، وتراهُ قائمًا في ليلِه صائمًا في نهارِه، ولكنَّه سيِّئٌ في خلقِه معَ الناسِ، إذا دخلَ بيتَه تعوَّذَ أهلُه مِن شرِّه، وإذا دخلَ في أحدِ المجالسِ أشارَ الناسُ إليه قالوا: جاءَ فلانٌ أعوذُ باللهِ، وهو مِن أهلِ الصفِّ الأولِ، وممَّن يحافظُ على قراءةِ القرآنِ، والسببُ أنَّه يُؤذِي الناسَ بأخلاقِه السيئةِ.

---

(١) الأدب المفرد رقم (١١٩)، وأخرجه أيضا أحمد (٢/ ٤٤٠).

وانظُرْ إلى النبيِّ الكريم ﷺ الَّذي امتدَحَه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بعدَ قسمٍ عظيمٍ في ﴿نٓ﴾ قالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، ومعَ ذلك يقولُ له ربُّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: حسُنَت وسهُلَت أخلاقُكَ ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

فكيفَ بي وبكَ ونحنُ نغترُّ ببعضِ الصالحاتِ نفعلُها ولا ننظرُ إلى الكفةِ الأخرى التي امتلأَتْ بسوءِ الخلقِ، كمَن هو سيِّئٌ في خلقِه في سوقِه، أو في الشارعِ، أو في قِيادَةِ سيَّارتِه، والناسُ ينظرونَ إليه ويقولونَ: ليسَ بصالحٍ، فهذا حالُه معَ أهلِ بيتِه، أو معَ أولادِه، أو معَ زوجتِه، أو معَ إخوانِه، أو معَ أخواتِه، فليسَ هذا بصالحٍ، وقد صدَقوا فليسَ هذا هو الصلاحَ الَّذي نريدُه.

ونبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمعَ بينَ هذين الشيئينِ للضرورةِ، وليُخبِرَنا أنَّ هناكَ فرقًا وتمايُزًا، قالَ: «إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ»[1]، فإنسانٌ ديِّنٌ بغيرِ خُلقٍ لا يصلحُ، فلا يغترَّ الناسُ بتديُّنِ المتديِّنِ بغيرِ أخلاقٍ، إذا باعَ أو اشتَرَى إذا هو غشاشٌ، وإذا تعامل فإذا هو يكذبُ، وإذا هو يتسلَّقُ على ظهورِ الآخَرين، حتَّى وإنْ لبسَ ثيابَ التديُّنِ والهُدى والصلاحِ، ويفرِي لسانُه في أعراضِ المؤمنين والمؤمناتِ.

وتدبَّرْ هذه القائمةَ الطويلةَ التي لو سرَدْتها ما انتهَيْنا، لكِنْ يُكتَفى ببعضِ الإشاراتِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، رقم (١٠٨٤)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب الأكفاء، رقم (١٩٦٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقولُ نبيُّنا ﷺ، وهو يبيِّنُ أنَّ حُسنَ الخلقِ مِن أكملِ وأعظمِ روابطِ الإيمانِ، يقولُ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»(١).

ويبيِّنُ أنَّ أقربَ الناسِ إليه في يومِ القيامةِ هم أحاسنُ الناسِ خلقًا، فيقولُ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا»(٢).

ويبيِّنُ أنَّ الميزانَ يومَ القيامةِ لا يثقلُ بشيءٍ مثل حسنِ الخلقِ، فيقولُ ﷺ: «مَا شَيْءٌ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ أَثْقَلُ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللهَ لَيَبْغَضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ»(٣).

لذا كانَ ﷺ -وكذا حالُ الصالحِين مِن بعدِه- يطلُبون هذه المرتبةَ وهذا المقامَ الرفيعَ، فكانَ إذا كبَّرَ في صلاتِه قرأَ في دعاءِ الاستفتاحِ، كما كانَ يقولُ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قامَ إلى الصلاةِ قالَ، وذكرَ الحديثَ الطويلَ المرويَّ في (صحيح مسلم)، وفيهِ: «وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ، فَإِنَّهُ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا فَإِنَّهُ لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»(٤)، ويقولُ كما جاءَ في (صحيح ابنِ حبانَ): «اللَّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي»(٥).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٦٨٢)، والترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم (٢٠١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٦)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم (٤٧٩٩)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم (٢٠٠٢)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧١).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٣)، وابن حبان رقم (٩٥٩)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويبيِّنُ لنا نبيُّنا ﷺ أنَّ أعظمَ مَطيةٍ يُمكنُ أن يركَبها المؤمنُ فيدركُ بها مَن سبقَه منَ الصائِمين القائِمين حسنُ الخُلقِ، فيقولُ في حديثِ أُمِّنا عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ»[(١)].

فحُسنُ الخلقِ كالدابةِ يركَبُها المؤمنُ فيدركُ بها -أي: بحُسنِ الخلقِ- درجةَ الصائِمين القائِمين، حتَّى وإنْ كانَ أقلَّهم صيامًا وقيامًا، وهكذا يُسألُ رسولُ اللهِ ﷺ: يا رسولَ اللهِ ما أكثرُ ما يدخلُ الناسَ الجنةَ، قالَ: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»[(٢)].

فإذا قرَأْت في أدبياتِ السلَفِ -رحمهم الله تعالى- تجِدُ أنَّهم يُؤكِّدون تأكيدًا جازمًا على حُسنِ الأدبِ، يقولُ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ هذا القرآنَ مَأدبةُ اللهِ تعالى فتَعلَّموا من مَأدبتِه[(٣)].

يَــزِينُ الفَتَــى إِذَا مَــا اقْــتَرَبْ ... ثَــلَاثٌ فَمِــنْهُنَّ حُسْــنُ الأَدَبْ

وَثَانِيــــهِ حُسْــــنُ أَخْلَاقِــــهِ ... وَثَالِثُــــهُ اجْتِنَــــابُ الرِّيَــــبْ[(٤)]

وهذا ابنُ المباركِ العلمُ العالمُ المجددُ الفقيهُ المجاهدُ يقولُ -رحمه الله تعالى- معَ سَعةِ علمِه واطلاعِه وفقهِه: نحنُ إلى قليلٍ منَ الأدبِ أحوجُ مِنَّا إلى كثيرٍ منَ العلمِ[(٥)]. وهذا كلامٌ عظيمٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم (٤٧٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٢)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم (٢٠٠٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم (٤٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (٦٠١٧)، والدرامي في السنن رقم (٣٣٥٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٣٠، رقم ٨٦٤٦).

(٤) انظر: الرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٧)، ونفح الطيب (٢/ ٣٥٥).

(٥) معجم ابن المقرئ رقم (٨٧١)، والرسالة القشيرية (٢/ ٤٤٧).

وإنَّك تصابُ بصدمةٍ حينما تَرى بعضَ طلبةِ العِلمِ وهم يَمشون في الناسِ بسيِّئِ الأخلاقِ، أو حينَما ترَى بعضَ مَن يلبسُ لِباسَ التديُّنِ والصلاحِ وهو سيِّئٌ في أخلاقِه، سواءٌ في المسجدِ، أو خارجَ المسجدِ، أو في سيارتِه.

وابنُ القيمِ -رحمه الله تعالى- يقولُ في كلامٍ نفيسٍ: وأدبُ المرءِ عنوانُ فلاحِه وسعادتِه، وقلةُ أدبِه عنوانُ شقاوتِه وبوارِه، وما استُجلِبَ خيرُ الدنيا والآخرةِ بمِثلِ الأدَبِ، وما استُجلِبَ حرمانُها بمِثلِ قلةِ الأدبِ[(١)].

وهذا مالكٌ -وما أدراكَ ما مالكٌ، إمامُ دارِ الهجرةِ رحمه الله تعالى- يقولُ لفتًى مِن قريشٍ يُوصيهِ: تعلَّمِ الأدبَ قبلَ العلمِ[(٢)]، فقَدْ كانَتْ أمِّي تُعمِّمُني -أي: تُلبِسُني العمامةَ- وتقولُ: اذهَبْ إلى ربيعةَ -ربيعةَ الرأيِ شيخِ مالكٍ- فتعلَّمْ مِن أدبِه قبلَ عِلمِه[(٣)].

هكذا كانَت فلسفةُ السلفِ -رحمهم الله تعالى-، تركيزٌ على شيءٍ هو أثقلُ ما يكونُ في الميزانِ وهو الأدبُ، وهاهنا الحسينُ بنُ إسماعيلَ يقولُ: سمعتُ أبي يقولُ: كُنَّا نجلسُ في مجلسِ أحمدَ بنِ حنبلٍ أكثرَ من خمسةِ آلافِ طالبٍ، أقلُّ مِن خَمسِ مِئةٍ يَكتبون العِلمَ، والباقي يَتعلَّمون من أدبِه وسَمْتِه[(٤)]. فهذِه جامعاتٌ تُخرِّجُ مَن تأدَّبَ وحسُنَ خلقُه.

إذَنْ فالأدبُ يرفعُ صاحبَه حتَّى وإنْ قصَّرَ به نسبُه، هكذا كانَتْ تقولُ العربُ: مَن قصَّرَ به نسبُه علا به أدَبُه، حتَّى نظَمَ بعضُهم قائلًا:

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٦٨).
(٢) غرائب مالك لابن المظفر رقم (٤٨)، وحلية الأولياء (٦/ ٣٣٠).
(٣) انظر: مسند الموطأ لأبي القاسم الجوهري (ص:٣٠٢)، وترتيب المدارك (١/ ١٣٠).
(٤) انظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص:٢٨٨).

كُنِ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسِبْ أَدَبًا ... يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ

لَيْسَ الجَمَالُ بِأَثْوَابٍ تُزَيِّنُنَا ... إِنَّ الجَمَالَ جَمَالُ العِلْمِ وَالأَدَبِ[1]

فحُسنُ الخلقِ والأدبُ شعارُ المؤمنِ الصالحِ.

والأدبُ وحسنُ الخلقِ نوعانِ:

- نوعٌ هبةٌ منَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فتجدُ الطفلَ يشِبُّ على ذلكَ دونَ تعليمٍ، مؤدَّبًا ذا خلقٍ.
- ونوعٌ يحتاجُ إلى كسبٍ وجَهدٍ ومَهارةٍ.

جاءَ وفدُ البحرينِ -وفدُ عبدِ القيسِ- وقدِموا على النبيِّ ﷺ تحمِلُهم هذه الرواحلُ منَ البحرينِ إلى المدينةِ، فلمَّا دخَلوا المدينةَ ورَأَوُا النبيَّ ﷺ هَرْوَلوا ناحيتَه مُسرِعين يُقبِّلون يدَيْه ورِجْليه، وبقِيَ في القافلةِ المنذرُ بنُ عائذٍ وهوَ زعيمُهم وأصغرُهم سِنًا، فعقَلَ الراحلةَ، وجمعَ المتاعَ، وعمَدَ إلى ماءٍ فاغتسلَ، ولبسَ أحسنَ ثيابِه، ونبيُّنا ﷺ ينظرُ، ثُمَّ أقبلَ على النبيِّ ﷺ آخِرًا فقبَّلَ يدَيْه، فقالَ له النبيُّ ﷺ -ولقَّبَه بأشجِّ عبدِ القيسِ-: «إِنَّ فِيكَ خُلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ وَالأَنَاةُ» قالَ: يا رسولَ اللهِ، أنا أَتخلَّقُ بهما، أَمِ اللهُ جبلَني عليهما؟ قال: «بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا»، قالَ: الحمدُ للهِ الَّذي جبلَني على خَلتَينِ يُحبُّهما اللهُ ورسولُه. رواه أبو داودَ في سُننه[2].

---

(١) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر: ديوانه (ص:١٦) جمع عبد العزيز الكرم. والبيت الأول نسبه في معجم الأدباء (٦/ ٢٧١٦)، والوافي بالوفيات (٢٦/ ٤١)، وبغية الوعاة (٢/ ٣٠٠) لأبي ربيعة النحوي.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قبلة الرجل، رقم (٥٢٢٥)، من حديث زارع العبدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنها ما هو مُكتسَبٌ فتحتاجُ أَنْ تجهدَ نفسَكَ وتُصَبِّرَها حتَّى تتعلمَ الخُلقَ الحسنَ والأدبَ، فإنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: «إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ».

ويقولُ ﷺ: «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ»[1]. بمعنَى أن الأدبَ وحُسنَ الخلقِ من الممكنِ أن يُكتسَبَ، ولكنَّكَ تحتاجُ أن تشمِّرَ عن ساعِدِ الجدِ، وتسعَى إليهِ سعيًا حثيثًا، وأمامَكَ قولُ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

هذا، وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ الكريمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائِلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٢٦٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٧٤)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٢٥٤)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١١)

الأدبُ معَ اللهِ

تحدَّثْنا فيما سبقَ عن شعارِ الصالحين وهو الأدبُ وحُسنُ الخلقِ، وبيَّنَّا أنَّ العبدَ إذا أساءَ في أدبِه وخلقِه مع مخلوقٍ مثلِه حكمَ عليه النبيُّ ﷺ بأنَّه لا خيرَ فيه، وأنَّه مِن أهلِ النارِ[١].

وحديثُنا الآنَ عنِ الأدبِ معَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسوفَ نبينُ كيفَ يكونُ حالُ العبدِ إذا أساءَ في أدبِه وخلقِه معَ اللهِ، فإذا كانَ حالُ مَن أساءَ الأدبَ والخُلقَ معَ مخلوقٍ مثلِه أنَّه مِن أهلِ النارِ، فكيفَ بمَن أساءَ الأدبَ والخلقَ معَ ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يقولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاءَ في (مسند أحمدَ): «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»[٢]، فرسالتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائمةٌ لتأكيدِ هذا الركنِ الأساسِ وهو أن يتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ.

إنَّ صورَ الأدبِ معَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كثيرةٌ، أُوجِزها في هذه الصورِ الأربعِ:

أولًا: إفرادُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعبادةِ وعدمُ الإشراكِ به.

ثانيًا: الإخلاصُ له في القصدِ والقولِ والعملِ.

ثالثًا: الاستسلامُ لأمرِه.

رابعًا: الاعترافُ بفضلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (١١٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٢٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصورةُ الأولى في حُسنِ الأدبِ معَ المولَى سبحانه: إفرادُه بالعبادةِ.

إنَّ إفرادَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالعبادةِ صورةٌ ناصعةٌ في حُسنِ الأدبِ معَ الربِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فلا تُصرَفُ عبادةٌ إلى غيرِ اللهِ، فمَن صرفَ عبادةً واحدةً إلى غيرِ اللهِ فقَدْ أساءَ الأدبَ معَ ربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ويقولُ سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ويقولُ سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، ويقولُ سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩].

وقَدِ التَفَتَ ﷺ إلى معاذٍ وكانَ رديفًا له فقالَ: «**يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟**» قالَ: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قالَ: «**أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟**» قالَ: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قالَ: «**أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ**»(١).

فإذا رأيتَ مخلوقًا مسكينًا ضعيفًا جاهلًا غبيًّا، يصرفُ نوعًا منَ العبادةِ إلى غيرِ اللهِ، فاعلَمْ أنَّه قد أساءَ الأدبَ معَ ربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا يحلفُ إلَّا باللهِ، ولا يَدعو إلَّا اللهَ، ولا يَذبحُ إلَّا للهِ، ولا ينذرُ إلَّا للهِ، نعَمْ قد تَدْلَهِمُّ عليك الخطوبُ، وتتعاظمُ عليكَ المصائبُ والبلايا، فيأتيك الجُهَّالُ منَ السحرةِ والمشعوذِين ويقولونَ: اذبَحْ لغيرِ اللهِ، وانذر لغيرِ اللهِ. فإنْ فعَلْت فقَدْ أسأتَ الأدبَ.

وهذا الَّذي لا يعرفُ إلَّا أن يحلفَ بغيرِ اللهِ، يقولُ: والنعمةِ، والكعبةِ المشرَّفةِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، رقم (٧٣٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم (٣٠).

ورأسِ أولادي، ودفنةِ المرحوم، وغَلَاك عندي، ورأسِك. فهذا سيِّئُ الأدبِ مع ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، استحقَّ بهذه الإساءةِ ما قاله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[1].

بَلْ هناكَ مَن يذهَبُ إلى أبعدَ مِن ذلك إذا أَرادَ أن يكذبَ يحلفُ باللهِ، فإذا أردْتَ أن تتحققَ ممَّا يقولُ تقولُ له: هَلْ تحلفُ برأسِ عيالِك؟ فيقولُ: لا. فرأسُ أولادِه عندَه أعظمُ منَ اللهِ، فيحلفُ باللهِ كاذبًا، ولا يحلفُ برأسِ أولادِه، ولا يحلفُ بدفنةِ المرحومِ، فهذا سيِّئُ الخُلقِ معَ ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الَّذي يدعو غيرَ اللهِ، كمَن يدعو شجرةً، أو قبرًا، أو حجارةً، أو مخلوقًا، ولقَدْ رأيتُ في إحدى الدولِ، في أمةٍ تنسبُ إلى أهلِ السُّنةِ، وهم يدخُلون على صاحبِ القبرِ في هيبةٍ وتقديسٍ، ويقبِّلون عتباتِ الدارِ وأبوابَها وما زُخرِفَت به تلكَ البناءاتُ، يَدْعون صاحبَ القبرِ ويَغفُلون عنِ اللهِ، كيفَ أساءَ هؤلاءِ؟! هؤلاءِ يَقرؤُون القرآنَ واللهُ يقولُ في كتابِه الكريمِ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦].

وهؤلاءِ كلُّهم درَسوا في يومٍ منَ الأيامِ حديثًا كانت تتناقلُه الألسنُ في مدارسِ التعليمِ، يقولُ ﷺ لابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[1]،

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٦٩)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ في كتابِه الذي نختمُه في كلِّ شهرٍ أو في كلِّ أسبوعٍ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، لا إذا دعا غيري. فهذه إساءةٌ في الأدبِ أيضًا.

الصورةُ الثانيةُ: إخلاصُ العملِ والقصدِ والقولُ له سبحانَه.

فلا تصِلْ لمخلوقٍ لتحصلَ منه على ثناءٍ وتمجيدٍ ومدحٍ، ولا تتصدَّقْ أو تفعَلِ الخيراتِ لأجلِ أن يُقالَ: فلانٌ مباركٌ بارٌّ. بَلِ اجعَلْ هذا العملَ للهِ سبحانه، وكلُّنا يقرَأُ في قصارِ السورِ قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورةِ البيِّنةِ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ لكِنْ بشرطٍ: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، فلا بُدَّ منَ الإخلاصِ، يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديثِ القُدسيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

وانظُروا هذا الحديثَ الَّذي كلَّما قرأَه راويهِ أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُغمِيَ عليه من شِدةِ وَقْعِه عليه، فقَدْ جاءَ في الحديثِ الطويلِ يقولُ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَنْزِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَقْضِيَ بَيْنَ العِبَادِ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يُدْعَى رَجُلٌ جَمَعَ القُرْآنَ وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِمَنْ جَمَعَ القُرْآنَ**» أي: لِمَن حفظَ القرآنَ وقرأَه في الناسِ: «**مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَقُومُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ**» أي: لم يكُنْ قصدُك القرآنَ، إنما كانَ قصدُك أن يُشارَ إليكَ بالبنانِ ويُقالَ: هذا حافظٌ، أو هذا مُجوِّدٌ. فلم تكُنْ تنظرُ إلى اللهِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنما كنتَ تنظرُ إلى ما يقولُه مخلوقٌ مثلُك، فلم تكُنْ مخلصًا «وَيُؤْتَى بِالَّذِي أَنْفَقَ الأَمْوَالَ، فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ، وَلَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّي. فَيَقُولُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ -كَرِيمٌ سَخِيٌّ- فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ. وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أُمِرْتُ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ اللهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ» قال أَبو هُريرةَ: ثُم ضربَ رسولُ اللهِ ﷺ على رُكبتي. وقالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

فإنَّهمُ استطاعوا أن يَخدَعوا المخلوقين، لكنَّهم لم يَستطيعوا أن يُمرِّروا هذا الخداعَ والكذِبَ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فشهدَ لهم المولى عَزَّوَجَلَّ بالكذبِ، وشهِدَت عليهمُ الملائكةُ وافتُضِحوا يومَ تُبلَى السرائرُ، فإذا أرَدْت أن تعملَ فمِن حُسنِ الأدبِ معَ اللهِ أَنْ تجعلَه للهِ.

الصورةُ الثالثةُ: الاستسلامُ لأمرِه، والاستسلامُ لشرعِه.

فإنَّه مِن سوءِ الأدبِ أَنْ يقولَ الإنسانُ للحُكمِ الشرعيِّ: لماذا؟ وقَدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥١-٥٢].

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة، رقم (٢٣٨٢).

فإذا قلتَ له: أنتَ رجلٌ قد حرَّمَ اللهُ عليكَ الذهبَ والحريرَ. قالَ لكَ: لماذا؟ ولا يقالُ لأحكامِ اللهِ: لماذا؟ قالَ نبيُّنا ﷺ: «الذَّهَبُ وَالحَرِيرُ حَلَالٌ لِإِنَاثِ أُمَّتِي حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِهَا»(١)، فانتهى الأمرُ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وإذا أرادَتِ امرأةٌ أن تخرجَ منَ البيتِ، فقيلَ لها: أَنْ تَستَعطري وتَخرُجي منَ البيتِ فهذا حرامٌ. فلا تقولُ: لماذا يضَعُه الرجالُ ونحن لا؟ فنبيُّنا ﷺ يقولُ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ»(٢)، فهذِه أحكامٌ شرعيةٌ ليسَ فيها (لماذا)، بَلْ فيها استِسْلامٌ لأمرِ اللهِ.

كذلكَ إذا أتَى رجلٌ امرأتَه في دبرِها، وقلتَ له: هذا حرامٌ. قال: هذه زَوْجتي، هذِه أمُّ عيالي، هذه حلالٌ. نقولُ: قالَ ﷺ: «مَنْ أَتَى حَائِضًا، أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»(٣).

إذَنِ الأمرُ خطيرٌ؛ لذا يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩٦)، وأبو داود: كتاب اللباس، باب في الحرير للنساء، رقم (٤٠٥٧)، والنسائي: كتاب الزينة، باب تحريم الذهب على الرِّجال، رقم (٥١٤٤)، وابن ماجه: كتاب اللباس، باب لبس الحرير والذهب للنساء، رقم (٣٥٩٥)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٤)، وأبو داود: كتاب الترجل، باب ما جاء في المرأة تتطيب للخروج، رقم (٤١٧٣)، والترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة، رقم (٢٧٨٦)، والنسائي: كتاب الزينة، باب ما يكره للنساء من الطيب، رقم (٥١٢٦)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٧٦)، وأبو داود: كتاب الطب، باب في الكاهن، رقم (٣٩٠٤)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض، رقم (١٣٥)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب النهي عن إتيان الحائض، رقم (٦٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، فهذا أدبٌ مَعَ اللهِ، واستسلامٌ لأمرِه، فلا يَسأَلْ؛ يقولُ سبحانَه: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

الصورة الرابعةُ: الاعترافُ بفضلِه ونِعمِه.

فما بنا مِن نعمةٍ فهيَ منَ اللهِ، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، فإذا تحقَّقَت لكَ نِعمةٌ فقُلْ: هيَ مِن عندِ اللهِ. ولا نحرِّفُ الكلامَ، ونقولَ: هذا بفضلِ تكاتُفِ الجميعِ، وبحِكمةِ الجميعِ، وقوتِنا وسلاحِنا وعقلِنا، أو هذا بفضلِ تصويتِ فلانٍ ودعمِ فلانٍ. فأينَ اللهُ إذَنْ؟! ليسَ منَ الأدبِ أن تَنسبَ الفضلَ الَّذي أنتَ فيه إلى غيرِ اللهِ، بل منَ الأدبِ أن تقولَ: اللهُ وحدَه.

وهذا سليمانُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لَمَّا أرادَ أَنْ يأتِيَه عرشُ بَلقيسَ الآنَ -وهو في فِلسطينَ والعرشُ في اليمَنِ- سخَّرَ اللهُ له مَن يقومُ على خِدمتِه، فأحضرَ له العرشَ في زمنٍ مُتَنَاهٍ، فلَمْ يقُلْ: أنا نبيٌّ وابنُ نبيٍّ، واللهُ أكرَمني بصلاحِي وتقوايَ وهُدايَ، وهذا فضلُ اللهِ على الصالحين من عبادِه. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ﴾ [النمل:٤٠].

فإذا تَعافَى مريضُك فقُلْ: بفضلِ اللهِ، وإذا حُفظَ أولادُك فقُلْ: بفضلِ اللهِ، وإذا سلِمْت منَ الآفاتِ والمصائبِ والبلاءاتِ فقُلْ: بفضلِ اللهِ.

وقَدْ آتَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ موسَى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قوةً، فسقَى للمرأتينِ ثُم تولَّى إلى الظلِّ، فلَمْ يفتخِرْ ولم يغترَّ، ولم يقُلْ أمامَ المرأتينِ: أغترُّ بقوَّتي وشجاعَتي ومروءَتي وعِفَّتي. بل تولَّى إلى الظلِّ وناجَى ربَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قائلًا، كما قالَ الحقُّ سبحانه: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] أي: أنتَ الَّذي أعطيتَني ومنَحْتني وأكرمتَني وأنا لا أزالُ مفتقِرًا إليكَ يا ربِّي.

وقَدْ صلَّى النبيُّ ﷺ صلاةَ الصبحِ بالحُديبيةِ على إِثْرِ سماءٍ كانت منَ الليلِ، وأرادَ أن يُربِّيَهم، فقالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ » قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ. فَذَاكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. فَذَاكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»(١).

والصورُ في ذلكَ كثيرةٌ، ولكنِّي أوجَزْتُها وجمعتُها في هذه الصورِ الأربَعِ.

ثُم صلُّوا وسلِّموا -رحمكمُ اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ الكريمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، رقم (٧١)، من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٢)

الأدبُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ

يُقْبِلُ المفاوِضون مِن قريشٍ على النبيِّ ﷺ، الرجلُ يَتلوهُ الرجُلُ، وكانَ مِن جُملةِ هؤلاءِ المفاوِضين في صُلحِ الحُديبيةِ عُروةُ بنُ مسعودٍ الثقفيُّ سيدٌ مِن ساداتِ ثقيفٍ رضِيَ اللهُ عَنه وأرضاهُ، فقَدْ كانَ قبلَ ذلك مشركًا، قدمَ على النبيِّ ﷺ فرآه بالحُديبيةِ، ورأَى حولَه رجالًا كالأُسْدِ، رأَى أدبًا جمًّا وتعظيمًا وتقديرًا لصاحبِ هذه الرسالةِ، فقالَ كلامًا روَتْه كتبُ الحديثِ، وطارَتْ بهِ كتبُ السيرةِ والتاريخِ، قالَ قولًا أصبحَ محفوظًا في القلوبِ وفي السطورِ، وهو يَرَى مِن تعظيمِ أصحابِ النبيِّ ﷺ لَهُ.

يقول رضِيَ اللهُ عَنه وأرضاهُ -وهو يصِفُ هذا المشهدُ الَّذي رآه في دقائقَ قليلةٍ-: فواللهِ ما تَنخَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ نُخامةً إلَّا وقَعَت في كفِّ رجلٍ منهُم فدلَك بها وجهَه وجلدَه، وإذا أمرَهُم بأمرٍ ابتدَروا أمرَه، وإذا توضَّأَ كادوا يقتَتِلون على وَضوئِه، وإذا تكلَّمَ خفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يحدُّون إليه النظرَ؛ تعظيمًا له.

فرجعَ عُروةُ إلى أصحابِه، فقالَ: أَيْ قومِ واللهِ لقَدْ وفَدْتُ على الملوكِ، ووفَدْت على قيصرَ وكسرَى والنجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ ملِكًا قطُّ يعظِّمُه أصحابُه ما يعظِّمُ أصحابُ محمدٍ ﷺ محمدًا[1].

وقَد كُنَّا تحدَّثْنا فيما سبقَ عنِ الأدبِ معَ الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وحديثُنا الآنَ عَنِ الأدبِ معَ النبيِّ ﷺ الَّذي أكرمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عبادَه ببعثتِه ﷺ، والَّذي امتنَّ الربُّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

تَبَارَكَ وَتَعَالَى ببُزوغِ شمسِ رسالتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذْ يقولُ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

هذا النبيُّ العظيمُ الَّذي أخذَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى العهودَ والمواثيقَ على الأنبياءِ والمرسَلين أَنْ إذا أدرَكْتم محمدًا أَتُؤمِنوا به وتَتَّبعوه، قالوا: نعَمْ. فأنزلَ المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تلكَ الآياتِ العظيمةَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

هذا النبيُّ الذي جعلَه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمانًا على رسالاتِ الأنبياءِ والمرسَلين مِن تحريفِ الأحبارِ والعلماءِ مِن تلكَ الدياناتِ السابقةِ، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦].

والآدابُ معَ رسولِ الله ﷺ كثيرةٌ، أذكرُ بعضًا منها:

الأدبُ الأولُ: الإيمانُ به ﷺ إيمانًا صادقًا برسالتِه وبمَنهجِه وبشريعتِه الَّتي أتَى بها.

فمَن لم يُؤمِنْ به ﷺ فهو لا يزالُ في دائرةِ الكفرِ، يقولُ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ

أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦].

ويقولُ سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾، أي: لا يقولون: نحنُ في رِيبةٍ مِن أمرِنا أيُّنا على الصوابِ نحنُ أهلُ السُّنةِ أوِ اليهودُ والنصارَى! ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥].

وقَدْ قالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[(١)].

وهاهُنا بُشرَى، فلنَفتَحْ لها القلوبَ، ولتَطِرْ بها الأرواحُ، فقد جاءَ في مسنَد أحمدَ من حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ إِخْوَانِي»، فقالَ لَهُ أصحابُه: أَوَليسَ نحنُ إخوانَك؟! قالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَلَكِنَّ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْنِي»[(٢)]، فاللهُمَّ ارْزُقْنا الإيمانَ بنبيِّك ﷺ، واجعَلْنا من إخوانِه الَّذين آمَنوا به وإن لم يَرَوْه.

الأدبُ الثاني: اتِّباعُه، والاستِسلامُ لرسالتِه، والانقيادُ لشرعِه ﷺ.

فلا يمكنُ أن يدَّعيَ إنسانٌ أنَّه تأدبَ معَ النبيِّ ﷺ وهو يَحيدُ عنِ اتِّباعِه، فمَنِ اتَّبعَ فلْيبشُرْ بالرحماتِ المتتالياتِ، وليبشُرْ بالفَلاحِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

إنَّ الذي يختارُ طريقًا غيرَ طريقِ النبيِّ ﷺ، أو يختارُ سبيلًا غيرَ سبيلِ النبيِّ ﷺ، أو منهجًا غيرَ منهجِ النبيِّ ﷺ فهُوَ على شَفا جرفٍ هارٍ قد يَهوِي به في نارِ جهنَّمَ، والَّذي يتحاكمُ إلى غيرِ شرعِ اللهِ الَّذي أتَى بهِ النبيُّ ﷺ، والَّذي يعملُ بغيرِ سُنَّتِه، ويتعاملُ في غيرِ معاملتِه ويتعبدُ في غيرِ عبادتِه، فإنَّه على شفا جُرفٍ هارٍ قد ينهارُ به في نارِ جهنَّمَ في أي وقتٍ، يقولُ الحقُّ سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

الأدبُ الثالثُ: محبتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فكَمْ هو حجمُ محبةِ النبيِّ ﷺ في قلبِكَ؟ فالقضيةُ ليسَتْ دعوَى أنْ تقولَ: عِشرون في المئةِ، أو ثلاثون في المئةِ، أو خمسون في المِئة. إنَّما القضيةُ قضيةُ عمَلٍ، وقضيةُ واقعٍ، وقضيةُ بَصمةٍ تضعُها في حياتِك تُنْبِئُ وتُخبرُ عن مقدارِ محبَّتِك للنبيِّ ﷺ، اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمَرَنا بمحبَّتِه، وهو ﷺ وضعَ ميزانَ الإيمانِ في مقابَلِ محبَّتِه، كما في (صحيح البُخاريِّ) قالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم (١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ، رقم (٤٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَدْ خرجَ النبيُّ ﷺ في يومٍ منَ الأيامِ -والحديثُ في البخاريِّ أيضًا- وهو آخذٌ بيدِ عمرَ، ووجدَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا القربَ منَ النبيِّ ﷺ، وهذه اللَّمسةَ الحانيةَ الصادقةَ الجازمةَ، وهذا الجسدَ الشريفَ بجانبِه، فإذا بالجوارحِ والأحاسيسِ والعواطفِ تتكلَّمُ، فيقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رَسولَ اللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن نَفْسي. أي: أحبُّ إليَّ مِن أولادي وزوجي ومالي وكلِّ شيءٍ إلَّا مِن نفسي، فقالَ ﷺ: «لَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فقالَ عمرُ: فإنَّه الآنَ، واللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ مِن نَفْسي[1].

فلمَّا وُجِّهَ عمرُ توجَّهَ في نفسِ اللحظةِ، ولم يقُلْ: أُرجِئُ الأمرَ حتى أقتنعَ، أو حتى أدرِّبَ نَفْسي، أو حتَّى أَرتقيَ في الإيمانِ، بَلْ قالَ: فإنَّه الآنَ لأنتَ أحبُّ إليَّ مِن نَفْسي. فاللهُمَّ املأْ قلوبَنا محبةً لنبيِّك ﷺ.

الأدبُ الرابعُ: الإكثارُ منَ الصلاةِ عليه ﷺ.

وهذا يترجِمُ ما تقدَّمَ، وهي سِمةٌ واحدةٌ وصِفةٌ واحدةٌ مِنَ الصفاتِ الَّتي تظهرُ صدقَ مُدَّعي الحبِّ والاتباعِ والإيمانِ، فمِنَ الآدابِ أَنْ تُكثرَ منَ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ، فهذا القلبُ وهذا اللسانُ، واللسانُ يغترفُ مِنَ القلبِ، فما في القلبِ يظهرُ على اللسانِ، فهذه القلوبُ كالقُدُورِ وهذه الألسنُ مَغارفُ تغرفُ ممَّا في القلوبِ، فإنْ كانَ المستحوِذُ على القلبِ بعدَ اللهِ رسولَ اللهِ، جاءَ ذِكرُه على اللسانِ في الكثرةِ بعدَ ذِكرِ اللهِ، وانظُرْ لنفسِك كَمْ تصلِّي على النبيِّ ﷺ في يومِك، في نهارِك، في ليلِك؟ وهل تحتاجُ حتَّى تصلِّيَ عليه أن تُذكَّرَ فتتذكَّرَ فتصلِّيَ، أم هو

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم (٦٦٣٢)، من حديث عبد الله بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هكذا تلقائِيًّا تجِدُ نفسَكَ تُكثرُ منَ الصلاة والسلام عليه ﷺ؟ وقَدْ أمَرَنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

وقَدْ رتَّبَ لَنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حوافزَ ومكافآتٍ وتشجيعًا لنصلِّيَ ونسلِّمَ عليه ﷺ، ويومَ الجُمعةِ وليلتُها هما المجالُ الأرحبُ للإكثارِ منَ الصلاة والسلام عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وانظُرْ نفسَك كَمْ مرَّةً صلَّيْت وسلَّمْت على النبيِّ ﷺ في يومِك، فإذا وجَدْت ندرةً فهذا دليلٌ على ما في قلبِك مِن محبةِ النبيِّ ﷺ، وقَدْ قالَ ﷺ: «أَكْثِرُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ، فَإِنَّ اللهَ وَكَلَ بِي مَلَكًا عِنْدَ قَبْرِي، فَإِذَا صَلَّى عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي، قَالَ لِي ذَلِكَ الْمَلَكُ: إِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ يُصَلِّي عَلَيْكَ السَّاعَةَ»[(١)].

فهَذَا ملَكٌ ليسَ له منَ العملِ إلَّا هذا العملُ المُوكَّل به، يَسمَعُه مِن أفواهِ الخلقِ كلِّهم، فإذا صلَّى رجلٌ في الغربِ، أو في الشرقِ، في الشمالِ، أو في الجنوبِ، أو صلَّى الخلائقُ كلُّهم في لحظةٍ واحدةٍ نقَلَ هذا الملَكُ هذه الصلاةَ باسمِ المصلِّي ووالِده وقالَ: «إِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ يُصَلِّي عَلَيْكَ السَّاعَةَ» لا يقولُ: صلَّى عليكَ قبلَ قليلٍ. بَلْ يقولُ: صلَّى عليكَ الساعةَ. وهذا من عظيمِ فضلِ الصلاةِ.

والآدابُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ كثيرةٌ، لكِنْ يَكفينا ما ذكَرْنا، فإنْ عمِلْنا بها فنحنُ منَ الراشِدين المُفلِحين.

---

(١) عزاه في اللآلئ المصنوعة (١/ ٢٦٠)، وكنز العمال (٢١٨١) للديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هذا، وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم اللهُ- على النبيِّ المصطَفَى والرسولِ المُجتبَى، كما أمرَ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكَريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١٣)

الأدبُ معَ القرآنِ الكريمِ

يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

وقد خصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كتابَه الكريمَ بعددٍ من الخصائصِ:

k منها: أنَّ المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلَه للعالَمين، فقالَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

k وجعلَه هدايةً للمتَّقين، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢].

k وجعلَه يَهدي للَّتي هي أقومُ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء:٩-١٠].

k وجعلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا القرآنَ شفاءً لما في الصدورِ منَ الأهواءِ والآفاتِ والشهواتِ، فقالَ سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

k وجعلَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحسنَ الحديثِ، فقالَ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

k وهو وصيةُ النبيِّ ﷺ، كما جاءَ في (صحيح ابنِ حبَّانَ) من حديثِ أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قلتُ: يا رسولَ الله أَوْصِني. قالَ: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الأَمْرِ كُلِّهِ» قلتُ: يا رسولَ اللهِ زِدْني. قالَ: «عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ القُرْآنِ وَذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الأَرْضِ وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ»[١].

k وجعلَه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَنْ أخذَ به قائدًا يقودُه إلى الجَنةِ، وجعلَه لِمَن يُلقيه خلفَ ظهرِه سائقًا يسوقُه إلى النيرانِ، كما جاءَ في حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في (صحيح ابنِ حبَّانَ) يقولُ ﷺ: «القُرْآنُ مُشَفَّعٌ ومَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ»[٢].

والقرآنُ لا تشبعُ منه القلوبُ الطاهرةُ، كما قالَ عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو طهَرَت قلوبُكم ما شبِعْتم من كلامِ ربِّكم[٣].

وهو من أعظمِ ما يُتقرَّبُ به إلى اللهِ، كما قالَ خبابُ بنُ الأرتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقَدْ قال: تقرَّبْ إلى الله ما استَطَعْت، فإنَّك لن تَتقربَ إلى اللهِ بشيءٍ أحبَّ إليه من كلامِه[٤].

وقد تحدَّثْنا فيما سبقَ عن جملةٍ من المسائلِ المتعلقةِ بالأدبِ، وكان من آخِرِها الأدبُ معَ اللهِ، والأدبُ مع رسولِه ﷺ، وحديثُنا الآنَ عن الأدبِ معَ كتابِ اللهِ، فإنَّ مَن يأخذُ بكتابِ اللهِ لا بُدَّ أن يعرفَ الآدابَ التي يَنبغي أن يأخُذَها تالي القرآنِ والعاملُ بالقرآنِ وحاملُ القرآنِ.

(١) أخرجه ابن حبان رقم (٣٦١).
(٢) أخرجه ابن حبان رقم (١٢٤).
(٣) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٦٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٠٠).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة رقم (٣٠٧٢٢)، وأحمد في الزهد رقم (١٩٢)، والحاكم (٢/ ٤٤١).

وهي آدابٌ كثيرةٌ، أَختصِرُها في بعضِ هذه الآدابِ:

الأدبُ الأوَّلُ: الاستمساكُ به والعملُ بما فيه، وعدمُ العدولِ عنه إلى غيرِه.

وهو من أعظمِ الآدابِ، وينبغي ألَّا يفوتَ على قارِئِ القرآنِ وحاملِ القرآنِ، فإنَّ من أعظمِ الآدابِ أن تَستمسِكَ أمةُ القرآنِ بالقرآنِ، فإذا استمسَكَت فهُناكَ النجاةُ والفلاحُ والرشادُ.

وما نراهُ في حالِ الأمةِ اليومَ من هوانٍ وضياعٍ وتيهٍ ما هو إلَّا لبعدِها عن كتابِ اللهِ، وجعلِها كتابَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خلفَها، نعَمْ هي تحضرُ كتابَ الله في مجالسِ العزاءِ وفي تأبينِ الموتَى، وتهتمُّ بكتابِ اللهِ في افتتاحِ الحفلاتِ والمهرجاناتِ وتوزيعِ الجوائزِ، فيقولُ القائلُ: هذِه آياتٌ من الذِّكرِ الحكيمِ يَتلوها فلانٌ، لكنَّك لا تجدُ ذلك فيما هو أعظمُ وأهمُّ، في سيرِ الأمةِ ومَنهجِها وسبيلِها، بل تجدُها تتخبَّطُ في كِتابٍ من الشرقِ وكِتابٍ من الغربِ تاركةً كتابَ الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خلفَ ظهرِها، فلا يمكنُ أن تُفلحَ الأمةُ.

وانظُروا إلى إرشادِ نبيِّنا ﷺ وهو يقولُ، كما جاءَ في حديثِ أَبي شُريحٍ الخزاعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا القُرْآنَ سَبَبٌ**» أي: حَبْلٌ «**طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**»[1].

فالأمةُ إذا استمسكَتْ بكتابِ اللهِ في التحاكمِ إليه والإقبالِ عليه، وإعزازِه، وإعزازِ أهلِه رشَدَت؛ لذا يقولُ الحقُّ سبحانه لنبيِّه ﷺ، والخطابُ للأُمةِ من بعدِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة رقم (٣٠٦٢٨)، وابن حبان رقم (١٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٨٨).

فيتحاكَمُ إلى كتابِ اللهِ لا إلى شريعةِ الشرقِ ولا إلى شريعةِ الغربِ، وما أضلَّنا ولا أضاعَنا إلَّا هذا الابْتِعَاد عن كتابِ ربِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ومعَ ذلكَ أقولُ: إنَّ فيكم يأيُّها المؤمنون وفي الأُمةِ خيرًا، فلا تزالُ مراكزُ تحفيظِ القرآنِ تتزايدُ في هذا البلدِ وفي غيرِه، وإنَّا لنطمعُ في اليومِ الَّذي نرى كتابَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في واقعِنا، وفي حُكمِنا، وفي قضائِنا، وفي تعليمِنا، وفي اقتصادِنا، وفي سياستِنا، وفي كلِّ شأنِنا.

الأدبُ الثاني: الإخلاصُ في تعليمِه وتعلُّمِه.

وذلك بالإخلاصِ في إقرائِه وقراءتِه، والإخلاصُ في تلاوتِه وتجويدِه، كما قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣].

وقد جاءَ في حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ الساعديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ أبي داودَ في (سننه) قال: خرجَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ يومًا ونحنُ نَقترِئُ -أي: مُجْتَمِعون على قراءةِ القرآنِ- فقالَ: «**اقْرَؤُوهُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَوَّمُ السَّهْمَ يَتَعَجَّلُ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُهُ**»[(١)] أي: سيأتِي زمانٌ يُتخذُ القرآنُ لسؤالِ الناسِ، ولَمَدِّ الأيدي، وللتكسُّبِ به، فاقرؤُوه قبلَ أن يأتيَ هذا الزمانُ، حينما ينعدمُ الإخلاصُ في قراءتِه وتعليمِه وتعلُّمِه.

الأدبُ الثالثُ: ألَّا يُقرَأ إلَّا على طهارةٍ.

وهذا هو الأدبُ السامي والأدبُ الرفيعُ، وإلَّا فيجوزُ أن تقرَأَ شيئًا منَ الآياتِ والسورِ عن ظهرِ قلبٍ بغيرِ وضوءٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٣٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة، رقم (٨٣١).

أمَّا إذا أرَدْت أن تقرَأَه من المصحفِ مباشرةً فلا بُدَّ أن تكونَ على طهارةٍ، كما ذَكَرَ ذلكَ جمهورُ العلماءِ ومنهمُ الأئمةُ الأربعةُ.

وأمَّا مَن كانَ جنبًا فلا يقرَأِ القرآنَ لا على ظهرِ قلبِه ولا منَ المصحفِ حتَّى يرفَعَ هذه الجنابةَ.

وأمَّا مَن قرَأ في جهازٍ محمولٍ أو ثابتٍ ليس بمصحفٍ، فله أن يقرَأَ إلَّا أن يكونَ جُنبًا.

الأدبُ الرابعُ: تطهيرُ الفمِ عندَ قراءتِه.

يقولُ ﷺ في حديثِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما جاءَ في (سنن ابنِ ماجَهْ) قالَ: «**إِنَّ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقٌ لِلْقُرْآنِ فَطَيِّبُوهَا بِالسِّوَاكِ**»[1]، فتطيَّبُ هذه الأفواهُ بأعظمِ ما يُتطيبُ به بهذا السواكِ.

الأدبُ الخامسُ: لا بدَّ أن يُجَلَّ القرآنُ ويرفعَ قدرُه.

فهو كلامُ اللهِ، فلا يدخلُ به في الأماكنِ المستقذَرةِ، ولا يوضعُ على الأرضِ، ولا يرتفعُ فوقَه، فإنَّ منِ انعدامِ الأدبِ أن يرتفعَ على القرآنِ، ولا تُمَدُّ نحوَه الأقدامُ؛ فإنْ كان قارئُ القرآنِ يُجَلُّ ويُحترَمُ، كما قالَ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِجْلَالَ حَامِلِ القُرْآنِ**»[2]، فالقُرآنُ أَوْلَى وأَجَلُّ.

وقد ذكَرْنا فيما سبَقَ من قبلُ ذاكَ الأثرَ الرائعَ لأبي حَنيفةَ -رحمه الله تعالى-

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطهارة، باب السواك، رقم (٢٩١).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم (٤٨٤٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقولُ: ما مدَدْت رجلي نحو دارِ أستاذي حمَّادٍ وبينَ دارِي ودارُه سبعُ سِككٍ[١]. هوَ قد عظَّمَ أستاذَه الَّذي علَّمَه القرآنَ فما يمدُّ رِجلَه نحوَ دارِه، وبينَ دارِه ودارِ حمادٍ سبعُ سكَكٍ، أتظَنُّون أن أبا حَنيفةَ يمُدُّ رِجلَه نحو القرآنِ كما يفعلُ بعضُ إخوانِنا، فهذا ليسَ منَ الأدبِ.

الأدبُ السادسُ: أن يَحرصَ المسلمُ وهو يقرَأُ القرآنَ على أَنْ يزيِّنَ صوتَه بالقرآنِ.

وتَزيينُ الصوتُ لا يُقصدُ به الألحانُ المطربةُ، ولكِنْ أن يتعلَّمَ مخارجَ الحروفِ، وأَنْ يعلمَ كيفَ يَتلُو القرآنَ، ويتدرَّبَ على ذلِك.

يقولُ ﷺ في حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»[٢].

ويقولُ ﷺ في حديثِ أبي لُبابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ**»[٣] أي: يزيِّنُ صوتَه بالقرآنِ، فإنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جعلَ ذلكَ منَ الآدابِ الرفيعةِ.

الأدبُ السابعُ: ألَّا ترفعَ به الأصواتُ إذا كنَّا في محضرِ غيرِنا ممَّنْ يقرَأُ.

وذَلِكَ لئلَّا يلتبسَ على القارئِ ما يقرَأُ عليه، يقولُ أبو سعيدٍ الخُدريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اعتَكفَ رسولُ الله ﷺ في المسجدِ، فسمِعَهم يَجهَرون بالقراءةِ، وهو في خِبائِه في

(١) انظر: الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١/ ١١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٣)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم (١٤٦٨)، والنسائي: كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت، رقم (١٠١٥)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب في حسن الصوت بالقرآن، رقم (١٣٤٢).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم (١٤٧١)، وأخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾، رقم (٧٥٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المسجدِ. أي: كلٌّ منهم يرفعُ صوتَه، وهذا يشوِّشُ على هذا، وهذا يشوِّشُ على هذا كما يحدُثُ من بعضِنا، فلم يَترُكْهم ولم يمنَعْهم، وإنَّما وجَّهَهم، قالَ: فكشفَ الستَرَ، وقال: «إِنَّ كُلَّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي القِرَاءَةِ»[1] فلم ينفِّرْهم منَ القراءةِ، ولكِنْ سدَّدَهم ووجَّهَهم.

فإذا جلَسْت تقرَأُ فلا تؤذِ مَن بجانبِك، فرُبَّما أنتَ تقرَأُ في سورةِ الكهفِ وهو يقرأُ في سورةِ آلِ عمرانَ فتلتبسُ عليه القراءةُ، فاقرَأْ في نفسِك، وإذا كنتَ بمُفردِكَ فأسمِعْ نفسَك.

قالَ ﷺ لأبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ وَأَنْتَ تَخْفِضُ مِنْ صَوْتِكَ»، قال: يا رسولَ الله إنِّي أسمَعْت مَن ناجَيْت. قالَ: «ارْفَعْ قَلِيلًا»، ثُمَّ قالَ لعُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ وَأَنْتَ تَرْفَعُ صَوْتَكَ»، قالَ: يا رسولَ اللهِ إنِّي أوقظُ الوسنانَ وأطردُ الشيطانَ. قالَ: «اخْفِضْ قَلِيلًا»[2].

إنَّه منهجُ الوسطِ لا إفراطَ ولا تفريطَ، وهَذا إذا كنتَ بمُفردِك، أمَّا إذا كنتَ في الناسِ فلا تُؤذِ الناسَ بما تَتلوه من صوتِكَ.

وإنِّي لأعجبُ من بعضِ الشبابِ الَّذي يؤذي الناسَ بغير القرآنِ! فإذا كان قد نهانا رسولُ الله ﷺ أن نرفعَ أصواتَنا بالقرآن فنُؤذيَ مَن بجانِبِنا، فكيفَ بهذا الَّذي يزعجُ الناسَ في الطرقاتِ بصوتِ الموسيقَى عندَه، ويُؤذي نفسَه ومَن بجانبِه،

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٩٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة، رقم (١٣٣٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة، رقم (١٣٢٩)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في القراءة بالليل، رقم (٤٤٧)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حتَّى إنَّ بعضَ الشبابِ ربَّما غسلَ سيارتَه عندَ البابِ ورَفَع صوتَ الموسِيقَى فأزعجَ الجيرانَ كلَّهم، فإذا كان قارئُ القرآنِ منهيًّا عن ذلكَ فكيفَ بصاحبِ مِزمارِ الشيطانِ؟! فلْيُنتبَهْ إلى ذلكَ.

والآدابُ كثيرةٌ وهي مُدوَّنةٌ في كتبِ أهلِ العلمِ يمكنُ الرجوعُ إليها، وقد قالها النبيُّ ﷺ فهِيَ ليست بالمسائلِ الهيِّنةِ حتَّى نغفلَها ونعرضَ عنها.

ثُم صلُّوا وسلِّموا -رحِمكم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ الكريمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١٤)

أدَبُ المساجِدِ

المساجدُ بيوتُ اللهِ، فيها يُعبدُ ويوحَّدُ، وفيها يُعظَّمُ ويمجَّدُ، وفيها يُركَعُ لله ويُسجَدُ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

والمساجدُ أحبُّ البلادِ والبقاعِ إلى اللهِ، كما أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَما قالَ: «أَحَبُّ البِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ البِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا»(١).

والمساجدُ أذِنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى برفعِها فقالَ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٦-٣٨].

وقد جعلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى للمساجدِ أوتادًا منَ المؤمنِين يَعمُرونها بالطاعاتِ والقرباتِ فقالَ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨].

والمساجدُ هي المحاضنُ التربويةُ الأُولى الَّتي تتخرجُ منها أفواجُ العلماءِ، وتنطلقُ مِن ساحاتِها وأفنيتِها كتائبُ الفاتِحين وقوافلُ المجاهِدين، كما قيل:

يَـا أُمَّتِـي وَجَـبَ الكِفَـاحْ ... فَـدَعِي التَّشَـدُّقَ وَالصِّـيَاحْ

لَا بُـدَّ مِـنْ صُـنْعِ الرِّجَـا ... لِ وَمِثْلُـهُ صُـنْعُ السِّـلَاحْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، رقم (٦٧١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَا يُصْـــنَعُ الأَبْطَـــالُ إِلْـــ ... لَا فِي مَسَـــاجِدِنَا الفِسَـــاحْ
فِي رَوْضَـــةِ القُـــرْآنِ فِي ... ظَـــلِّ الأَحَادِيـــثِ الصِّـــحَاحْ
شَـــعْبٌ بِغَـــيْرِ عَقِيـــدَةٍ ... وَرَقٌ تُذَرِّيـــهِ الرِّيَـــاحْ
مَـــنْ خَـــانَ حَـــيَّ عَـــلَى الفَـــلَا ... حِ يَخُـــونُ حَـــيَّ عَـــلَى الكِفَـــاحْ

حديثُنا الآنَ عن أدبِ المساجدِ، وهي متعدِّدةٌ، مِنها:

الأدبُ الأولُ: السعيُ في بنائِها، وتكثيرِها في الأماكنِ الَّتي تحتاجُ إليها، والاشتراكُ في بنائِها وتعميرِها.

وقَدْ جعلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يلحقُ المؤمنَ بعدَ موتِه بناءَ المساجدِ، فقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، وَمَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ**»[(١)].

ومنَ الممكنِ أن تدخلَ في بناءِ مساجدَ متعددةٍ، تساهمُ في هذا المسجدِ بعشَرةِ دنانيرَ، وتساهمُ في ذاك المسجدِ بخمسةِ دنانيرَ، وثالثٍ ورابعٍ وخامسٍ، وقَدْ جاءَ في (مسنَد أحمدَ) من حديثِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقولُ ﷺ: «**مَنْ بَنَى للهِ مَسْجِدًا وَلَوْ كَمِفْحَصِ قَطَاةٍ لِبَيْضِهَا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ**»[(٢)]، وليسَ مقدارُ هذا الفحصِ

(١) أخرجه ابن ماجه: مقدمة السنن، باب ثواب معلم الناس الخير، رقم (٢٤٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٤١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهذِه البيضةِ إلَّا قدرَ جبهتِك التي تسجدُ بها. أي: «مَنْ بَنَى للهِ مَسْجِدًا» ولو بهذا الحَجمِ -أي: ساهمَ فيه بحَجَر واحدٍ، أو بدينارٍ أو أكثرَ أو أقلَّ «بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ» فالمقابلُ كثيرٌ، وإن كانَ العملُ قليلًا يسيرًا.

وإنِّي أوجِّهُ المحسنِين في هذه الأيامِ لبناءِ المساجدِ في أوروبا، نعَمْ بعضُ بلادِ المسلمين تحتاجُ، ولكِنَّ المسلمين في بلادِهم منَ الممكِنِ أن يصلُّوا في أيِّ مكانٍ؛ لعِلمِهم بقولِ النبيِّ ﷺ: «أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ، فَقَدْ جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[(١)]، لكِنْ في أوروبا يحتاجُ الكثيرُ منَ المسلِمين هناكَ -خاصةً أوروبا الشرقيةَ- حاجةً شديدةً لبناءِ المساجدِ، ولا تستصعِبْ ذلك فبإِمْكانِك أن تدخلَ في شراكةٍ مع عِشرين من المساهمين تَبنون مسجدًا هناكَ، فإنَّ النبيَّ ﷺ حينما قال هذا الحديثَ إنما أرادَ أن يرغِّبَ الأمةَ في بناءِ المساجدِ وتكثيرِها.

وفي المقابلِ نجدُ التحذيرَ الشديدَ، وتقبيحَ هذا الفعلِ، فعلِ ذاكَ الذي يسعَى في خرابِ المساجدِ، وفي تعطيلِ المساجدِ عن رسالتِها، يقولُ الحقُّ سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤].

فاحذَرْ أن تكونَ لكَ مشاركةٌ، ولو كانت بِشورى أو رأيٍ أو اقتراحٍ تُغلِقُ فيه مسجدًا من مساجدِ المؤمِنين الَّتي فيها يُعبَدُ اللهُ ويُوحَّدُ.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والبخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾، رقم (٣٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد، رقم (٥٢٠)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا مساجـدُ الضرارِ فلا بُدَّ أن تغلقَ وتهدمَ وتكـسرَ، فهي هدَرٌ لا بدَّ من تهديمِها، فقد هدَّمَ النبيُّ ﷺ مسجدَ الضرارِ، وجعلَ مكانَه مكانًا تُرمَى فيه القمامةُ[١]، فلا يتورَّعِ الإنسانُ عن مساجدِ الضرارِ، وإنما الورعُ عن مساجدِ المؤمنين، فلا تُغلَقُ وتَمُرُّ عليها السِّنون وهي مغلقةٌ لا يُصلَّى فيها لا يُركعُ فيها، كلُّ ذلك لأمراضٍ نَفسيةٍ ومصالحَ شخصيةٍ.

الأدَبُ الثاني: أن تُنظَّفَ المساجدُ وتُطيَّبَ.

فقد جاءَ في (سنن أبي داودَ) من حديثِ أُمِّنَا عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ: أمـرَ رسولُ اللهِ ﷺ ببناءِ المساجدِ في الدُّورِ -أي: في الضواحي والقُرى- وأن تُنظَّفَ وتُطيَّبَ[٢].

واسأَلوا القائمين على المساجدِ بعد انتهاءِ صلاةِ الجمعةِ ماذا يَجِدون! فتنظيفُ المساجدِ هو أدَبٌ رفيعٌ، وتقذيرُها خُلقٌ وَضِيعٌ، فهناكَ مَن يُقذِّرُ المساجدَ، ولا يتأدَّبُ بهذا الأدبِ، فإذا نُهيَ عن ذلك قال: يوجدُ عمالٌ في المسجدِ لتَنظيفِه. فنقولُ: سبحانَ اللهِ! هم ينظِّفون وأنت تُقذِّرُ!

وقدِ افتقدَ رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ امرأةً سوداءَ كانت تُنظِّفُ المسجدَ، فلم يَرَها، لم يفتقِدْ شخصَها، وإنما افتقدَ أثرَها، وهو نظافةُ المسجدِ، فقالَ: «**أَيْنَ فُلَانَةُ؟**» قالوا: يا رسولَ اللهِ ماتَت. قال: «**فَهَلَّا آذَنْتُمُونِي؟**» أي: أخبرتُموني لأصلِّيَ عليها، قالوا: كرِهْنا أن نُوقظَك يا رسولَ اللهِ في ساعةٍ متأخرةٍ من الليلِ، قالَ: «**دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا**»

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٣٠)، وتفسير الطبري (١٤/ ٤٧٣- ٤٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٩)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب اتخاذ المساجد في الدور، رقم (٤٥٥)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما ذكر في تطييب المساجد، رقم (٥٩٤)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب تطهير المساجد وتطييبها، رقم (٧٥٨).

فأتَى على قبرِها وصلَّى عليها وهي في قبرِها[١] تَكْرِمَةً لها؛ لهذا الفعلِ الرائدِ الذي قد يَحتقرُه البعضُ، بَلْ يحتقِرُ أن يُتكلمَ عن ذلكَ على أعوادِ المنابرِ.

الأدبُ الثالثُ: لا تُنشَدُ الضَّالةُ في المسجدِ.

فمَن ضاعَ هاتفُه، أو مِفتاحُه، أو غرَضُه، فلا يجوزُ له أن يقومَ في المسجدِ ويقولَ: فُقِدَ لي هاتفٌ أو مِفتاحٌ فهَلْ وجدَه أحدٌ؟ ولكِن يأتي إلى إمامِ المسجدِ أو المؤذِّنِ أو القيِّمِ ويسألُه؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ، كما جاءَ في (صحيح مسلم): «مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي المَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ المَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا»[٢].

الأدبُ الرابعُ: لا يُباعُ فيها ولا يُشترَى.

فالمساجدُ ليسَتْ مكانًا لعقدِ الصفقاتِ، وإنما يخرجُ خارجَ المسجدِ ويباعُ ويُشترَى، حتَّى وإن كانَ المبيعُ كتابًا إسلاميًّا، أو شريطًا إسلاميًّا، حتَّى وإن كان المبيعُ ماءَ زمزمَ فلا يُباعُ في المسجدِ ولا يُشترَى؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: «إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي المَسْجِدِ فَقُولُوا: لَا أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ»[٣].

الأدبُ الخامسُ: لا تُزخرفُ المساجدُ، ولا يُبالغُ في بنائِها.

فإنَّها إنما تُعمَرُ المساجدُ بعُمَّارِها من الذاكِرين، ولا تُعمَرُ بالتلوين والزوايا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر بعد ما يدفن، رقم (١٣٣٧)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، رقم (٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد، رقم (٥٦٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد، رقم (١٣٢١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمُنحنياتِ والثُّرَيَّاتِ والنافوراتِ، وأطولِ مِئذنةٍ في العالَمِ، وأكبرِ سَجادةٍ في العالمِ، فهذا كلُّه ترفٌ وزخرفةٌ نهى النبيُّ ﷺ عنها.

فلمَّا زَخرَفتِ الأمةُ مساجدَها تأخَّرَت، ولَمَّا كانت تصلِّي في الطينِ فتَحَت العالمَ، وليسَ المقصودُ بذلك إهمالَ المساجدِ، ولكِنْ لا يُبالغُ فيها، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي المَسَاجِدِ»[1]، كأَنْ يقولَ هذا: عندَنا أكبرُ مسجدٍ في الشرقِ الأوسطِ. فيقولُ الآخرُ: مئذنةُ مسجدِنا أطولُ مِئذنةٍ في الشرقِ الأوسطِ. وثالثٌ يَتباهى بسجادتِه.

والغريبُ أن هذه المساجدَ لا تجِدُ فيها مصلِّيًا، ورُبما لا يَتعدَّى عددُ المصلِّين فيها صفًّا أو صفَّيْن، وإذا قمتَ بزيارتِها ونظرْتَ إليها، وجَدْتَها مساجدَ أُسِّسَت لتكونَ معالِمَ سياحيةً ترِدُ عليها الوفودُ الكافرةُ، وهذا منَ الخطأ الكبيرِ.

قالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما أمرَ ببناءِ المسجدِ، كما جاءَ في (صحيح البخاريِّ): أَكِنَّ الناسَ من المطرِ، وإيَّاكَ أن تحمِّرَ أو تصفِّرَ فتَفتِنَ الناسَ. أي: دَعْ عنكَ هذه الألوانَ. فحتَّى الألوانُ حذَّرَ منها عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذا قال أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَتباهون بها ثُم لا يَعمُرونها إلَّا قليلًا.

وقالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لتُزَخْرِفُنَّها كما زخَرَفَتِ اليهودُ والنصارَى[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد، رقم (٤٤٩)، والنسائي: كتاب المساجد، باب المباهاة في المساجد، رقم (٦٨٩)، وابن ماجه: كتاب المساجد، باب تشييد المساجد، رقم (٧٣٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الآثار الثلاثة علقها البخاري: كتاب الصلاة، باب بنيان المسجد، (١/ ٩٦).

الأدَبُ السادسُ: أن يَتجنَّبَها الجنبُ والحائضُ والسكرانُ.

فلا يحلُّ لهم البقاءُ في المسجدِ، وهنا أُنبِّهُ على أنَّ بعضَ مجالسِ العزاءِ تَكونُ في فناءِ المسجدِ الداخليِّ، فيأتِي المعزِّي ليعزِّيَ وهو سَكرانُ أو جُنُبٌ، أو رُبما تأتِي المرأةُ الحائضُ، وكلُّ ذلك منهيٌّ عنه، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾ [النساء:٤٣]. وهذا أدَبٌ لا بُدَّ مِن أن نَتنبهَ إليه.

هذا، وصلُّوا وسلِّموا -رحِمكم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ الكريمُ في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• ● k ● •

(١٥)

حقائقُ للتذكيرِ

نقِفُ الآنَ على بعضِ الحقائقِ الَّتي نحتاجُ أن نَتذكَّرَها بينَ الفَينةِ والأُخرى، فإنَّ بعضَ الحقائقِ أحيانًا تغيبُ عن عقولِنا وأذهانِنا، فنحتاجُ بينَ فترةٍ وأخرى أن يُذكِّرَ بعضُنا بعضًا بها.

وقد درجَ على ذلكَ نبيُّنا ﷺ أن يُذكِّرَ ببعضِ الحقائقِ الغائبةِ، وكذا سارَ على هذا المنهجِ خلفاؤُه الراشِدون.

فنَقرَأُ في حديثِه ﷺ المَرويِّ عندَ أبي داودَ في (سُننه) أنَّه قالَ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[1]، أرادَ ﷺ أن يغرسَ حقيقةَ: أنَّه لا عزَّ لهذِه الأمةِ إلَّا بالجهادِ في سبيلِ اللهِ، ولا عزَّ لهذِه الأمةِ إلَّا أن تتمسَّكَ بالدِّينِ كلِّه لا بأهدابِ الدينِ ولا بأجزاءٍ من الدينِ.

وعلى هذا الدربِ سارَ الخلفاءُ الراشِدون، فهاهو عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا توجَّهَ إلى الشامِ فاتحًا ذهبَ على حقيقتِه دونَ أن يتصنَّعَ أو يتكلَّفَ، أو يلبسَ لِباسًا ليسَ له، بل ذهبَ كما هوَ، فلمَّا اقتربَ من بيتِ المقدسِ، كان قد حملَ حذاءَه على عاتقِه، ومشَى حافيًا يخوضُ في الماءِ وباليدِ الأُخرى زمامُ ناقتِه، فيتلقَّاه والي الشامِ أبو عُبيدةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيقولُ له: يا عمرُ لو غيَّرْتَ من هيئتِك قليلًا، أهلُ المدينةِ يرونَك ويستشرفونَك،

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، رقم (٣٤٦٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فيقولونَ في أنفسِهم: هذا وليُّ أمرِ المسلِمين! فالتفَتَ إليه عمرُ وقالَ: لو غيرُكَ قالها يا أبا عُبيدةَ، لجعَلْتُه نكالًا لأمةِ محمدٍ ﷺ. ثُم قالَ كلمتَه الشهيرةَ الَّتي هي حقيقةٌ، قالَ: يا أبا عُبيدةَ إنَّا كُنَّا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا اللهُ بالإسلامِ، فمَهْما نَطلُبِ العزَّةَ بغيرِ ما أعزَّنا اللهُ به أذلَّنا اللهُ[1].

فمَنْ أرادَ من هذِه الأمةِ مِن صُنَّاعِ القرارِ وغيرِهم العزةَ، فلا يبحَثْ عنها في غيرِ الإسلامِ، فقدَّرَ اللهُ في هذه الأُمةِ أنَّ عزَّها في دينِها في إسلامِها، فإنْ تخلَّتْ عن دينِها وإسلامِها فلا عزَّ أبدًا، بل صَغارٌ وذُلٌّ، عياذًا باللهِ.

لذا نَحتاجُ أن نَتذكَّرَ بعضَ الحقائقِ، وقد يَكونُ الجميعُ يعلمُ هذه الحقائقَ، بَيدَ أنَّ العِلمَ بالشيءِ، يختلفُ عن العملِ به:

الحقيقةُ الأُولى: أنَّ الناسَ في الميزانِ اثنانِ.

فهُم عندَ اللهِ اثنانِ، وفي أرضِ المحشرِ اثنانِ، وفي الواقعِ اثنانِ: مؤمنٌ وكافرٌ، برٌّ وفاجرٌ، سعيدٌ وشقيٌّ، ليسَ هناك ثالثٌ، أي: إمَّا أن تكونَ تحتَ رايةِ الإيمانِ، أو أن تكونَ تحتَ رايةِ الكفرِ، فليسَ هناكَ رايةٌ ثالثةٌ ولا صنفٌ ثالثٌ.

ودونَك كتابُ اللهِ، يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن:٢]، ويقولُ سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٥-١٠٨].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد رقم (٥٨٤)، وأبو داود في الزهد رقم (٦٦)، والحاكم (١/ ٦١).

كذلكَ أيضًا في جنسِ المكلَّفين من الجنِّ يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما قالت الجِنُّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٤-١٥].

ونبيُّنا ﷺ لَمَّا ذكرَ حديثَ الفتنِ الطويلَ، قالَ في جملةِ ما قالَ: «حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ: فُسْطَاطُ إِيمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ، وَفُسْطَاطُ نِفَاقٍ لَا إِيمَانَ فِيهِ»[1].

فهي حقيقةٌ واحدةٌ تجدُها في كتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وما أعظمَ تلكَ الآياتِ التي كلَّما قرأَها الإنسانُ شعرَ أنَّها تنزلُ في وقتِه! إنَّها الآياتُ العظيمةُ في سورةِ الأنفالِ، قالَ سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ لماذا؟ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ اثنانِ ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦-٣٧].

فإنْ قالَ قائلٌ، وحُقَّ له أَنْ يَقولَ: هذا إيمانٌ وهذا كفرٌ، فأينَ المنافقون؟

قُلنا: اقرأْ في سورةِ النساءِ قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، واقرأْ في سورةِ التوبةِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٨٤].

الحقيقةُ الثانيةُ: لا ولاءَ للكافِرين أبدًا.

وما وقَعْنا في هذا الذلِّ وهذه المهانةِ إلَّا حينَما ارتَمَى المسلمون في أحضانِ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٣)، وأبو داود: كتاب الفتن، باب ذكر الفتن، رقم (٤٢٤٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الكافِرين، حُبًّا وتأييدًا ونُصرةً، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٤٤]، فانظُرْ كَمْ مِن قرنٍ مرَّ على هذه الآيةِ والأُمةُ تقرؤُها.

وقَدْ ذكرَ لنا ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى القدواتِ مِن إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومَن تبِعَه، فقالَ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٦٠].

وفي سُورةِ الممتحنةِ يبيِّنُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ الذي يُوالي الكافِرين ويَرتَمي في أحضانِهم ويَرضاهُم ويرضَى بمشورتِهم ويقرِّبُهم إليهِ، أن بوْصَلتَه تختلفُ فلا تَهتدِي أبدًا، ولا بُدَّ أن يضلَّ السبيلَ، وما هذا التخبُّطُ الذي نَراهُ إلَّا لهذا الولاءِ الكبيرِ للكافِرين منَ اليهودِ والنصارَى وغيرِهم.

فيقولُ الحقُّ في صدرِ سُورةِ الممتحنةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِىۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، فهناكَ مَن يعملُ في الخفاءِ، وأحيانًا يتبجَّحُ ويُجاهرُ ويعملُ في العَلانيةِ، لكِنَّ هؤلاءِ الَّذين يعمَلون في الخفاءِ أيديهم في أيدِي الكافِرين ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ النتيجةُ: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١] أي: لا يُمكنُ أَنْ يهتدِيَ أبدًا.

ويقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورةِ المائدةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١]، أي: يضلُّ السبيلَ

ويَكونُ منهم، ولا يحقِّقُ المشروطَ الَّذي ذكَرَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حينَما قالَ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٨١].

الحقيقةُ الثالثةُ: أنَّ قِتالَ الكُفَّار للمُسْلِمين سببُهُ تَمسُّكُهُم بدِينِهِم.

ولا يُمكنُ أن يَكونَ بسببِ شيءٍ آخرَ، فهذه الحروبُ وهذا القتلُ إنَّما هو لأهلِ الدينِ، وليسَ لأيِّ دِينٍ، بَلْ لدِينِ الإسلامِ، وليسَ الإسلامَ المزوَّرَ، ولكِنْ إسلامَ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكَّدَ هذه الحقيقةَ في كتابِه الكريمِ، قالَ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

فالقضيةُ قضيةُ دينٍ، يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]، ويقولُ سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

والأمةُ إذا لم تَعُدْ إلى كتابِ ربِّها وتلتزِمْ بمنهَجِ نبيِّها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تَقدُّمَ لها ولا نهضةَ.

الحقيقةُ الرابعةُ: أنَّ هذه الأمةَ لا تُنصرُ ولا يُمكَّنُ لها إلَّا إذا رفَعَت رايةَ الإسلامِ.

أمَّا إذا رفَعَت راياتٍ أخرَ: كرايةِ القوميةِ، أو رايةِ الحزبيةِ، أو رايةِ البَعثيةِ، أو رايةِ كذا وكذا، فلا تحقِّقُ النصرَ، والإسلامُ الحقُّ هو الذي لا يُبنَى على المصالحِ،

ولا يَتسلقُ على جِراحِ الآخَرين، يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

وقَدْ جاءَ في (صحيح مسلم) أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ اليَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، فَيَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولَ الحَجَرُ وَالشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللهِ» لا ينادِيه بغيرِ هذَينِ الاسمينِ، «هَذا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا شَجَرَ الغَرْقَدِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ»[1].

فلا يُعزُّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هذه الأُمةَ إلَّا إذا استَمْسَكت بالإسلامِ الحقِّ.

والحقائقُ كثيرةٌ، ولكِنْ تحتاجُ مَن يَتأمَّلُها ويتدبَّرُها، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزَلَ كتابَه لنَتدبَّرَ ونتأمَّلَ هذه الحقائقَ.

هذا، وصلُّوا وسلِّموا -رحِمكم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، رقم (٢٩٢٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٦)

أدبُ الساجدِ

أوجبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عبادِه الصلاةَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، وجعلَها من أهمِّ فروضِ الإسلامِ، كذا أخبرَ نبيُّنا ﷺ حينما أَوْصى معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يوجهُه إلى اليمنِ؛ قال: «فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»(١).

ثُم إنَّ العبرةَ ليست في أداءِ الصلاةِ؛ ولكنَّ العبرةَ أن يأتيَ بها صاحبُها صالحةً منَ الآفاتِ، كما أخبرَ نبيُّنا ﷺ حينما قالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ بِصَلَاتِهِ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»(٢).

كذلكَ العبرةُ ليست في أداءِ الصلاة بحسبِ ما يَظْهرُ للأذهانِ والأمزجةِ، بلِ العبرةُ أن تؤدَّى هذه الصلاةُ وأن تجعلَ على سلَّمِ الأولوياتِ، ويُحافظَ عليها صاحبُها.

فقد ذكَرَ نبيُّنا ﷺ الصلاةَ يومًا فقالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَبُرْهَانٌ وَنَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ» رواه أحمدُ في مسندِه من حديثِ عبدِ الله بنِ عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، رقم (٤١٣)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة، رقم (٤٦٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩).

إنَّ آدابَ الساجدِ متعددةٌ، منها:

الأدبُ الأولُ: الاستعدادُ للصلاةِ.

وذَلِكَ بأنْ يَستعِدَّ المسلمُ استعدادًا نفسيًّا، واستعدادًا معنويًّا، واستعدادًا حسيًّا، وحينما تقرَأُ في كتبِ الفقهِ وما جاءَ فيما يتعلقُ بالصلاةِ تجدُ أولَ ما يبدَأُ به أن يستعدَّ الإنسانُ للصلاةِ.

وقد امتدحَ نبيُّنا ﷺ ذاكَ الرجلَ الموعودَ بظلِّ تحتَ العرشِ؛ قال: «**رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ**»[(١)]؛ وذلك لأنه في حالةِ استعدادٍ دائمٍ.

k ومن صورِ الاستعدادِ للصلاةِ: أن يُحسنَ وضوءَها؛ فإنَّ نبيَّنا ﷺ قالَ كما جاءَ في (سنن أبي داودَ): «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ، وَلَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ**»[(٢)].

ورغَّبَ ﷺ في إحسانِ الوضوءِ؛ فهذا عقبةُ بنُ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدخلُ على النبيِّ ﷺ وهو يحدثُ أصحابَه -يحدِّثُهم بمثلِ هذه الأحاديثِ وهو يؤسِّسُ لدولةِ الإسلامِ؛ لأنَّ بعضَ الناسِ قد يقولُ: الأمةُ تفتنُ اليومَ وتنتهكُ وتضيعُ ونحنُ نتحدثُ عن آدابِ الساجدِ، أقولُ: لم يحصُلْ لنا ما حصلَ إلَّا حينَما ضيَّعْنا هذه الآدابَ، وضيَّعْنا هذه العَلاقةَ الوطيدةَ بين العبدِ وربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٨)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب في التسمية على الوضوء، رقم (١٠١)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في التسمية في الوضوء، رقم (٣٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا بعُقبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلتقِطُ شيئًا منَ الحديثِ، ويستمعُ إلى النبيِّ ﷺ وهو يقولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»، فلم يتمالَكْ عقبةُ نفسَه وإذا به يقولُ بكلامٍ مسموعٍ: ما أجودَ هذا! فإذا قائلٌ يقولُ بين يديه: التي قبلَها أجودُ منها -أي: لقد قال كلامًا قبلَ أن تأتيَ أجودَ من هذا- قال عقبةُ: فالتفتُّ فإذا عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإذا هو القائلُ، قال: لقَدْ قال آنفًا -أي: قبلَ مجيئِكَ-: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[(١)].

فهذا استعدادٌ لهذه الصلةِ العظيمةِ بينَه وبينَ خالقِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يتوضَّأُ فحسبُ بَلْ يُحَسِّنُ الوضوءَ، ويرددُ هذه الأذكارَ بعدَ وضوئِه.

وانظُرْ ماذا له من الأجرِ، في الأُولى قال ﷺ: «وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»، وفي الثانيةِ قال ﷺ: «فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ».

k ومن صورِ الاستعدادِ أيضًا: الترديدُ معَ المؤذنِ، فقد قالَ رسولُ الله ﷺ كما جاءَ في (صحيح البخاريِّ): «إِذَا سَمِعْتُمُ النِّدَاءَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ»[(٢)]، وفي (مسند أحمدَ) قالَ ﷺ: «الدُّعَاءُ لَا يُرَدُّ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ، فَادْعُوا»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٣)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب ما يقول الرجل إذا توضأ، رقم (١٦٩)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول إذا سمع المنادي، رقم (٦١١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن، رقم (٣٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الدعاء بين الأذان والإقامة، رقم (٥٢١)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في أن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة، رقم (٢١٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فانظُرْ إلى هذه التهيئةِ، قبلَ أن يدخلَ هذا الساجدُ إلى هذِه العبادةِ يتهيأُ نفسيًّا قبلَ أيِّ شيءٍ.

الأدبُ الثاني: أن يذهبَ إلى الصلاةِ في حالِ وقارٍ وسكينةٍ وطمأنينةٍ.

لا كما نفعلُ نحنُ اليومَ لا نذهبُ إلَّا في اللحظاتِ الأخيرةِ، ولا نبدأُ الاستعدادَ لها إلَّا بعدَ أن نسمعَ الإقامةَ، فتجدُ مَن يركضُ إلى الصلاةِ، ويستعجلُ بسيارتِه إلى الصلاةِ.

ونبيُّنا ﷺ لَمَّا أرشدَنا إلى السكينةِ لم يكُنْ كلامُه عبثًا، فلا يتصورُ أن يقولَ كلامًا تحصيلَ حاصلٍ، بل يقولُ وحيًا أوحاهُ اللهُ إليه، وقد قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاءَ عند البخاريِّ ومسلمٍ، وهذه الروايةُ روايةُ الترمذيِّ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ بِالصَّلَاةِ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ، وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**»(١).

فمطلبٌ رئيسٌ في قدومِك إلى المسجدِ أن تكونَ في سكينةٍ، وكم تسمعُ وأنتَ راكعٌ في الصلاةِ هذا الدويَّ خلفَكَ، لا تدري هي أقدامُ آدميٍّ أو ماذا؟

وربما مِن شدةِ سرعتِه تدخلُ نعالُه إلى المسجدِ قبلَه! فكيفَ يصلِّي هذا الإنسانُ؟! وكيفَ يكونُ خاشعًا في صلاتِه؟!

الأدبُ الثالثُ: أن يذهبَ في زينتِه.

فقَدْ قال اللهُ تعالى: ﴿**يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا**

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة، رقم (٩٠٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٢)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في المشي إلى المسجد، رقم (٣٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١] أي: أن يأخذَ كاملَ زينتِه، وأجملَ ما يجدُ، ويتزينُ إلى الصلاةِ، وهذا أدبٌ أرشدَ إليه المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سواءٌ صلَّيْت في المسجدِ أو في غيرِه منَ البقاعِ.

الأدبُ الرابعُ: ألَّا يؤذيَ أحدًا ببدنِه، أو بلسانِه، أو برائحتِه.

فإنَّ من أعظمِ الآدابِ ألَّا تؤذيَ أحدًا، لا على بابِ المسجدِ، ولا بسيارتِك فتغلقُ الطريقَ على الناسِ، أو على جيرانِ المسجدِ، فبعضُ جيرانِ المسجدِ يشتكي ويقولُ: يقفُ بعضُ الإخوةِ على أبوابِ البيوتِ فلا نَستطِيعُ الخُروجَ، أو كما يفعلُ بعضُ الإخوةِ على الطريقِ العامِّ حيثُ يُغلقون الطريقَ، فهذا كلُّه من الإيذاءِ.

أضِفْ إلى ذلك هذا الذي يأتي إلى المسجدِ وقد أمرَه النبيُّ ﷺ أن يقعدَ في بيتِه، ممَّا سبَّبَ للناس منَ الأذى، قالَ: «مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا» أو قالَ: «فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ» هذه روايةُ البخاريِّ[(١)]. وفي روايةِ مسلمٍ يقولُ ﷺ: «فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»[(٢)].

فإنْ كانَ الآدميُّ الذي بجانبِك يتأذَّى منك فإنَّ الملائكةَ تتأذَّى منكَ، فتكون مؤذيًا للمؤمنِين وللملائكةِ.

الأدبُ الخامسُ: أَنْ يصلِّيَ العبدُ إذا دخلَ المسجدَ ركعتين.

وهنا تنبيهٌ، فكثيرًا ما أَرى بعضَ الناس إذا دخَلوا المسجدَ يومَ الجمعةِ والمؤذنُ يؤذنُ ينتظرون المؤذنَ حتَّى ينتهيَ من أذانِه ثُم يصلُّون، والصحيحُ أنَّك إذا دخَلْت

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل، رقم (٨٥٥)، ومسلم: كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا، رقم (٥٦٤/ ٧٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا، رقم (٥٦٤/ ٧٤).

المسجدَ يومَ الجمعةِ والمؤذنُ يؤذنُ أن تبادرَ إلى الصلاةِ إلَّا أَنْ يكونَ ذلك في غيرِ الجمعةِ، ولا تجلِسَ حتَّى تصلِّيَ ركعتَيْن.

يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ، فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ»(١). وفي روايةِ مسلمٍ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ، وَلْيَتَجَوَّزْ فِيهِمَا»(٢).

الأدبُ السادسُ: أَنْ يتقدمَ مَن دخلَ المسجدَ إلى الصفوفِ الأولى لكن لا يَتخطَّى الرقابَ.

فلا تجلِسْ عندَ بابِ المسجدِ، وإنِّي لأستغربُ من ذاك الرجلِ الذي يدخلُ إلى المسجدِ فلا يجدُ فيه إلَّا آحادًا فيجلسُ خارجَ المسجدِ! ويتركُ هذا الخيرَ! فيعطلُ الناسَ بذلِك عنِ الدخولِ إلى المسجدِ.

وقد رأَى نبيُّنا ﷺ رجلًا يَتخطَّى الرقابَ فقالَ له: «اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ»(٣).

فمَن قعَدَ وضيَّقَ على المسلِمين؛ قُلنا له: قُمْ وتقدَّمْ إلى الأمامِ فقَدْ آذَيْت؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الْمُتَقَدِّمَةِ»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم (١١٦٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحية المسجد، رقم (٧١٤)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، رقم (٨٧٥)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب تخطي رقاب الناس يوم الجمعة، رقم (١١١٨)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب النهي عن تخطي رقاب الناس، رقم (١٣٩٩)، من حديث عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه النسائي: كتاب الإمامة، باب كيف يقوم الإمام الصفوف، رقم (٨١١)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأدبُ السابعُ: القِيامُ للصلاةِ فِي خُشُوع فَلا يَنظرُ إلَّا لموضِعِ سُجُوده.

فإذا قامَ الإنسانُ وهو يتمثَّلُ في صورةِ الساجدِ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فلا يرفَعْ بصرَه إلى السماءِ وهو يصلِّي، فقَدْ نَهَى النبيُّ ﷺ عن ذلِكَ فقالَ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ، أَوْ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ»[(١)].

فإذا قام قامَ قيامَ الخاشعِ الذليلِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فلا ينظُرْ إلَّا في موضعِ سجودِه، لا يَنظُرْ إلى مُستواهُ ولا إلى أرفعَ منه.

الأدَبُ الثامنُ: مِن السُّنةِ أن يقومَ الإنسانُ ممسكًا بيدِه اليمنَى على الشِّمالِ غير مُسدلٍ.

فقد قالَ النبيُّ ﷺ كما جاءَ في (صحيح ابنِ حبانَ) من حديثِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُؤَخِّرَ سُحُورَنَا، وَنُعَجِّلَ فِطْرَنَا، وَأَنْ نُمْسِكَ بِأَيْمَانِنَا عَلَى شَمَائِلِنَا فِي صَلَاتِنَا»[(٢)].

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحِمَكم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ الكريمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة، رقم (٤٢٨)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه ابن حبان (١٧٧٠).

(١٧)

الدعاء

فَضْلُه، ومكانتُه، وآدابُه

قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ» أي: حاجةٌ وعوزٌ وبلاءٌ «فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ، فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ»[(١)]. في هذه السلسلةِ المباركةِ منَ الآدابِ الشرعيةِ، أتحدثُ الآنَ عن أدبِ الدعاءِ.

وقد امتدحَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عبادَه الصالحين الذين أخَذوا بهذه العبادةِ العظيمةِ، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقد قال عنه نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ» ثمَّ قرأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠][(٢)].

قال ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتاوَى: «فإنَّ الدعاءَ من أعظمِ الدِّين»[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الهم في الدنيا، رقم (٢٣٢٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه بنحوه: أحمد (١/ ٤٠٧)، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف، رقم (١٦٤٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٧٥).

ثُم تدبَّروا حالَ المشركين الذين عبَدوا الأصنامَ، واتَّخذوا الآلهةَ من دونِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذا ضاقت عليهمُ الأمورُ وتعسَّرت عليهم يتركون آلهتَهم وأصنامَهم ويلجَؤُون إلى اللهِ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ أي: تغيَّرَتِ الأمورُ، فقبلَ قليلٍ الموجُ ساكنٌ والهواءُ ساكنٌ، وهُم في حالةِ فرحٍ ونشوةٍ وسرورٍ واغترارٍ واستكبارٍ ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ قبلَ قليلٍ هم منَ المُشركين، والآنَ هم يَقطَعون على أنفسِهم هذه العهودَ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس:٦٠].

فالدعاءُ هو العبادةُ، وقد جعلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للدعاء حوافزَ حتَّى ندعوَه فنحصلَ عليها، منها:

الحافزُ الأولُ: بالدعاءِ يُرفَعُ البلاءُ ويُستدفعُ القضاءُ.

فيُرفعُ البلاءُ الواقعُ، ويُدفعُ القضاءُ المحتملُ أن يَنزلَ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«لَا يَرُدُّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءَ، وَلَا يَزِيدُ فِي العُمْرِ إِلَّا البِرُّ»**[(١)].

فقَدْ يكونُ هناكَ بلاءٌ نازلٌ علينا، أو على أموالِنا، أو على أوطانِنا، أو على ديننا، أو على أولادِنا؛ ثُم بدعوةٍ صالحةٍ يقولُ الإنسانُ: يا ربِّ، يصرفُ هذا القضاءَ الذي

(١) أخرجه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، رقم (٢١٣٩)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كان سينزلُ، ويرفعُ البلاءَ النازلَ عن مريضٍ، أو عن فقيرٍ، أو عن غيرِه مِمَّن أصابَه البلاءُ.

وتدبَّروا قولَ النبيِّ ﷺ: «**الدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ، وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللهِ بِالدُّعَاءِ**»(١)، هذه وصيةُ نبيِّنا ﷺ.

فهَلْ بعدَ أن ترى هذا الحافزَ تغفلُ عن الدعاءِ؟! فإذا كانَ عندَك ابنٌ منحرفٌ فادْعُ له، أو عليكَ ديونٌ فادْعُ اللهَ أن يرفَعَها، أو كنتَ مريضًا أو عندَك مريضٌ فادعُ اللهَ أن يرفعَ عنكَ هذا المرضَ. فهذا حافزٌ يقدِّمُه لك ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لتدعوَهُ.

الحافزُ الثاني: الدعاءُ أكرمُ الأشياءِ على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال نبيُّنا ﷺ: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ**»(٢)؛ لذا يغضَبُ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا لم نَسأَلْه؛ فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»(٣)، بخلافِ المخلوقِ الذي مثلُك؛ ألَمْ يقُلِ الناظمُ:

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ(٤)

أي: مَن لم يَسألِ اللهَ يغضَبْ عليه.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٤٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، رقم (٣٣٧٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، رقم (٣٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ذكره الخطابي في العزلة (ص:٦٦) وقال: أنشدني الخزيمي. وانظره غير منسوب في: شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٦١)، وتفسير القرطبي (٥/ ١٦٤)، وفيض القدير للمناوي (١/ ٥٥٦).

وقد قالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «سَلوا اللهَ التيسيرَ في كلِّ شيءٍ، حتَّى الشِّسْعَ في النعلِ، فإنَّه إنْ لم يُيسِّرْه اللهُ لم يتيسَّرْ»[(١)]. أي: حتَّى في أبسطِ الأشياءِ وأسهلِها وفي الأمورِ المحتقَرةِ فإنْ لم يُيسِّرْه الله لم يَتيسَّرْ، فادْعوا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالتيسيرِ.

الحافزُ الثالثُ: أنَّ اللهَ يحبُّ إلحاحَك بالدُّعاء.

فيحبُّ أن تُكثرَ منَ الدعاءِ، فالإنسانُ يُضيقُ عليك إذا ألْحَحْت عليه بالدعاءِ، أو إذا انتظَرْتَه هنا أو هناكَ أو عندَ سيارتِه بطبيعةِ الحالِ، لكِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يحبُّ منك أن تُلحَّ عليه بالدعاءِ، فأكثِرْ عليه منَ الدعاءِ، فهَلْ هناك حافزٌ أكثرُ من ذلك؟!

قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سألَ سألَ ثلاثًا»[(٢)] أي: يكرِّرُ الدعاءَ: يا ربِّ، يا ربِّ، يا ربِّ.

فألحَّ على اللهِ بالدعاءِ؛ لأنَّ اللهَ يحبُّ منكَ إلحاحَك.

وقَدْ جاءَ في كتابِ (الزهد) للإمامِ أحمدَ -رحمه الله تعالى- ينقلُ عن مُوَرِّقٍ -رحمه الله تعالى- يقولُ: «ما رأيتُ مثلًا للمؤمنِ مِن رجلٍ في البحرِ على خشبةٍ يدعو: يا ربِّ، يا ربِّ، لعلَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يُنجيَه»[(٣)]، هكذا حالُ المؤمنِ الملحِّ على الدعاءِ، فكُنْ كحالِ هذا الغريقِ على تلكَ الخشبةِ في تلكَ الأمواجِ، وأكثِرْ منَ الدعاءِ.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد [وجادة عن أبيه] في الزهد رقم (١١٣٠)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

(٣) الزهد لأحمد رقم (١٧٦٠).

ويقولُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلِظُّوا بِيَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ»(١).

وقدِ امتدحَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقالَ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]، يقولُ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الأَوَّاهُ: الذي يُكثرُ الدعاءَ»(٢).

فبالدعاءِ يُرفَعُ البلاءُ ويُردُّ القضاءُ، والدُّعاءُ أكرمُ شيءٍ على اللهِ، واللهُ يحبُّ الملحِّينَ عليه بالدعاءِ.

الحافزُ الرابعُ: بالدعاءِ يُستنزَلُ النصرُ.

ومِن ذَلِكَ نصرُ الأفرادِ، أو نصرُ الجماعاتِ، أو نصرُ الأمةِ، فهو من أعظَمِ الأسلحةِ في يدِ المؤمنِ، لكِنِ المؤمنون في حالِ إهمالٍ لهذا السلاحِ.

قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠]، النتيجةُ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

وهذا نوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في شأنِه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٠-١٦].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٢٥).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير رقم (١٠٤٣)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٢٤٧٥)، والطبري في التفسير (١٤/ ٥٢٣).

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ -والحديثُ عند النسائيِّ-: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ»[(١)].

وقد جاءَ في (سير أعلامِ النبلاءِ) للذهبيِّ -رحمه الله تعالى- ذِكرُ هذه الحادثةِ: أنَّه لَمَّا خرجَ قتيبةُ بنُ مسلمٍ القائدُ الشجاعُ وصفَّ في مواجهةِ التُّركِ رأَى أعدادَهم فهالَه أمرُهم وعددُهم، فأولَ ما سألَ قالَ: «أينَ محمدُ بنُ واسعٍ؟» ومحمدُ بنُ واسعٍ هو العابدُ، الزاهدُ، التقيُّ، النقيُّ.

وما ذلِك إلَّا لأنَّهم حريصونَ كلَّ الحرصِ أن يكونَ في حوزتِهم وفي جُندِهم وفي بطانتِهم هؤلاءِ الصالحون- قالوا: هو ذاك في المَيمنةِ، جامحٌ على قوسِه، يبصبصُ بأصبعِه نحوَ السماءِ -أي: يَدعو- قالَ قتيبةُ بنُ مسلمٍ: «تلكَ الأصبعُ أحبُّ إليَّ من مِئةِ ألفِ سيفٍ شهيرٍ، وشابٍّ طريرٍ»[(٢)]. فهو يُدرِكُ حجمَ تلكَ الأصبعِ التي يَدعو بها محمدُ بنُ واسعٍ، فإنَّهم يَستنصِرون المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا الدُّعاءِ.

قالَ ابنُ القيِّمِ -رحمه الله تعالى-: «والدعاءُ مِن أنفعِ الأدويةِ، وهو عدوُّ البلاءِ، يدفعُه، ويعالجُه، ويمنعُ نزولَه، ويرفعُه، أو يخففُه إذا نزلَ، وهو سلاحُ المؤمنِ»[(٣)].

فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوجدَ في أيدينا سلاحًا، وهو من أمضى الأسلحةِ، فمَن أخذَ به نفعَ نفسَه، ومَن تجاهَلَه، أو غفلَ عنه، أوِ استكبَرَ عليه فلا يضرُّ إلَّا نفسَه.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف، رقم (٣١٧٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١).

(٣) الجواب الكافي (ص:١١).

أَتَهْـــــزَأُ بِالـــــدُّعَاءِ وَتَزْدَرِيــــــهِ   وَمَــا يُــدْرِيك مَــا صَــنَعَ الــدُّعَاءُ
سِـــهَامُ اللَّيْــلِ لَا تُخْطِــي وَلَكِــنْ   لَهَـــا أَمَـــدٌ وَلِلْأَمَـــدِ انْقِضَـــاءُ
فَيُمْسِــــــكُهَا إِذَا مَــــا شَـــــاءَ رَبِّي   وَيُرْسِــــلُهَا إِذَا نَفَــــذَ القَضَــــاءُ[1]

وما مِنَّا من أحدٍ إلَّا وله حاجاتٌ يتمنَّى أن تتحقَّقَ، وما منَّا مِن أحدٍ إلَّا وله رغباتٌ يتمنَّى أن يراها، وما منَّا من أحدٍ إلَّا وله حاجاتٌ في نفسِه يتمنَّى أن لو حصَلَت وتحقَّقَت. فجعلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له سبيلًا -وهو الدعاءُ- أن يقرعَ بابَ السماءِ ويلهجَ قائلًا: يااللهُ.

آدابُ الدعاءِ:

وسأذكرُ جملةً من هذه الآدابِ، لا لنتعرَّفَ عليها فحسبُ، بل لنأخُذَ بها، ونتعبَّدَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها.

الأدبُ الأوَّلُ: الثناءُ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ بين يدَيِ الدعاءِ، ثُم الصلاةُ على النبيِّ ﷺ.

فإذا أرَدْتَ أن تَقرعَ بابَ السماءِ، وأن تتحقَّقَ لك رغباتُك وحاجاتُك فابدَأْ بهذا الأدبِ.

يقولُ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنتُ أصلِّي والنبيُّ ﷺ، وأبو بكرٍ، وعمرُ، فلمَّا جلسْتُ بدأْتُ بالثناءِ على اللهِ، ثُم الصلاةِ على النبيِّ ﷺ، ثُم دعوتُ لنفسي، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ**»[2]، أي: الآنَ حريٌّ بكَ أن تسألَ، وحريٌّ

---

(١) الأبيات ذكرها الزمخشري في ربيع الأبرار (٢/ ٣٨٥)، وابن بشكوال في المستغيثين بالله (ص:٨٣)، والأبشيهي في المستطرف (ص:١١٧) غير منسوبة، وانظر: ديوان الشافعي (ص:٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما ذكر في الثناء على الله والصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء، رقم (٥٩٣).

بكَ أن تُجابَ دعوتُك، والسببُ أنَّك أثنيتَ على اللهِ، ثُم صلَّيْت على النبيِّ ﷺ، والحديثُ رواه التِّرمذيُّ.

وعندَ أبي داودَ في (سننه) من حديثِ فَضالةَ بنِ عُبيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحبِ رسولِ اللهِ ﷺ قال: سمعَ رسولُ اللهِ ﷺ رجلًا يدعو في صلاتِه لم يُمجِّدِ اللهَ تعالى، ولم يصلِّ على النبيِّ ﷺ -أي: يَدعو دونَ أن يأخذَ بهذا الأدبِ- فقالَ ﷺ: «عَجَّلَ هَذَا» أي: تعجَّلَ بالدعاءِ قبلَ الثناءِ. ثُم دعاهُ فقالَ له -أو لغيرِه-: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ»[(١)].

فلو لم يَكُنْ هذا الأدبُ مهمًّا في الدعاءِ لَما ذكَرَه النبيُّ ﷺ، وما عاتَبَ هذا الرجلَ وأدَّبَه وعلَّمَه.

وعندَ الطبرانيِّ من حديثِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يقولُ ﷺ: «كُلُّ دُعَاءٍ مَحْجُوبٌ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ»[(٢)].

الأدَبُ الثاني: الدعاءُ واستحضارُ اليقينِ بالإجابةِ.

وذلك بأَنْ تدعوَ وتتيقنَ تحقيقَ الإجابةِ، وتستحضرَ ذلك في قلبِك، فهذا الأدبُ بين يدَيْ هذا الدعاءِ الذي تَدعو به لتتحقَّقَ لك رغباتُكَ.

جاءَ عندَ الترمذيِّ من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «ادْعُوا

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨١)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٤٧٧)، والنسائي: كتاب السهو، باب التمجيد والصلاة على النبي ﷺ في الصلاة، رقم (١٢٨٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٧٢١)، والبيهقي في الشعب رقم (١٤٧٤).

اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»[(١)]. فلا يقولُ الإنسانُ: هيا نَدعُ ونُجرِّبْ.

الأدَبُ الثالثُ: الدعاءُ باسمٍ من أسماءِ اللهِ تعالى بما يناسبُ حالَ الداعي ودعوتِه.

فإذا دعوتَ اللهَ قدِّمْ بين يدَيْ دعائِك اسمًا من أسماءِ اللهِ تعالى بما يُناسبُ حالَ دعوتِكَ، فإذا أرَدْتَ أن تسألَ اللهَ الرزقَ فادعُ اللهَ باسمِه الرزَّاقِ، وإذا أرَدْت القوةَ فادعُ اللهِ باسمِه القوِيِّ، وهكذا.

يقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

قالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قُلتُ لرسولِ اللهِ ﷺ: أرَأَيْتَ إنْ علِمْتُ أيَّ ليلةٍ ليلةُ القدرِ ما أقولُ فيها؟ قالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[(٢)]. فلمَّا أرادَتْ أن تسألَ العفوَ قدَّمَت بين يدَيْ هذا الدعاءِ: «**اللَّهُمَّ إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنِّي**».

الأدَبُ الرابعُ: ارفَعْ يدَيْك في الدعاءِ، وبالِغْ في الرفعِ، وأظهِر الانكِسارَ والخضوعَ للهِ.

أمَا تَرى هذا المسكينَ كلَّما أرادَ أن يستعطِفَك مدَّ إليك يدَيْه، فمدَّ يديك إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٤٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٧١)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥١٣)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، رقم (٣٨٥٠).

قالَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما جاءَ في (صحيح مسلم): رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يرفَعُ يديه في الدعاءِ، حتَّى يُرَى بياضُ إبطَيْه[١]. أي: ليسَ رفعَ الفاتِرِ الخامِلِ.

وقد جاءَ عندَ الحاكمِ في (مستدركه) من حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وما أجملَ هذا الحديثَ وما أعظَمَه وما أرقَّه!-: يقولُ ﷺ: «إِنَّ اللهَ رَحِيمٌ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ ثُمَّ لَا يَضَعُ فِيهِمَا خَيْرًا»[٢].

وفي رِوايةِ سَلمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَبْسُطَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ ثُمَّ يَرُدُّهُمَا خَائِبَتَيْنِ»[٣].

الأدَبُ الخامسُ: إذا أرَدْت أن تَستجابَ دعوتُك فادْعُ اللهَ في حالِ الرخاءِ قبلَ الشدةِ.

فإنَّ النبيَّ ﷺ قالَ -كما جاءَ عندَ الترمذيِّ في سُننه-: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكُرَبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»[٤].

ففي حالِ الرخاءِ أكثِرْ منَ الدعاءِ ليَستجيبَ اللهُ لكَ عندَ الشدائدِ والكُربِ، وهكذا يقولُ أبو الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن يُكثِرِ الدُّعاء في الرَّخاءِ يُستجَبْ له عندَ البلاءِ، ومَن يُكثِرْ قرعَ البابِ يُفتَحْ له»[٥].

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٥).
(٢) المستدرك (١/ ٤٩٧).
(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥). وهو في المستدرك للحاكم (١/ ٤٩٧).
(٤) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم (٣٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٥) أخرجه البيهقي في الشعب رقم (٩٥٣٠).

الأدبُ السادسُ: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعَلَ لِـمَن كانَ كثـيرَ الذكرِ دعـوةً مستجابةً.

فإنْ كنتَ مِن المسبِّحين الذاكِرين اللهَ كثيرًا فحرِيٌّ بدعوتِك أن يُستجابَ لها، فإنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ -كما جاءَ عندَ البيهقيِّ-: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَرُدُّ اللهُ دُعَاءَهُمُ: الذَّاكِرُ اللهَ كَثِيرًا، وَالمَظْلُومُ، وَالإِمَامُ المُقْسِطُ**»(١).

الأدَبُ السابعُ: تحرِّي الأوقاتِ الفاضلةِ.

وهي كثيرةٌ جدًّا لا يسعُ المجالُ لذِكرِها، ولكِنْ نذكُرُ أحدَها، وهو جوفُ الليلِ الآخرُ، حينما ينشغلُ الناسُ إمَّا بنومٍ وإمَّا بلعبٍ فاشتغِلْ أنت بطَرقِ بابِ السماءِ.

قالَ ﷺ عَنْ هذا الوقتِ كما جاءَ في (صحيح البخاريِّ): «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**» أي: نُزولًا حَقِيقيًّا يَلِيقُ بجَلالِهِ، فيتقرَّبُ إليك سبحانَه، ويكونُ قريبًا منكَ «**حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(٢)، والأمةُ بين لاعبٍ ونائمٍ، إلَّا مَنِ استيقظَ قلبُه ليَطرُقَ بابَ السماءِ في تلكَ اللحظاتِ يدعو اللهَ أن يحقِّقَ له حاجتَه ورغباتِه من خيرَيِ الدنيا والآخرةِ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء رقم (١٣١٦)، والبيهقي في الشعب رقم (٥٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمَكُمُ اللهُ- على نبيِّ الهدَى والرحمةِ مُحَمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ ربُّنا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قائِلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

•• k ••

(١٨)

الزكاةُ فريضةُ العامِ

قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

فبيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيةِ العظيمةِ هذه الركائزَ الأساسيةَ في شخصيةِ المسلمِ، وهذِه الدعائمَ المهمَّةَ في إيمانِه؛ ومِن ذلكَ أداءُ الزكاةِ، فريضةِ العامِ، هذه الفريضةُ المنسيةُ، الَّتي لا يذكُرُها إلَّا القليلُ منَ الناسِ، وهذا المالُ الذي استخْلَفَنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه، وأمَرَنا بإخراجِ زكاتِه؛ فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد:٧].

وقَدْ جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ أيُّ الصدَقةِ أعظمُ أجرًا؟ قالَ: «**أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا. وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ**»[(١)].

والإحسانُ إلى الناسِ يستعبدُ قلوبَهم، فيميلُ الناسُ إلى الجَوَادِ الكريمِ، وتميلُ عنِ البخيلِ الشحيحِ.

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمْ ... فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح، رقم (١٤١٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، رقم (١٠٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالجِسْمِ إِنْسَانُ
وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لِذِي أَمَلٍ يَرْجُو نَدَاكَ فَإِنَّ الحُرَّ مِعْوَانُ
مَنْ جَادَ بِالمَالِ مَالَ النَّاسُ قَاطِبَةً إِلَيْهِ وَالمَالُ لِلْإِنْسَانِ فَتَّانُ[1]

والعبدُ العاقلُ لا يغلقُ أبوابَه دونَ ذوي الحاجاتِ، ولا يصدُّهم، ولا يمنَعُهم، فإنْ فعلَ ذلك أغلقَ اللهُ أبوابَ السماءِ دونَ حاجتِه، هكذا أخبَرَنا نبيُّنا ﷺ؛ فقَدْ جاءَ في حديثِ عمرِو بنِ مُرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قالَ لمعاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمِعْت رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَا مِنْ إِمَامٍ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الحَاجَةِ، وَالخَلَّةِ، وَالمَسْكَنَةِ إِلَّا أَغْلَقَ اللهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِهِ، وَحَاجَتِهِ، وَمَسْكَنَتِهِ»[2].

وقد وضعَ لَنا ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى حوافزَ للإنفاقِ مِن هذا المالِ الواجبِ، ورغَّبَنا في ذلكَ في أحاديثَ كثيرةٍ؛ مِنها:

أنَّ النبيَّ ﷺ بيَّنَ أنَّ الصدَقةَ بُرهانٌ على إيمانِ العبدِ ويَقينِه؛ فجاءَ في الحديثِ الصحيحِ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[3].

---

(١) الأبيات لأبي الفتح البستي من قصيدته «عنوان الحِكم» (ص:٣٦).
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١)، وأبو داود: كتاب الخراج والإمارة، باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية، رقم (٢٩٤٨)، والترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في إمام الرعية، رقم (١٣٣٢).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فبيَّنَ لنا نبيُّنا ﷺ أنَّ الصدقاتِ تَتنزلُ بها البركاتُ، فتَأتي البركاتُ في الأعمارِ والأولادِ والأموالِ؛ فإنَّ الذي يتصدَّقُ يبارَكُ له في نفسِه ومالِه وأولادِه وذرياتِه، ألَمْ يقُلْ نبيُّنا ﷺ -وهو لا يَنطقُ عنِ الهَوَى-: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ» أي: كلَّ يومٍ على مدارِ العامِ طوالَ العُمرِ «فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»[(١)].

فهذا يُخلَفُ له في مالِه، وهذا يُتلَفُ مالُه، وهذا منَ الحوافزِ العَظيمةِ.

ومنَ الحوافزِ الَّتي ذكَرَها نبيُّنا ﷺ: أنَّ الصدقاتِ تَقي الآفاتِ والهلكاتِ والنكَباتِ؛ فقَدْ قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ -كما جاءَ عندَ الطبرانيِّ في (معجمه الأوسَط)-: «مَنْ أَدَّى زَكَاةَ مَالِهِ فَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُ شَرُّهُ»[(٢)]، فإنَّ في المالِ شرًّا لا يذهَبُ إلَّا بالزكاةِ.

وقالَ ﷺ: «صَنَائِعُ المَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَالصَّدَقَةُ خَفِيًّا تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ زِيَادَةٌ فِي العُمْرِ، وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَأَهْلُ المَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ المَعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ، وَأَهْلُ المُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ المُنْكَرِ فِي الآخِرَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَهْلُ المَعْرُوفِ» رواه الطبرانيُّ في (معجمه)[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم (١٤٤٢)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، رقم (١٠١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المعجم الأوسط رقم (١٥٧٩)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة رقم (٩٩٢٣)، وابن خزيمة رقم (٢٤٧٠)، والحاكم (١/ ٣٩٠).

(٣) المعجم الكبير (٨/ ٢٦١، رقم ٨٠١٤)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجاءَ عندَ البيهقيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ الإمامَ أبا عبدِ اللهِ الحاكمَ ابتلاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بمرَضٍ أصابَه في وجهِه؛ فعلَتْه القروحُ، فطلبَ الأطباءَ والحكماءَ سَنةً كاملةً فما وجدَ لذلكَ دواءً، وكان بجانبِه أحدُ العلماءِ، وهو أبو عُثمانَ الصابونيُّ رحمه الله تعالى -له درسٌ في كلِّ جُمُعةٍ- فجاءَه وقالَ لهُ: يا أبا عُثمانَ إذا انتهَيْت من درسِكَ؛ فادْعُ اللهَ أن يَشفيَني ولْيُؤمِّنْ هؤلاءِ التلامذةُ؛ فقام أبو عثمانَ الصابونيُّ رحمه الله تعالى -بعدَ أنِ انتَهى من درسِه- يدعو لأبي عبدِ اللهِ الحاكمِ: اللهُمَّ اشفِه اللهمَّ اشفِه، ومَن في الدرسِ يؤمِّنُ، وكانَ من جملةِ مَن كانَ في الدرسِ امرأةٌ فلمَّا ذهَبَت إلى بيتِها اجتهَدَت لأبي عبدِ اللهِ في الدعاءِ طوالَ الليلِ، فأغفَتْ إغفاءةً فإذا برسولِ اللهِ ﷺ يقولُ لها: قولي لأبي عبدِ اللهِ الحاكمِ: يُجري ماءً سبيلًا على بابِه -أي: يتصدَّقُ- قال: فأخبرَ -رحمه الله تعالى- بذلِك؛ فأَجرَى سقايةً على بابِ بيتِه يشربُ منها كلُّ مَن مرَّ، فما مرَّ عليه أسبوعٌ إلَّا وقد بدا عليه أثرُ الشفاءِ والتعافي[1].

وصدَقَ رسولُ اللهِ ﷺ أَنْ قالَ: «صَنَائِعُ المَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ».

وإن كُنَّا ذكَرْنا جانبًا منَ الترغيبِ والحوافزِ التي وضِعَت بين يدي المتصدِّقِ والمخرِجِ لزكاةِ مالِه، فنذكُرُ هاهنا أيضًا ما جاءَ في ترهيبِ مانِعِي الزكاةِ من أدائِها، وفي خطورةِ منعِ الزكاةِ، والبابُ في ذلك يطولُ؛ ولكِنِّي أُذكِّرُ بشيءٍ يسيرٍ، فمانعُ الزكاةِ في خطرٍ عظيمٍ إنْ لم يَنتبِهْ إلى نفسِه، وقد دلَّتْ نصوصُ الكتابِ والسُّنةِ على خُطورةِ هذا الأمرِ

أمَّا الأمرُ الأولُ: أنَّ البركاتِ والخيراتِ تُنزعُ من مانعِ الزكاةِ، حتَّى إنْ نما مالُه وزادَ وكثُرَ؛ فإنَّ البركةَ مَنزوعةٌ مِنه، ويجدُ ذلك في نفسِه وأولادِه ووقتِه.

(١) شعب الإيمان (٥/ ٦٩).

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ مَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا القَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا البَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا»[(١)]، فهذا المطرُ الَّذي في السماءِ يُمنعُ بسببِ مانعِ الزكاةِ، هذا في الدُّنيا.

ومشهدٌ آخرُ في أرضِ المحشرِ هناكَ حينما تكونُ الأمورُ في أخطرِ ما يُتصوَّرُ:

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاةَ مَالِهِ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ»، أي: هذه الدنانيرُ والدراهمُ الَّتي تُمنعُ زكاتُها تتحولُ يومَ القيامةِ إلى ثُعبانٍ عظيمٍ أقرعَ مِن شدةِ السَّمِّ الَّذي في رأسِه «يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعني: شِدقَيْه- ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ»، ثُم تلا ﷺ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٠][(٢)].

فإذا أرادَ أصحابُ الأموالِ أَنْ يُزكُّوا زكاةَ مالِهم واستكْثروا المالَ، واستَعْظَموه، وقالوا: كيفَ نخرجُ هذا المالَ؟ فلْيَتذكَّروا هذا الشجاعَ الأقرعَ الَّذي لا بُدَّ منه.

والمالُ إمَّا أن يذهبَ عنَّا بالآفاتِ والهلكاتِ، أو نَذهبَ عنه بالموتِ، فلْيُبادِرِ الإنسانُ إلى تصحيحِ وضعِه اليومَ قبلَ أن لا يَنفعَ الندمُ.

وثالِثةٌ -وهي أخطرُ ما يَكونُ- جاءَ عندَ الطبرانيِّ في (معجمه الصغير): أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَانِعُ الزَّكَاةِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي النَّارِ»[(١)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم (٤٠١٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (١٤٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) المعجم الصغير رقم (٩٣٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ اللهُ تعالى في سورةِ التوبةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:١٨].

إذَنْ هي فريضةُ العامِ، يؤدِّيها الإنسانُ ولا يَظُنَّ أنَّ هذه الدنانيرَ الَّتي يدفعُها عندَ بابِ المسجدِ هي الزكـاةَ؛ إنَّما الزكاةُ قـدرٌ معلومٌ، بهيئةٍ معلومـةٍ في أوقاتٍ معلومةٍ، لا بُدَّ أن يُؤدِّيَها كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأدائِها.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحِمَكم اللهُ- على نبيِّ الهدَى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ الكريمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائِلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١٩)

المروءة

الإنسانُ بطبعِه مدنيٌّ يحبُّ المخالطةَ والمؤانسةَ؛ فيخالطُ أهلَه وأقاربَه، وإخوانَه وخلَّانَه، وعملاءَه وشركاءَه، ويحتاجُ في هذه المخالطةِ إلى أُسِّ النجاحِ فيها؛ وهي حُسنُ الخُلقِ، وهو أساسٌ في تعاملِ الإنسانِ مع مَن حولَه.

لكِنْ بسببِ اندماجِ المسلمين في غيرِهم واختلاطِهم تخلَّى الكثيرُ منهم عن كثيرٍ منَ الأخلاقِ، وبسببِ اندفاعِهم المحمومِ حولَ الدنيا تخلَّوْا عن كثيرٍ منَ المبادئِ التي خصَّهمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها.

إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحبُّ الأخلاقَ، ويحبُّ منها ما كان عاليًا رفيعًا؛ كما جاءَ في الأثرِ عنه ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**»(١).

فالأخلاقُ الحميدةُ الرفيعةُ هي محمودةٌ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وحديثُنا عن خُلقٍ عظيمٍ؛ تخلَّقَ به العربُ قبلَ الإسلامِ، فلمَّا جاءَ الإسلامُ أكَّدَه، وهو يجمعُ الأخلاقَ كلَّها، إنَّه خُلقُ المروءةِ، الذي بدَأْنا نرى اليومَ وفي هذه الأزمنةِ والعصورِ المتأخرةِ ندرتَه وقِلَّتَه.

والمروءةُ كما قيل: هي غلبةُ العقلِ على الشهوةِ.

قالَ الفاروقُ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كرَمُ المؤمنِ تقواهُ، ودينُه حسبُه، ومروءتُه خُلقُه»(١).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٢٩٤٠)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٤٦٣، رقم ٣٥).

وقد سُئِلَ سفيانُ بنُ عُيينةَ -رحمه الله تعالى-: يا سُفيانُ، قدِ استَنْبطت منَ القرآنِ كلَّ شيءٍ فهل وجَدْت المروءةَ فيه؟ فقالَ: «نعَمْ، في قولِه تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]»[(١)].

والمروءةُ كما قالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ رحمه الله تعالى فقالَ: «المروءةُ: ألَّا تعملَ في السرِّ عملًا يُستحيَى منه في العلانيةِ»[(٢)].

والمروءةُ بلسانِنا هي: المراجلُ، وهي: السنعُ، وهي: العلمُ الغانمُ، والارتفاعُ عن خُلقِ البهائمِ.

فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَّا خلقَ الخلقَ خلقَ الملائكةَ عقولًا بلا شهوةٍ، وخلقَ البهائمَ شهوةً بلا عقولٍ، وخلقَ ابنَ آدمَ وركَّبَ فيه العقلَ والشهوةَ، فمَن غلبَ عقلُه شهوتَه التَحقَ بالملائكةِ، ومَن غلَبَت شهوتُه عقلَه التحقَ بالبهائمِ؛ حتَّى إننا لنرى الشخصَ أحيانًا في تصرفاتِه وأقوالِه وأفعالِه، فنقولُ: سبحانَ اللهِ هذا ملَكٌ، ونرى البعضَ ممَّن ساءَ خُلقُه في أقوالِه وتصرفاتِه وأفعالِه، فنقولُ: هذا خُلقُ بهائمَ. فقد وصلَ إلى البهيميةِ؛ لأنه سمحَ لهذه الشهوةِ أن تتغلَّبَ على عقلِه فانعدَمَتِ المروءةُ.

وليسَ منَ المروءةِ أن يتلكَّأَ الرجلُ ويتأخَّرَ عن القيامِ على شؤونِ والديه وخدمتِهما، فإذا دعاه صاحبُه قال: أبشِرْ بالسَّعدِ. وقامَ في خِدمةِ إخوانِه، وهو في خِدمةِ والديه يتلكَّأُ ويتأخَّرُ.

---

(١) انظر: المروءة لابن المرزبان (ص:١٣٣).

(٢) أخرجه أبو طاهر المخلص في المخلصيات رقم (٣٠٣٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/ ٣٣٧).

وليسَ من المروءةِ إذا سمِعَ الرجلُ صوتَ المؤذنِ يناديه قامَ يسحبُ خطاه متكاسلًا متباطئًا؛ فإذا سمعَ صوتَ الطار والطبلِ قام يرقصُ ويتمايلُ، ولا يستَحيي من رؤيةِ الرجالِ إليه.

وليسَ منَ المروءةِ أن يخرجَ الرجلُ بلِباسٍ فاضحٍ تبدو منه سوءتُه في الأماكنِ العامةِ كالمجمَّعاتِ التجاريةِ والدوائرِ الحكوميةِ.

وتحصيلُ المروءةِ لا يكونُ إلَّا عبرَ هذه البواباتِ الثلاثِ:

البوابةُ الأُولى: أن يَتربَّى عليها منَ الصغرِ.

فيرى في والديه وفي المحيطِ الذي هو أكبرُ منه المروءةَ، حتَّى قيلَ:

إِذَا المَـرْءُ أَعْيَتْـهُ المُـرُوءَةُ نَاشِـئًا فَمَطْلَبُهَـا كَهْـلًا عَلَيْـهِ عَسِـيرُ[1]

فإذا رأى الابنُ والدَه وهو قابعٌ وسطَ البيتِ وأمَّه هي الَّتي تقومُ بكلِّ شيءٍ؛ ترُدُّ على مَن طرقَ البابَ، وتخرجُ تتكلَّمُ مع الزراعِ، وتصلحُ الأنوارَ الخارجيةَ، وتعملُ ما ينبغي أن يعملَه هذا القابعُ وسطَ الدارِ، الذي ألقَى بكلِّ شيءٍ على عاتقِ زوجتِه، فهذا الطفلُ الابنُ لا يتعلَّمُ من أبيه المُروءةَ، كما قيلَ سابقًا:

مَشَـى الطَّـاوُوسُ يَوْمًـا بِاخْتِيَـالٍ فَقَلَّـدَ شَـكْلَ مِشْـيَتِهِ بَنُـوهُ
فَقَـالَ: عَـلَامَ تَخْتَـالُونَ؟ قَـالُوا بَـدَأْتَ بِـهِ وَنَحْـنُ مُقَلِّـدُوهُ
فَخَـالِفْ سَـيْرَكَ المُعْـوَجَّ وَاعْـدِلْ فَإِنَّـا إِنْ عَـدَلْتَ مُعَـدِّلُوهُ

(١) ذكره الجاحظ في رسائله (١/ ٢٩٩)، غير منسوب. وابن قتيبة في عيون الأخبار (١/ ٣٥٤) ونسبه للمعلوط القريعي. وابن المرزبان في المروءة (ص:١٠٩) ونسبه لرجل من بني قريع.

أَمَـــا تَـــدْرِي أَبَانَـــا كُـــلُّ فَـــرْعٍ يُجَـــارِي بِـــالْخُطَى مَـــنْ أَدَّبُـــوهُ
وَيَنْشَـــأُ نَاشِـــئُ الفِتْيَـــانِ مِنَّـــا عَـــلَى مَـــا كَـــانَ عَـــوَّدَهُ أَبُـــوهُ[1]

فيتعلمُ الإنسانُ منَ الصغرِ المروءةَ.

البوابةُ الثانيةُ: أن يجالسَ ذوي المروءاتِ.

وأن تُفتحَ المجالسُ التي هي في الحقيقةِ مدارسُ؛ حيثُ يتعلمُ الأبناءُ إذا دخَلوا فيها متى يتكلَّمون وكيف يتكلَّمون، أين يَجلِسون وكيف يَجلِسون، متى يأكُلون وكيف يأكُلون، فمَنْ أَراد المُروءةَ فليصحَبْ أهلَ المروءاتِ، فالطبعُ كما قيلَ سراقٌ، والصاحبُ ساحبٌ.

وخيرٌ من ذلكَ كلِّه قولُ النبيِّ ﷺ: «**المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»[2].

وقال علماؤُنا: «مجالسةُ أهلِ الديانةِ تجلو عنِ القلبِ صدأَ الذنوبِ، ومجالسةُ ذوي المُروءاتِ تدلُّ على مكارمِ الأخلاقِ، ومجالسةُ العلماءِ تُزكي القلوبَ».

فإذا أَرَدْت المُروءةَ فابحَثْ عن أهلِها، وجالِسْهم، وارتَمِ في أحضانِهم، وتعلَّمْ منهم، فإنَّك لا شكَّ تتأثرُ.

قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما مِنْ شيءٍ أدلُّ على شيءٍ ولا الدخَانُ على النارِ من الصاحبِ على الصاحبِ»[1].

---

(١) الأبيات ذكرها أحمد قبش في مجمع الحكم والأمثال (ص:٧) غير منسوبة.
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(١) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص:١٦٥).

وقديمًا قيلَ:

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ وَلا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

عَنِ المَرْءِ لَا تَسَأْلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي[1]

قال معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «آفةُ المُروءةِ إخوانُ السوءِ»[2].

إذَنْ هذا الخلقُ العظيمُ مَن أرادَه وأرادَ أن يستمسِكَ به ويتحلَّى به؛ فعليه أن يجهدَ نفسَه في تحصيلِه.

البوابةُ الثالثةُ: أن يتجنَّبَ خوارمَ المُروءةِ.

وللمروءةِ خوارمُ ينبغي على الإنسانِ أن يتعرَّفَ عليها حتَّى يتجنَّبَها:

k فمن هذه الخوارمِ: أن يبتعدَ عن الأخلاقِ التي قبَّحَها الشرعُ كالكذبِ؛ فصاحبُ المُروءةِ لا يكذبُ، وكالغدرِ فأهلُ المرواءتِ لا يغدرون، وكالخيانةِ، وعقوقِ الوالدين.

k ومن خوارمِ المُروءةِ: مخالفةُ العُرفِ العامِّ والذوقِ العامِّ إذا كان موافقًا للشرعِ؛ فهناكَ أعرافٌ عامَّةٌ، وهناكَ ذوقٌ عامٌّ من خالَفَه فقد خرَمَ مروءتَه.

يقولُ الناظمُ:

إِذَا جَلَسْتَ وَكَانَ مِثْلُكَ قَائِمًا فَمِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ تَقُومَ وَإِنْ أَبَى

---

(١) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢/ ١٧٩) غير منسوب، ونسبه الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص:١٦٦) لعدي بن زيد، والبيت الثاني في ديوان طرفة (ص:٣٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء (ص:٢٣٤).

وإِذَا اتَّكَـأْتَ وَكَـانَ مِثْلُـكَ جَالِسًـا فَمِــنَ الْمُــرُوءَةِ أَنْ تُزيــلَ الْمُتَّكَــا
وإِذَا رَكِبْــتَ وَكَــانَ مِثْلُـكَ ماشِــيًا فَمِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ مَشَيْتَ كَما مَشَـى[1]

فمنَ المروءةِ أن يتماشَى مع العرفِ العامِّ والذوقِ العامِّ إذا لم يكُنْ هذا العرفُ والذوقُ العامُّ مخالفًا لشرعِ الله.

k ومن خوارمِ المروءةِ: أن يعبِّدَ الإنسانُ نفسَه لغيرِ اللهِ، وأن يكونَ ذليلًا وخاضعًا لغيرِ الله، طمعًا في فُتاتِ الدنيا، حتى يتنازلَ عن كثيرٍ منَ المبادِئِ العظيمةِ.

وهذا هو الخليفةُ الراشدُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصِي ابنَه الحسنَ فيقولُ: «يا بُنيَّ لا تكُنْ عبدَ غيرِك، وقد جعلَكَ الله حُرًّا؛ فإنَّ اليسيرَ منَ الله تعالى أكرمُ وأعظمُ منَ الكثيرِ من غيرِه»[2].

k ومِن خوارمِ المروءةِ: كثرةُ سؤالِ الناسِ؛ فكلَّما التَقى بأحدٍ من إخوانِه سألَه، ويسأل كلَّ شيءٍ حتى يُمَلَّ لقاؤُه.

حتى قيلَ:

مَنْ عَفَّ خَفَّ عَلَى الصَّـدِيقِ لِقَـاؤُهُ وَأَخُــو الحَــوَائِجِ وَجْهُــهُ مَمْلُــولُ[3]

قالَ ابنُ تيميةَ رحمه الله تعالى -ينقلُ كلامًا عن غيرِه في كتابِه الفتاوى-: «احتَجْ إلى غيرِك تكُنْ أسيرَه، واستغْنِ عنه تكُنْ نظيرَه، وأحسِنْ إليه تكُنْ أميرَه»[1].

(١) ذكره ابن المرزبان في المروءة (ص:١٣٦) عن أبي بكر الإسماعيلي.
(٢) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص:٣٣٠).
(٣) ذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار (٣/ ٢١٣)، غير منسوب. ونسبه الخطيب البغدادي في البخلاء (ص:٧٩) لأبي العتاهية.
(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٩).

فمِن خوارمِ المروءةِ: أن يكونَ الإنسانُ سائلًا طالبًا على الدوامِ لإخوانِه وزملائِه، فهذا ليسَ من المُروءةِ، بل منَ المُروءةِ أن يترفَّعَ وينهضَ بهذه الهممِ.

فهذا الخُلُقُ العظيمُ هو من الأخلاقِ التي يَنبغي أن نشحذَ الهِمَّةَ نحوَه.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ الله، كما أمرَ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(٢٠)

يا أهلَ السُّنةِ رفقًا بأهلِ السُّنةِ

يعلمُ الجميعُ أنَّ من الأسبابِ الرئيسةِ -بعد توفيقِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ورعايتِه- التي أخرَجَتْنا من أزمتِنا التي مرَّتْ بنا: اعتصامُ أهلِ السُّنةِ، والتفافُهم، واتحادُ كلمتِهم، واعتصامُهم على اختلافِ مدارسِهم وتوجهاتِهم وأفكارِهم؛ فهُم حِينَما اجتَمَعُوا شكَّلوا سدًّا منيعًا وحائطًا قويًّا، غيَّرَ موازينَ اللعبةِ، وأضعفَ وأربَكَ العدوَّ الداخليَّ والخارجيَّ.

ورائدُهم في تلك الفترةِ قولُ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣].

إلَّا أننا نَرى في هذه الأيامِ مَن يَسعَى في تفتيتِ هذا الحائطِ، والضربِ فيه، وتمزيقِ الممزقِ أصلًا، وإضعافِ الضعيفِ، ويسعَى في تحطيمِ هذا البناءِ بمعاولِ الهدمِ، بل بجرَّافاتِ التخريبِ.

وهُمْ في حالِ غفلةٍ عن قولِ الحقِّ سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، وفي حالِ غفلةٍ عن قولِ الحقِّ سبحانَه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣١-٣٢].

إننا نَرَى في هذه الأيامِ حالةَ احتراقٍ واقتتالٍ على مواقعِ التواصلِ؛ تحاربُ هذه الفئةُ لا لشيءٍ إلَّا لانتماءاتٍ حزبيةٍ، فهذا يَنتمي لهذا الحزبِ فيحاربُ، وهذا ينتمي

لهذا التيارِ فيحاربُ، والجميعُ من أهلِ السُّنةِ؛ فيأكلُ أهلُ السُّنةِ بعضُهم بعضًا، والعدوُّ يَرى هذه المشاهدَ ويقولُ: هذه الغنيمةُ الباردةُ. ويسخرُ منَّا، ونستحقُّ أن يسخرَ منَّا، حينما تبدأُ معاولُ الهدمِ في هذا البناءِ -بناءِ أهلِ السُّنةِ- على أيدي بُناةِ هذا الحائطِ؛ وهم أهلُ السُّنةِ.

يذكرُ لنا ابنُ القيمِ -رحمه الله تعالى- في كتابِه الرائعِ (مدارج السالكين) عن قمةٍ مِن قممِ أهلِ السُّنةِ، وعن جبلٍ من جبالِها، وعن رجلٍ من رجالِها، يتحدثُ عن شيخِه شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ، فقالَ: «وجئتُ مبشِّرًا له» أي: لابنِ تيميةَ «بموتِ أكبرِ أعدائِه، وأشدِّهم عداوةً وأذًى له» قال: «فنهَرَني، وتنكَّرَ لي، ثم استرجَعَ، ثم قامَ من فورِه إلى بيتِ أهلِه فعزَّاهم، وقال لهم: أنا لكُم مكانَه»[(١)].

فأين هذه القيمةُ اليومَ؟! فهذا أكبرُ أعداءِ ابنِ تيميةَ الذي سعَى وأوجبَ شرعًا عند الحاكمِ قتلَ ابنِ تيميةَ، وخالفَ ابنَ تيميةَ لا على مسائلَ فقهيةٍ، وإنما على مسائلِ الأصولِ والعقائدِ، يقولُ بلسانِ حالِه: أتبشِّرُني بموتِ مسلمٍ.

فكيفَ يفرحُ المسلمُ اليومَ بما يحصلُ لإخوانِه من المسلمين من نكباتٍ ومحنٍ ومصائبَ؟!

وأذكُرُ هنا بعضَ الأدواتِ التِي تُستخدَم لتقوِّضَ بناءَ أهل السُّنة؛ لأحذرَ منها:

الأداةُ الأولى: الشماتةُ بالمسلمِ.

فلا يعقلُ أن يشمَتَ السُّنيُّ بسُنيٍّ مثلِه، لا لشيءٍ إلَّا لأنه يختلفُ معه في التوجهِ والأفكارِ، فلا ينتمي إلى حِزبِه، وليسَ هو من تيارِه.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٩).

قالَ إمامُ دارِ الهجرةِ مالكٌ -رحمه الله تعالى-: «أدرَكْت بهذه البلدةِ -يعني: المدينةَ- أقوامًا لم تكن لهم عُيوبٌ فتكلَّموا في عُيوبِ الناسِ فصارت لهم عُيوبٌ، وأدرَكْت بها أقوامًا كانت لهم عُيوبٌ، فسكتوا عن عُيوبِ الناسِ فَنُسِيَت عُيوبُهم»[(١)].

فهذا الذي يتكلمُ في ليلِه ونهارِه شامتًا بما يحصلُ لإخوانِه، هل غفلَ عن قولِ الحقِّ سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]؟!

وهل غفَلَ عن قولِ الحقِّ سبحانَه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]؟!

قالَ بعضُ علماءِ السلفِ: «لو كنتُم تشترون الكاغدَ للحفَظةِ لأمسَكْتم عن كثيرٍ من الكلامِ» أي: لو كُنَّا نَشتري الأوراقَ للكتَبةِ ويكتبون عليها ما نقولُ لأمسَكْنا عن كثيرٍ من الكلامِ.

الأداةُ الثانيةُ: تتبعُ عوراتِ المسلمِ، ثم إفشاؤُها، ثُم التعييرُ بها.

فنحنُ نلاحظُ أنَّ هناكَ مَن يقضي ساعاتِ الليلِ والنهارِ يفتِّشُ عن أخطاءِ غيرِه، يبحثُ في السجلاتِ القديمةِ، أو في التسجيلاتِ القديمةِ، أو يبحثُ في مقالٍ سابقٍ، أو في ملفٍ قديمٍ؛ لعلَّه يجدُ زلةً على فلانٍ فيشيعُها، ثُم يعيِّرُه بها. ولا يُعقلُ أن يقَعَ هذا من مسلمٍ في حقِّ مسلمٍ.

وها هي سُنةُ النبيِّ ﷺ حاضرةٌ أمامَنا، قالَ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَتَّبَعُوا عَوْرَاتِهِمْ،**

(١) انظر: الضوء اللامع للسخاوي (١/ ١٠٦).

فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحُهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ»[(١)].

وهذه هي أحاديثُ النبيِّ ﷺ ماثلةً أمامَنا.

فحينما يبحثُ الإنسانُ عن أخطاءِ الآخرين فهذه أداةٌ خطيرةٌ، ومَن منَّا ليس له خطأٌ في الحاضرِ فضلًا عن الماضي؟ ويسألُ ربَّه في ليلِه ونهارِه أن يلطُفَ به ويستُرَ عليه، فيأتِي هذا السُّنيُّ ليفضحَ أخاه السُّنيَّ بدعوَى أنه من الحزبِ الفلانيِّ والتيارِ الفلانيِّ، وهذا ليسَ مَقبولًا.

وقد قالَ رسولُنا ﷺ: «لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ» فأزالَ حواجزَ الأحزابِ والتياراتِ والانتماءاتِ، وقالَ: «الْمُسْلِمِينَ».

فهذا الذي يكتبُ في الليلِ والنهارِ، ويغرِّدُ بهذه التغريداتِ الشائِنةِ، نقولُ له: كما قالَ الأولُ:

كَتَبْتُ وَقَدْ أَيْقَنْتَ يَوْمَ كِتَابَتِي ... بِأَنَّ يَدِي تَفْنَى وَيَبْقَى كِتَابُهَا

ونقولُ له: انظُرْ في عيوبِ نفسِك ودَعْك من عيوبِ الآخَرين، ورائدُك في ذلكَ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَاةُ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ»[(٢)]؛ أي: القذاةَ الصغيرةَ التي لا تُرى يُبصِرُها في عينِ أخيهِ، والجذعُ المطرحُ في عينِه لا يراهُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٨٠)، من حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٩٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٥٩٢)، وابن حبان في صحيحه رقم (٥٧٦١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد أُتِيَ رسولُ اللهِ ﷺ في يومٍ منَ الأيامِ برجلٍ منَ الصحابةِ قد شربَ الخمرَ؛ فقالَ: «اضْرِبُوهُ» قالَ أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فمِنَّا الضاربُ بيدِه، ومنَّا الضاربُ بثوبِه، ومنَّا الضاربُ بنعلِه، فقالَ ﷺ: «بَكِّتُوهُ» -أي: أَنِّبوه- فقالوا: أمَا اتَّقَيْت اللهَ؟ أمَا خشِيتَ اللهَ؟ أما استَحْيَيْت من رسولِ اللهِ؟ فقال بعضُ القومِ: أخزاكَ اللهُ -وهذا دعاءٌ، والنبيُّ ﷺ لم يأمُرْنا أن نَدعوَ عليه، بل قالَ: «اضْرِبُوهُ» وقالَ: «بَكِّتُوهُ» ولم يقُلِ: العَنوهُ- فقال ﷺ: «لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ، وَلَكِنْ قُولُوا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ»[1].

هذا هو منهجُ أهلِ السُّنةِ لِمَن أرادَ النجاةَ، أمَّا مَن أرادَ غيرَ ذلك؛ فلا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ.

قالَ سفيانُ بنُ حُسينٍ -رحمه الله تعالى-: «كنتُ في مجلسِ إياسِ بنِ معاويةَ» الرجلِ الذكيِّ الألمعيِّ العبقريِّ المعروفِ «فذكَرْتُ عندَه رجلًا بسوءٍ» قال: «فنظرَ إليَّ إياسٌ قالَ: أغَزَوْت الرومَ؟ قلتُ: لا. قال: فالسِّندَ، فالهندَ، فالتُّركَ؟ قلتُ: لا، لا، لا. قال: أفسَلِمَ مِنكَ الرومُ والسِّندُ والهندُ والتركُ ولم يسلَمْ منكَ أخوك المسلمُ؟!»[2].

كيفَ ونبيُّنا ﷺ يقولُ: «وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا» يشيرُ إلى صدرِه ثلاثَ مراتٍ. أي: لا تحصُرِ التقوى لك أنتَ، دونَ بقيةِ إخوانِك «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب الحد في الخمر، رقم (٤٤٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصله عند البخاري: كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال، رقم (٦٧٧٧).
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب رقم (٦٣٥١).

«كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[١].

فدَعْكَ من هذه التسمياتِ، فالمسلمُ أخوك وعضيدُك. وهناكَ مَن يحركُ بعضَ الأشخاصِ كالدُّمَى فيتحرَّكون، فتتحركُ معهم بعضُ القطعانِ الجاهلةِ.

فنَقولُ: رويدًا يا أهلَ السُّنةِ، ورفقًا بأهلِ السُّنةِ.

وإننا -معَ الأسفِ الشديدِ- وجَدْنا مَن يفرحُ بمصابِ إخوانِه، وبقتلِ إخوانِه، لا لشيءٍ إلَّا لأنَّهم يتبعون الحزبَ الفلانيَّ والتيارَ الفلانيَّ، فماذا أبقَيْنا لأعدائِنا؟! أتفرحُ بموتِ مسلمٍ؟! أتفرَحُ بما يحصلُ له منَ المصائبِ والمحَنِ؟! أتشمَتُ به إذا سُجِنَ، وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا فَاغْتَبَطَ بِقَتْلِهِ» أي: فرِحَ بقتلِه، سواءٌ كان هو القاتلَ أو غيرَه «لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»[٢]، أي: لا يَقبلُ منه فريضةً ولا نافلةً؟!

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمَكُم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ الله، كما أمَرَنا الربُّ الكريمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الفتن والملاحم، باب في تعظيم قتل المؤمن، رقم (٤٢٧٠)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢١)

دَعوها فإنَّها مُنتنةٌ

جاءَ في حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في (صحيح مسلِمٍ) قالَ: كنَّا في غزاةٍ معَ النبيِّ ﷺ فكسَعَ رجلٌ منَ المهاجِرين رجلًا من الأنصارِ، فقالَ الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ، وقال المهاجريُّ: يا لَلمُهاجِرين. فقالَ ﷺ: «مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ؟» قالوا: يا رَسولَ الله كسعَ رجلٌ منَ المهاجِرين رجلًا منَ الأنصارِ. قال: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»(١).

والمُنتنُ هو هذا التحزُّبُ الذي يَكونُ على باطلٍ، والَّذي يكونُ ضدَّ الحقِّ؛ علمًا بأنَّ هذين الاسمَيْن الشريفين العظِيمَيْن المقدَّسين -مهاجِرين وأنصارًا- مدحَهُما اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابِه قالَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

وامتَدَحَهمُ الربُّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حينَما قالَ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧].

إنَّ هذه التحزباتِ التي نَراها على أرضِ الواقعِ اليومَ، والاقتتالَ الحاصلَ على مواقعِ التلاسُنِ الاجتماعيِّ الَّذي يفرقُ الأمةَ، ويضيِّعُها، سمَّاه النبيُّ ﷺ: مُنتنًا، فقال: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» يقولُ ﷺ ذلك خوفًا على تَمزُّقِ الأمةِ وافتراقِها؛ علمًا

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، رقم (٢٥٨٤)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بأنَّه كان معَهم، والجيشُ جيشُ مهاجرين وأنصارٍ قدِموا مِن غَزاةٍ.

لذا أقولُ -كما سبقَ-: أينَ مَن يحملُ لواءَ الإصلاحِ بين الإخوةِ؟ أين مَن يقودُ هذه العبادةَ المنسيةَ -عبادةَ الإصلاحِ- الَّتي أمَرَ بها ربُّنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حينما قالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠]، ألَا يوجدُ فينا رجلٌ رشيدٌ؟! أين أصحابُ القرارِ؟ ليَقِفوا ضدَّ هذا الانقسامِ الحاصلِ في المجتمعِ الَّذي تلوكُه الألسنُ، وتتلاعبُ بِهِ الأيدي، ويسخرُ منَّا أعداؤُنا.

وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟» قالوا: بلى. قال: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ»[(١)]، أي: تُذهبُ الدينَ، فأولُ ما يتأثرُ من حالِ الانقسامِ والفرقةِ هو دينُ المرءِ، فأمرَ ﷺ بالإصلاحِ.

وما نَراه من حالِ انقسامِ اليومَ ما هو إلَّا نتاجُ سوادِ القلوبِ، فلا يخدعَنَّك خادعٌ ويقولُ: هذا من أجلِ الدِّينِ. فيقعُ في الغيبةِ من أجلِ الدِّينِ، ويأكلُ أموالَ الناسِ بالباطلِ باسمِ الدِّينِ، وينتهكُ أعراضَ الغافِلين باسمِ الدِّينِ، وهذا كلُّه بسببِ سوادِ قلبِه.

لهذا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ -والحديثُ عندَ الترمذيِّ، مِن حديثِ الزبيرِ بنِ العوامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٤-٤٤٥)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، رقم (٤٩١٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٩)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٦٧)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٠).

والواقعُ أنَّ الذي نَراه ليسَ إفشاءَ سلامٍ، بل خلافُ ذلكَ، فهي قلوبٌ تحملُ العداوةَ والحقدَ؛ لذا لَمَّا قالَ الشَّافعي رحمه الله تعالى -وما أجملَ ما قالَ!-:

لَـمَّا عَفَـوْتُ وَلَمْ أَحْقِـدْ عَـلَى أَحَـدٍ ... أَرَحْتُ نَفْسِـي مِنْ هَـمِّ العَـدَاوَاتِ

إِنِّي أُحَيِّـي عَـدُوِّي عِنْـدَ رُؤْيَتِـهِ ... لِأَدْفَـعَ الشَّـرَّ عَنِّـي بِالتَّحِيَّـاتِ

وَأُظْهِـرُ البِشْـرَ لِلْإِنْسَـانِ أُبْغِضُـهُ ... كَأَنَّ مَـا قَـدْ حَشَـا قَلْبِـي مَحَبَّـاتِ[1]

والسُّبُلُ لدفعِ هذه الَّتي سمَّاها رسولُ اللهِ ﷺ: «مُنتِنة»:

السَّبيلُ الأوَّلُ: تغليبُ حُسنِ الظنِّ.

فلماذا دائمًا تعيشُ على سوءِ الظنِّ؟ لماذا قالَ فلانٌ هذه الكلمةَ، وغرَّدَ هذه التغريدةَ، وتصرَّفَ هذا التصرُّفَ، وكتبَ مقالًا قبلَ عِشرين سَنةً؟ ولماذا قالَ هذا؟ فهذا كلُّه تغليبُ سوءِ الظنِّ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ لَنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

وهناكَ أخطاء تأتِي بعدَ سوءِ الظنِّ، وهي الغِيبةُ، والنميمةُ، والحسدُ، والتجسُّسُ، والتحسُّسُ، والتباغضُ والتدابرُ، كلُّ ذلكَ أخبرَ به النبيُّ ﷺ، قالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما جاءَ في (صحيح البخاريِّ) مِن حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»[2].

(١) عزاه للشافعي؛ الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص:١٨٢)، والبيهقي في مناقب الشافعي (٢/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم (٦٠٦٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس، رقم (٢٥٦٣).

فسوءُ الظنِّ يأتي في المقدمةِ ويقودُ هذه الأخطاءَ وراءَه، فالذي يُسيءُ الظنَّ سيَبحثُ عن شيءٍ يتحسسُ ويتجسسُ؛ فإذا وجدَ تكلمَ به؛ وإذا تكلَّمَ به حصَلَتِ البغضاءُ؛ وإذا حصلَتِ البغضاءُ حصلَ التباغضُ والتدابرُ.

لذا كانَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: «لَا تَظُنَّ كلمةً خرجَت من أخيكَ شرًّا وأنتَ تجِدُ لها في الخيرِ محملًا»[(١)].

ويقولُ أبو قِلابةَ -رحمه الله تعالى-: «إذا بلغَكَ عن أخيكَ شيءٌ تكرهُه فالتَمِسْ له العذرَ جهدَك، فإن لم تجِدْ له عذرًا فقُلْ في نفسِك: لعلَّ لأخي عُذرًا لا أعلمُه»[(٢)].

وقد كانَ أناسٌ يأتون مجلسَ الحسنِ البصريِّ -رحمه الله تعالى- حينما يتكلَّمُ ويعظُ ويحاضرُ ويخاطبُ، ليتصيَّدوا أخطاءَه، فجاءَ رجلٌ يخبرُ الحسنَ البصريَّ بهذِه الآفةِ قالَ: إنَّ الناسَ يأتون مجلسَك ليأخذوا سقطَ كلامِك؛ فيَجدوا الوقيعةَ فيك. فقالَ الحسنُ البصريُّ: «هوِّنْ عليكَ» أي: لا تنزعِجْ « فإني أطمَعْت نفسِي في جوارِ اللهِ فطمِعَت، وأطمَعْت نفسي في الجِنانِ فطمِعَت، وأطمَعْت نفسي في الحُورِ العِينِ فطمِعَت، وأطمَعْت نفسي في السلامةِ منَ الناسِ فلم أجِدْ إلَّا ذلك سبيلًا».

ثُم قالَ -رحمه الله تعالى-: «إنِّي لَمَّا رأيتُ الناسَ لا يرضون عن خالِقِهم علِمْت أنَّهم لا يرضَوْن عن مخلوقٍ مثلِهم»[(٣)] وهذه تربيةٌ واضحةٌ، فإنَّك إذا عشتَ على سُوء الظن ستتعبُ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مداراة الناس رقم (٤٥)، والمحاملي في الأمالي رقم (٤٦٠)، وأبو طاهر المخلص في المخلصيات (٤/ ٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في مداراة الناس رقم (٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٨٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٠٥)، والبيهقي في الزهد الكبير رقم (١٧٠).

السبيلُ الثاني: ترفَّعْ وأعرِضْ عنِ الجاهِلين.

فإذا ابتُلينا في هذا الزمنِ بأُناسٍ سُفهاءَ سذَّجٍ أقزامٍ يقودون حملةً شعواءَ في تفريقِ الأُمةِ، فلنَدَعْهم، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وقالَ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ -والحديثُ عندَ أحمدَ في مسندِه-: «**وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيكَ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ فِيهِ، وَلَا تَشْتِمَنَّ أَحَدًا**»[(١)].

وما أجملَ ما قالَه الشافعيُّ -رحمه الله تعالى-؛ حيثُ قالَ:

يُخَاطِبُنِي السَّفِيهُ بِكُلِّ قُبْحٍ ... فَأَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ مُجِيبَا

يَزِيدُ سَفَاهَةً فَأَزِيدُ حِلْمًا ... كَعُودٍ زَادَهُ الإِحْرَاقُ طِيبًا[(٢)]

وقالَ:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ

فَإِنْ كَلَّمْتَهُ فَرَّجْتَ عَنْهُ ... وَإِنْ خَلَّيْتَهُ كَمَدًا يَمُوتُ[(٣)]

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٦٣)، وأبو داود: كتاب اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار، رقم (٤٠٨٤)، من حديث جابر بن سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ديوان الشافعي (ص:٣٣).

(٣) ديوان الشافعي (ص:٣٩).

وقَدْ يقولُ عنكَ الناسُ: إنكَ ضعيفٌ لا تَستطِيعُ أن ترُدَّ. فلا تَلتفِت لقَوْلهم بَلْ أنتَ قويٌّ إذا ملَكْت نفسَكَ، كما قالَ الشَّافعيُّ -رحمه الله تعالى-:

قَالُوا سَكَتَّ وَقَدْ خُوصِمْتُ قُلْتُ لَهُمْ ... إِنَّ الجَـوَابَ لِبَـابِ الشَّـرِّ مِفْتَـاحُ

فَالصَّمْتُ عَنْ جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقٍ شَرَفٌ ... وَفِيهِ أَيضًا لِصَوْنِ العِـرْضِ إِصْـلَاحُ

أَمَا تَرَى الأُسْدَ تُخْشَى وَهْيَ صَـامِتَةٌ ... وَالكَلْبُ يَخْسَى لَعَمْرِي وَهْوَ نَبَّاحُ[1]

السبيلُ الثالثُ: الرحمةُ بالموافقِ وبالمخالفِ.

فكما أنَّنا مأمورون أَنْ نرحمَ الموافقَ، فلْنَرحَمْ أيضًا المخالفَ، وكم هي جميلةٌ تلكَ الكلمةُ التي قالها الخليفةُ الراشدُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حينما قال: «القلوبُ وحشيَّةٌ، فمَنْ تألَّفها أقبَلَت عليهِ».

وقد أخذَ ذلك من كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩] أي: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ؛ الَّذي كمَلَ في خلقِه، المؤيدَ بالرسالةِ والوحيِ والنبوةِ والمعجزاتِ، لو كان غليظَ القلبِ لانفَضُّوا من حولِه، فكيفَ بي وبكَ؟

وقد أخذَ ذلك أيضًا من مشكاةِ النبوةِ على صاحبِها الصلاة والسلام؛ حينَما قال رسولُ اللهِ ﷺ في هذا الحديثِ العظيمِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَضَعُ اللهُ رَحْمَتَهُ إِلَّا عَلَى رَحِيمٍ» قالوا: كلُّنا يرحمُ. قالَ: «لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ، يَرْحَمُ النَّاسَ

(١) ديوان الشافعي (ص:٥١).

كَافَّةً»[1]، فلْيَكُن هذا الحديثُ لنا منهجًا نتعاملُ به مع الخلقِ.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكمُ اللهُ- على نبيِّ الهدَى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ إِذْ يقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم (٤٢٥٨)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٥٤٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢٢)

السائِرون إلى اللهِ

ما مِنَّا مِن أحدٍ إلَّا وهو سائرٌ، وما منَّا مِن أحدٍ إلَّا وهو متحرِّكٌ، بيدَ أن الفرقَ بينَ الناسِ أنَّ مِنهم مَن هو سائرٌ إلى اللهِ، ومنهم مَن هو سائرٌ إلى غيرِه.

منهم مَن هو سائرٌ إلى اللهِ بعملِ الطاعاتِ، وفي جمعِ الحسَناتِ.

ومِنهم مَن هو سائرٌ إلى غيرِ اللهِ بعملِ الخطيئاتِ، وجمعِ السيئاتِ.

فالكلُّ سائرٌ لكِنَّ جهةَ سيرِهم مختلفةٌ.

وبيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ هؤلاءِ الناسِ مِنهم مَن هو متقدِّمٌ إلى الخيراتِ، ومِنهم مَن هو متأخِّرٌ عنِ الخيراتِ والطاعاتِ إلى السيئاتِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣٢-٣٧].

فالناسُ متحرِّكون سائِرون، مِنهم مَن يتقدمُ إلى الأمامِ، ومنهم مَن يسيرُ إلى الخلفِ، كما قالَ ابنُ كثيرٍ -رحمه الله تعالى- في (تفسيره): ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ قال: «أي: ﴿لِمَن شَآءَ﴾ لمَن شاءَ أن يقبلَ النذارةَ ويهتديَ للحقِّ، ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنها ويولِّيَ ويردَّها»[(١)].

ولابنِ القيمِ -رحمه الله تعالى- كلامٌ قيمٌ في كتابِه الماتعِ (مدارج السالكين) حيثُ قالَ: «فإنْ لم يكُنْ في تقدُّمٍ فهو متأخِّرٌ ولا بدَّ، فالعبدُ سائرٌ لا واقفٌ، فإمَّا إلى

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٨١).

فوقُ وإمَّا إلى أسفلُ، وإمَّا إلى أمام وإمَّا إلى وراءُ، وليسَ في الطبيعةِ ولا الشريعةِ وقوفٌ البتةَ...» إلى أَنْ قال -رحمه الله تعالى-: «وإنَّما يتخالَفون في جهةِ السيرِ، وفي السُّرعةِ والبُطءِ»[1].

وقد جاءَ في كتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما يُبيِّنُ هذه الحقيقةَ؛ أنَّ الناسَ بينَ متقدِّمٍ وبينَ متأخِّرٍ، المتقدِّمون همُ الذين سيُقدِّمون بين يدَيْ ربِّهم يومَ القيامةِ أعمالَهُم، والمتأخِّرون همُ الَّذين سيَعلَمون ماذا أخَّروا منَ العملِ؛ قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:١-٥].

وقالَ سبحانه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:٧-١٣].

إذْ هذه هي الحياةُ لا وقوفَ فيها أبدًا، كما قالَ الشَّافعي -رحمه الله تعالى- وهو يُبيِّن أنَّه لا وقوفَ أبدًا، فإذا وقفَ الإنسانُ ماتَ، إذْ ليسَ في الطبيعةِ وقوفٌ البتةَ، إمَّا إلى أَمامٍ وإمَّا إلى وراءَ، كما قالَ الأولُ في أبياتٍ جميلةٍ:

والأُسْدُ لَوْلَا فِرَاقُ الغَابِ مَا افْتَرَسَتْ ... وَالسَّهْمُ لَوْلَا فِرَاقُ القَوْسِ لَمْ يُصِبِ

وَالشَّمْسُ لَوْ وَقَفَتْ فِي الفُلْكِ دَائِمَةً ... لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ[2]

فليسَ هناكَ وقوفٌ وإنما هيَ حركةٌ.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧٨).

(٢) انظر: ديوان الشافعي (ص:٣٦).

فإذا علِمْت هذه الحقيقةَ فأيُّ الطريقين تختارُ؟! هل تختارُ أن تكونَ مع المتقدِّمين- أقصدُ (المتقدِّمَ) على المصطلحِ الشرعيِّ؛ لا على المصطلَحِ العلمانيِّ الخبيثِ؛ حيثُ يَرى الناسُ أنَّ الإنسانَ الطائعَ لربِّه المتقرِّبَ إليه بالطاعاتِ رَجعيٌّ متأخِّرٌ متخلفٌ، ويرونَ أنَّ المنفلِتَ المتمردَ على شرعِ اللهِ تَقدُّميٌّ.- أو تكونَ معَ المتأخِّرين؟

وقَدْ جعلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الخيارَ لكَ؛ حيثُ قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الكهف:٢-٣].

وقالَ سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: الطريقَيْن: طريقَ الخيرِ، وطريقَ الشرِّ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد:٨-١١].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**النَّاسُ غَادِيَانِ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»(١)، فمَنْ جعلَ القرآنَ أمامَه قادَه إلى طريقٍ، ومَن جعلَ القرآنَ خلفَ ظهرِه ساقَه إلى طريقٍ؛ هكذا يقولُ ﷺ -كما جاءَ عندَ الطبرانيِّ-: «**القُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ**»(٢).

فالقرآنُ إمَّا قائدٌ يقودُنا إلى الجنانِ، وإمَّا سائقٌ يسوقُ الناسَ إلى النيرانِ.

قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢١)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٩٨، رقم ١٠٤٥٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٠٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف:١٤٦]، فسبيلُ الرشدِ واضحٌ، وسبيلُ الغيِّ واضحٌ، والخيارُ لكَ أنتَ، فإذا اخترْت الطريقَ إلى اللهِ، واخترْت السيرَ إلى اللهِ؛ فاعلَمْ أنَّ عامِلَ الوقتِ مهمٌّ، وأنَّ الأعمارَ تنقضِي؛ لذا فعليكَ بالإسراعِ، فلا يكفي أَنْ تختارَ السيرَ إلى اللهِ، بَلْ أَنْ تختارَ هذا الطريقَ وتُسرعَ فيه؛ فالمطلوبُ ليسَ الاختيارَ فحسبُ، وإنَّما الإسراعُ فيه؛ لذا يقولُ الحسنُ -رحمه الله تعالى-: «أيجعلُ اللهُ عبدًا أسرعَ إليه كعبدٍ أبطَأَ عنه»[(١)].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ -كما جاءَ في صحيح مسلمٍ-: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[(٢)].

وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آياتٍ كثيرةٍ منها هذه الآيةُ العظيمةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: عندَهم صيامٌ، وصلاةٌ، وزكاةٌ، وحجٌّ، وبرُّ والِدين ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١].

فالسَّيرُ إلى اللهِ واتخاذُ هذا السبيلِ هو المطلوبُ منك، كما أن العبدَ مطلوبٌ منه أن يسرعَ إلى اللهِ ويتقربَ إليه بصنوفِ العباداتِ؛ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حذَّرَنا منَ التراخي والضعفِ والتراجعِ إلى الخلفِ، فكما قلت: إمَّا أن يتقدمَ أو يتأخَّرَ.

والنبيُّ ﷺ يرغبُ في التقدمِ، والأحاديثُ في ذلكَ كثيرةٌ؛ حيثُ يرغِّبُنا ﷺ أن نكونَ معَ المتقدِّمين في كلِّ شيءٍ؛ فإنْ برَّ إخوانُك والدَيْك كُن أنتَ المتقدمَ عليهم،

(١) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٥٩٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢١١، رقم ٦٠٣٨)، والحاكم (٣/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإِنْ أحسنَ زملاؤُك في العملِ وأَتْقنوا فكُنْ أنتَ الأتقنَ وتقدَّمْ عليهم، إِنْ قدمَ الناسُ على الطاعاتِ فكُنْ أنتَ المتقدمَ عليهم.

وهاهنا أحاديثُ ذكرَها النبيُّ ﷺ:

قالَ ﷺ -كما جاءَ في (صحيح ابنِ حبانَ)-: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الْمُقَدَّمَةِ**»(١)، فيرغبُنا بذلِك في التقدمِ، يربِّينا على أَنْ نتقدَّمَ.

وقالَ ﷺ: «**مَا مِنْ خُطْوَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ خُطْوَةٍ مَشَاهَا رَجُلٌ إِلَى فُرْجَةٍ فِي صَفٍّ فَسَدَّهَا**» رواه الطبرانيُّ في (معجمه الأوسط)(٢).

وهذه تربيةٌ لنا على أن نتقدَّمَ ولا نتأَخَّرَ، وعلى أن نتحرَّكَ ولا نتوقَّفَ، فإِنَّ الإنسانَ الذي يتوقفُ إنسانٌ سلبيٌّ؛ حتَّى في هذه الأشياءِ التي تَظنُّها بسيطةً؛ كأَنْ تخطوَ أمامَك لتسُدَّ فُرجةً، فهذه أعظمُ الخُطى، هكذا أخبرَ ﷺ.

وفي المقابلِ حذَّرَ ﷺ منَ التأَخُّرِ؛ حيثُ قالَ: «**احْضُرُوا الذِّكْرَ، وَادْنُوا مِنَ الإِمَامِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَزَالُ يَتَبَاعَدُ حَتَّى يُؤَخَّرَ فِي الجَنَّةِ وَإِنْ دَخَلَهَا**»(٣).

فدِينُنا يربِّينا على أن نَكونَ متقدِّمين في كلِّ شيءٍ:

- في العِلمِ.
- وفي الطاعةِ.

---

(١) أخرجه ابن حبان رقم (٢١٦١)، والنسائي: كتاب الإمامة، باب كيف يقوم الإمام الصفوف، رقم (٨١١)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٥٢١٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١١)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدنو من الإمام عند الموعظة، رقم (١١٠٨)، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- وفي التقنيةِ والصناعةِ.
- وفي السلوكِ والأخلاقِ.
- وفي العطاءِ.
- وفي البِرِّ.

فهذا الدِّينُ يريدُ أَنْ يُربِّينا على أن نَكونَ معَ السابِقين المسارِعين الَّذين يَتَّخِذون سبيلَ الرشدِ سبيلًا لهم.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحِمكم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائِلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

(٢٣)

المعلمُ الناجحُ

إنَّ مهنةَ التعليمِ هي مِن أجلِّ وأشرفِ وأرفعِ المهنِ، والمعلمُ في مهنتِه يَبني عقولًا وأنفسًا، والسببُ في ذلكَ أنَّ مِن أُسُسِ نَهضةِ الأممِ صلاحَ مهنةِ التعليمِ، ومعرفةَ قدرِ المعلمِ.

لذا نجدُ أنَّ في هذِه الشريعةِ الغراءِ وفي هذا الدينِ العظيمِ جُعِلَ للمعلمِ مكانةٌ رفيعةٌ؛ وجاءَتْ في ذلكَ الأحاديثُ، منها قولُ النبيِّ ﷺ -كما جاءَ عندَ الطبرانيِّ في مكارمِ الأخلاقِ من حديثِ عُبادةَ بنِ الصامتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»[(١)]، والمعلمُ يدخلُ في دائرةِ العالِمِ؛ لأنه يعلمُ الناسَ.

لذا قالَ أميرُ الشعراءِ[(٢)]:

قُــمْ لِلْمُعَلِّــمِ وَفِّــهِ التَّبْجِــيلَا ... كَــادَ الْمُعَلِّــمُ أَنْ يَكُــونَ رَسُــولَا

أَعَلِمْــــتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَــــلَّ ... مِنَ الَّذِي يَبْنِي وَيُنْشِئُ أَنْفُسًا وَعُقُولَا

سُئِلَ الإسكندرُ -هذا الرجلُ العظيمُ الذي عَرَفَ وتَعرَّفَ مَن يستحقُّ التعظيمَ من أصحابِ المهنِ- قيلَ له: إنَّك تعظمُ معلمَك أعظمَ مِن تعظيمِك لأبيكَ؟ قالَ: «أبي سببٌ لحياتي الفانيةِ، ومعلِّمي ومؤدِّبي سببٌ لحياتي الباقيةِ»[(٣)].

---

(١) مكارم الأخلاق للطبراني رقم (١٤٧)، وأخرجه أيضا أحمد (٥/ ٣٢٣).

(٢) الشوقيات (١/ ١٨٠).

(٣) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص:١٣٧)، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (١/ ٦٦).

وانظُرْ إلى الدولِ المتقدمةِ -الَّتي تبعثُ لنا بصناعتِها وبهذه التقنياتِ المتقدمةِ- كيفَ بزَّتْ وظهَرَت في عمرٍ قصيرٍ.

لقد سُئلَ الإمبراطورُ اليابانيُّ: كيفَ استَطَعْتم أَنْ تَتقدَّموا هذا التقدمَ الذي أبهرَ العالَمَ في وقتٍ قصيرٍ؟ فأجابَ بإجابةٍ قصيرةٍ قالَ فيها: «بدَأْنا من حيثُ انتهى الآخَرون، واستفَدْنا من أخطاءِ غيرِنا» وهذا كلامٌ عامٌّ يقولُه كلُّ صاحبِ قرارٍ في مجتمعاتِنا الإسلاميةِ؛ لكنَّ الثالثةَ: «ومنَحْنا المعلمَ حصانةَ الدبلوماسيِّ وراتبَ الوزيرِ». فتقدَّموا على أرضِ الواقعِ.

لذا تجدُ المعلمَ في المجتمعِ اليابانيِّ يأتي في الدَّرجةِ الثانيةِ بعدَ الإمبراطورِ؛ ولهذا تقدَّمَت تِلْك الأُمَّة.

وهكذا لَمَّا أضربَ القضاةُ في ألمانيا عن العملِ وقالوا: لا نكسِرُ هذا الإضرابَ حتَّى تساوُونا برواتبِ المعلِّمين، فخَرَجَت لهمُ المستشارةُ الألمانيةُ (ميركل) وقالَتْ لهم جملةً وسكتَتْ: «كيفَ أُساوِيكم بمَنْ علَّموكم؟!».

عرَفت أممُ الغربِ الكافرِ كيفَ تتعاملُ معَ الحياةِ فارتَفَعت، وجهِلْنا نحنُ كيفَ نتعاملُ؛ لذا تجدُ المعلمَ في مجتمعاتِنا الإسلاميةِ لا يزالُ يراوحُ مكانَه، ومكانتُه الاجتماعيةُ، وحالتُه الإنسانيةُ، ووضعُه الماديُّ لا يزالُ على حالِه، كما قالَ الأولُ:

مَـــرُّوا عَلَيْـــهِ وَجَـــاوَزوه كَـــأَنَّما ... خُلِـــقَ المعلِّـــمُ للتَّســـلُّقِ سُـــلَّما

ومع ذلك نقولُ للمُعلِّمِ:

إذا هُضِمَت حقوقُك في الدنيا فاعلَمْ أنَّ النبـيَّ ﷺ قالَ لكَ ما يجعلُ هذه النفوسَ تطمئنُّ وتسعَى وتتحفَّزُ للمزيدِ منَ العطاءِ؛ حيثُ قالَ، كما جاءَ في الحديثِ

الصحيح حديثِ أبي أُمامـةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قالَ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَـتَهُ وَأَهْلَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّـى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّـى الحُوتُ لَيُصَلُّـونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ»[(١)].

فكلُّ هذا الكونِ يتفاعلُ مع تعليمِك، فإن كنتَ علَّمْت في مدرسةٍ، أو جامعةٍ، أو معهدٍ، أو مركزٍ، أو محلٍّ تُعلِّمُ فيه الصغارَ أو الكبارَ أو الجالياتِ، فإنَّ هذه المخلوقاتِ العظيمةَ تصلِّي عليك، بل يُصلِّي عليكَ الخالقُ سبحانه؛ وصلاةُ اللهِ ثناءٌ عليكَ.

بل قَدْ يموتُ المعلِّمُ وتبقَى أجورُه تتبعُه في قبرِه؛ فقَدْ قالَ النبيُّ ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[(٢)].

وأحسبُ أن المعلِّمَ قد حازَه كلَّه: «صَدَقة جارية» بتعليمِه، «وعِلم يُنتَفَعُ به» وهَذا ملاحَظٌ ومشاهَدٌ، «ووَلَدٍ صالِحٍ يَدْعو لَهُ» فلا تزالُ ألسِنتُنا تدعو لمعلِّمِنا: اللهُمَّ اجزِ عنَّا كلَّ مَن علَّمَنا خيرًا، أو سعَى معنا لحظةً من التعليمِ خيرَ الجزاءِ، اللهمَّ ارفَعْ درجتَه في علِّيِّين.

ولا أزالُ أذكرُ أَنَّني لم أترُكِ الدعاءَ لبعضِ المدرِّسين الذينَ كان لهم فضلٌ عليَّ، ولم أصِلْ إلى ما أنا فيه إلَّا بفَضْلِ الله ثُمَّ بسبَبِ معلِّمٍ علَّمَني، وأعطاني من وقتِه وجهدِه، وسعَى في تحصيلي حتَّى وصَلْت إلى ما وصَلْت إليه، فأنا مَدينٌ لكلِّ معلمٍ علَّمني.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

مَعَ ذلكَ نقولُ: إنَّ المعلمَ إذا أرادَ أن يكونَ ناجحًا في تعليمِه -حتَّى وإن رأى تقصيرًا من المجتمعِ من حولِه- فلا بدَّ أن يلتزمَ صفاتٍ، منها:

الصفةُ الأولى: الإخلاصُ.

فلا بُدَّ أن يكونَ في عَمَلِه مخلصًا، يَبتغي الأجرَ منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتَّى وإن كان يَتقاضَى على ذلك راتبًا وأجرًا على تعليمِه؛ فإنَّه إذا احتسبَ الأجرَ منَ اللهِ فازَ، والمخلصُ متقنٌ وأمينٌ، ويحاسبُ نفسَه قبلَ أن تحاسِبَه إدارةُ المدرسةِ، أو إدارةُ الجامعةِ، أو إدارةُ المعهدِ.

وقد قالَ نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»(١).

وقالَ أحدُ علماءِ السلفِ: «إني لأحتسبُ في كلِّ شيءٍ نيةً، في نومي وأكلي وشُربي ودُخولي الخلاءَ».

فأوصيكَ -أيُّها المدرسُ- إذا أرَدْت النجاحَ أن تجعلَ عملَك خالصًا للهِ سبحانه؛ لذا إذا جاءَتْك الطعناتُ مِن كلِّ جانبٍ فلا تلتَفِتْ لها؛ لأنَّك ترى اللهَ في عملِك.

الصفةُ الثانيةُ: الصدقُ.

فلا بُدَّ أن يكونَ صادقًا في تدريسِه، لذا لا تزالُ ذاكرتُنا تحملُ أسماءً لامعةً كانت في المدرسةِ أو في الجامعةِ لمعلِّمين صادِقين، أو لمعلِّمين كاذِبين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**»، رقم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمعلمُ الصادقُ ليسَ في قولِه فحسبُ، بل في قولِه وفعلِه، وفي تدريسِه ونقلِه هذه الرسالةَ العظيمةَ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

ويقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يومَ القيامةِ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة:١١٩]. فالصادقُ هنا يصدقُ هناك.

الصفةُ الثالثةُ: الأمانةُ.

فلا بُدَّ أن يكونَ أمينًا على هذا النشْءِ الَّذي بينَ يديه، حيثُ يبقى نشؤُنا وأبناؤُنا في محاضِنِ المربِّين أكثرَ ممَّا يبقَوْن معنا، فهم يَقضون في اليومِ أكثرَ من سَبعِ ساعاتٍ عند المعلِّمِ، وهذا أكثرُ ممَّا يجلِسون معَ آبائِهم.

فهذه أمانةٌ بين يديك -أيُّها المعلمُ-، فحينَما تراهُمُ استذكِرْ قولَ الحقِّ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون:٨، المعارج:٣٢]، وقولَ اللهِ سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧].

وقالَ النبيُّ ﷺ -كما جاءَ في صحيح مسلمٍ-: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**»(١).

فلا تغشَّ في تعليمِك وفي حَمْلِ رسالتِك، ولتتذكَّرْ أنَّ حاملَ الرسالةِ الأُولى هو محمدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، رقم (٧١٥٠ - ٧١٥١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم (١٤٢)، من حديث معقل بن يسار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وحينَما وقفَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَبني البيتَ ويساعدُه إسماعيلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانَ من جملةِ ما دعَوَا به قالَا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

وكانت أوَّلُ الآياتِ نزولًا على النبيِّ ﷺ المعلِّمِ الأولِ الأمينِ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

وذلكَ لأنَّ هذا الدِّينَ يربِّينا على أنَّ الأممَ لا تنهضُ إلَّا برسالةِ التعليمِ، ورسالةُ التعليمِ لا تنهضُ إلَّا بأمانةِ المعلِّمِ.

الصفةُ الرابعةُ: أَنْ يطابقَ قولُه فعلَه.

فلا يقولُ شيئًا ويفعلُ شيئًا، ولا يأمرُ بشيءٍ ويخالفُه، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، فهُنا يأمرُنا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن نُطابقَ هذه الأقوالَ معَ هذه الأفعالِ.

فيا أيُّها المعلمُ إذا نَهَيْتَ عنِ التدخين فلا تدخِّنْ، وإذا أمَرْت طلَّابَك بالصلاةِ فصَلِّ قبلَهُم، وإذا أمَرْتَهم بحُسنِ المنطقِ والكلامِ فكُنْ أنتَ أوَّلَهم.

كما قالَ الأولُ:

يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ الْمُعَلِّـمُ غَـيْرَهُ ... هَـلَّا لِنَفْسِـكَ كَـانَ ذَا التَّعْلِـيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى ... كَـيْمَا يَصِـحُّ بِـهِ وَأَنْـتَ سَـقِيمُ

ابْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فَانْهَهَـا عَـنْ غَيِّهَـا ... فَـإِنِ انْتَهَـتْ فَأَنْـتَ حَكِـيمُ

لَا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِثْلَـهُ عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِـيمُ[1]

الصفةُ الخامسةُ: العدلُ.

فلا بُدَّ أن يكونَ عادلًا في طلابِه، فلا يُحابي هذا لأنه ابنُ ذاكَ، ولا يظلمُ هذا لأنَّه ابنُ ذاك، وإنَّما يعاملُهم سواءً، ولا يلحقُ عداوتَه لفلانٍ بالإضرارِ بأبنائِه، أو يُلحقُ كرهَه للجماعةِ الفلانيةِ بالإضرارِ بأبنائِها، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل:٩٠]، ويقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

وقالَ مجاهدٌ -رحمه الله تعالى- وهو إمامٌ من أئمةِ التفسيرِ: «المعلمُ إذا لم يعدِلْ بينَ الصِّبيانِ كُتِبَ منَ الظلمةِ»[2]، إذَنْ: فعليهِ أن يعدلَ في كلِّ شيءٍ في درجاتِه، وفي قولِه، وفي تدريسِه، فإذا التَفَتَ لهذا التَفَتَ لذاكَ، وإذا ابتسَمَ لهؤلاءِ ابتَسَمَ لأولئكِ.

الصفةُ السَّادسةُ: حُسْنُ الخُلُقِ.

فكلَّما كانَ خلقُ المعلمِ حسنًا ارتفعَ ورفَعَ مَن معَه، وكلَّما كانَ وضيعًا دنيئًا اتَّضَعَ مَن معَه.

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص:٣٤)، وجامع بيان العلم لابن عبد البر (١/ ٦٧٤)، وتاريخ دمشق (٣٤/ ١٥٩)، وشرح شذور الذهب لابن هشام (ص:٣١٠)، ونسبها لأبي أسود الدؤلي.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير (٢/ ٣٥٧، رقم ١٠٧)، وابن أبي الدنيا في العيال رقم (٣٥٥)، وابن الأعرابي في معجمه رقم (٢٢٨٥)، عن الحسن البصري.

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأشرفِ الخلقِ المعلِّمِ الأوَّلِ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] أي: لهجَروكَ وكرِهوكَ؛ وهو النبيُّ المرسَلُ من أُولي العزمِ منَ الرسلِ، والمزكَّى، والمصطفَى، ومعَ ذلِكَ يقولُ له ربُّه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

فإنْ قالَ المعلمُ: لكنَّني بشرٌ أحملُ إحساسًا ومشاعرَ؛ وهؤلاءِ الطلابُ يُغضِبونني، ويُخرجونَني عَن طَوْري؛ فأغضبُ عليهم وأُسمِعُهم كلامًا بذيئًا.

قلت: لا تفعَلْ؛ لأنَّنا قرَّرْنا -فيما تقدمَ- أن يكونَ عملُك خالصًا لوجهِ اللهِ، فتعليمُك هذا دِينٌ، وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ حاملُ رسالةِ هذا الدِّينِ: «مَا مِنْ جَرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ كَتَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ»[(١)].

فإذا أُغضِبْت تَجرَّعِ ابتغاءَ وجهِ اللهِ، واعفُ عنهم لوجهِ اللهِ، وعامِلْهم بأخلاقِك ولا تعامِلْهم بأخلاقِهم، فارتفِعْ بهم ولا تنزِلْ إلَيْهم.

ختامًا: المعلمُ يحملُ أشرفَ المهنِ، وأعلاها درجةً؛ فالناسُ يَبنُونَ البيوتَ والقُصورَ، وهو يَبني هذه العقولَ والأفكارَ.

أسألُ المولَى الكريمَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يَبنيَ لمعلِّمِينا وأساتِذتِنا والقائمينَ على المؤسَّساتِ العِلميةِ والتربويةِ في بلادِنا قصورًا في الجَنةِ، وأن يُعليَ درجاتِهم في جناتِ النعيمِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحلم، رقم (٤١٨٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكُمُ اللهُ- على نبيِّ الهدَى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ وزِدْ وبارِكْ على عبدِك ورسولِك نبيِّنا محمدٍ واعرِضْ عليه صلاتَنا إلى يومِ الدينِ.

• • k • •

(٢٤)

ومِن شرِّ حاسدٍ إذا حسدَ

إنَّ الأممَ تُبتلى بأنواعٍ منَ الأدواءِ؛ فيصيبُ بعضُ هذه الأدواءِ الأفرادَ والجماعاتِ، ومِن هذهِ الأدواءِ الَّتي تُبتلى بها الأممُ وتصيبُ بعضَ أفرادِها: داءُ الحسدِ، وهو داءٌ عضالٌ إذا ابتُلِيَ به إنسانٌ هلكَ.

وقد حذَّرَ منه ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وبيَّنَه في كتابِه الكريمِ في مواضعَ متعدِّدةٍ منها أنَّه قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٥٤].

فقَدْ يُحسَدُ الإنسانُ على مالٍ آتاهُ اللهُ، أو قد يُحسَدُ على عافيتِه وصحتِه، وقد يُحسَدُ على صلاحِ أبنائِه ونجابتِهم، وقد يُحسَدُ على حالِ الاطمئنانِ والاستقرارِ في بيتِه، وقد يُحسَدُ على جاهِه، وربَّما يُحسدُ على دِينِه، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:١٠٩].

وهذا الداءُ العضالُ له قاعدةُ انطلاقٍ، وهي القلبُ؛ لذا كلَّما تواجدَ الحسدُ في القلبِ خرجَ الإيمانُ، فبقدرِ ما فيه من حسَدٍ يضعفُ الإيمانُ، وبقَدرِ ما فيه من إيمانٍ يتلاشى الحسدُ، وقد قالَ نبيُّنا ﷺ: «وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ وَالحَسَدُ»[1].

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، رقم (٣١٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والحسدُ هو آكِلُ الحسناتِ الَّتي يسعَى الإنسانُ في جمعِها؛ في حجٍّ، وصيامٍ، وصدقةٍ، وقراءةِ قرآنٍ، وحضورِ جُمَعٍ وجماعاتٍ، فإذا وقعَ في هذا الداءِ وابتُلِيَ به أكلَ حسناتِه.

يقولُ ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ، وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ. وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ»[1] أي: تذهبُ بهذه الحسناتِ المجموعةِ.

والعربُ تقولُ: «لا يخلو جسَدٌ من حسَدٍ، ولكنَّ اللئيمَ يُبديه والكريمَ يُخفيه»؛ لذا تجدُنا في الاستعاذةِ نَقولُ: «مِن شرِّ حاسِدٍ إذا حسَدَ» فهذا الجسدُ فيه حسدٌ ولا يضرُّه؛ ولكِنَّه إذا أَبداه تضرَّرَ به هو والمحسودُ.

وكونُنا نعيشُ في مجتمعاتٍ يَرِدُ فيها الحسدُ -فقد يَكونُ الحاسدُ أقربَ الناسِ إليك والدًا أو ولدًا، أوجارًا أو مصلِّيًا معَك، أو زوجةً أو زوجًا- فهُناك حُصونٌ منيعةٌ نَتَّقي بها هذا الحسدَ، منها:

الحصنُ الأولُ: أن تُخفيَ نِعمَكَ الَّتي تَتنعَّمُ بها عن الحاسدِ.

لا عن كلِّ الناسِ؛ لأنَّ هناكَ مَن يبالغُ من الناسِ؛ فلا يتحدَّثُ بنعمةٍ عندَه، ولا يظهرُ نعمةً تفضَّلَ اللهُ بها عليه، ويبالغُ في إخفاءِ النعَمِ، ويشكُّ في كلِّ شيءٍ، فلو تعثَّرَ، أو تلعثَمَ، أو ضاعَ منه شيءٌ قالَ: بسببِ فلانٍ أو فلانٍ. وهذه المبالغةُ غيرُ مرغوبةٍ؛ لكِنِ اكتِمْ نعمَ اللهِ عليك عن الحاسدِ، فنبيُّنا ﷺ يقولُ: «اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الحَوَائِجِ بِالكِتْمَانِ؛ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ»[1].

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٧)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٠)، من حديث الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٩٤، رقم ١٨٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٦)، والبيهقي في الشعب رقم (٦٢٢٨)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا رأَيتَ مَن عُلِمَ منه الحسدُ غمِّ عنه حاجتَك؛ لذا العربُ تقولُ: «إذا سرَّك أن تسلَمَ من الحاسدِ فغَمِّ عليه أمرَك»، لكِنْ ليس عن كلِّ الناسِ؛ فيصبحُ الإنسانُ يعيشُ في حالةٍ من سوءِ الظنِّ والخوفِ واتِّهامِ الآخَرين.

الحِصنُ الثاني: عليكَ بالأذكارِ التي ورَدَت عَنِ النبيِّ ﷺ.

فهي ليسَتْ ترفًا، فتُعلَّقُ على الجدرِ، وتسطَّرُ في الكتبِ، ويحفظُها الناشئةُ في رياضِ الأطفالِ؛ إنما هي منهجٌ عمَليٌّ جاءَ بها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخيرِنا وصلاحِنا وفلاحِنا.

وليسَ المجالُ مجالَ ذِكرِ هذه الأذكارِ، لكِنْ حسبُك منها حديثٌ واحدٌ، قالَ ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، لَمْ تَفْجَأْهُ فَاجِئَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي لَمْ تَفْجَأْهُ فَاجِئَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُصْبِحَ**»[1]، فهذا ذِكرٌ يسيرٌ يسهلُ حفظُه.

فأَينَ نحن من هذا الحصنِ الحصينِ، هل إذا أصبَحْنا أولُ ما يَجري على ألسِنَتِنا هذه الأذكارُ، أو نَقرَأُ شيئًا آخرَ؟!

الحِصنُ الثالثُ: أن تُبعِدَ نفسَك عن أماكنِهم ومقارِّهم.

وذَلِك إذا كان ذلكَ مُمكنًا؛ فإن لم يكُنْ ممكِنًا ولا حولَ لكَ ولا قوَّةَ؛ فتحصَّنْ بما تقدَّمْ.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (١/ ٧٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم (٥٠٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح، رقم (٣٣٨٨)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح، رقم (٣٨٦٩)، من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالَ مُعاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كلُّ الناسِ أقـدرُ على رِضاه إلَّا حاسدُ نعمـةٍ؛ فإنَّه لا يُرضيه إلَّا زوالُها»[1] أي: أنَّك إذا عِشتَ مع إنسانٍ حاسدٍ وحاوَلْت أن تُداريَه بكلِّ شيءٍ وتتلطَّفَ إليه فإنَّ ذلكَ لا يُمكنُك من إرضائِه؛ لأنه لا يُرضيه إلَّا زوالُ هذه النعمةِ الَّتي تتنعَّمُ بها؛ لذا جاءَ من معاني الحسَدِ: هو تمنِّي زوالِ نعمةِ المحسودِ إلى الحاسدِ معَ السعيِ في نقلِها.

إذَنْ: هذا داءٌ بيَّنَه نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحذَّرَ مِنه، والعربُ تقولُ: «يَكفيكَ من الحاسدِ أنه يَغتمُّ في وقتِ سرورِك»، فحينَما تسرُّ بنجاحِ أبنائِك يغتمُّ هو، وحينَما تُسرُّ بمنزلٍ جديدٍ يغتمُّ هو، وحينما تُسرُّ بنجاحٍ في الحياةِ يغتمُّ هو، وهو بذلكَ يهلِكُ نفسَه.

فإذا تحرَّكَت نوازعُ الشرِّ في قلبِ الحاسد فعليه بهذِهِ الوصفات الثلاثِ حتَّى يخلِّصَ نفسَه من داءِ الحسدِ:

الوصفةُ الأولى: لا تتطلَّعْ إلى ما عندَ الناسِ الذين فُضِّلوا عليكَ.

واعمَلْ إلى أن تصلَ إلى مِثلِ ما وصلَوا، فهذا لا يَعيبُك، لكِنْ لا تمتدَّ هذه العينُ إلى ما عندَهم حسدًا؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»[1] وهذا منهجٌ يضعُه النبيُّ ﷺ، فإنَّك إذا نظَرْت إلى مَن هو فوقَك تعِبْتَ، فإنْ كانَ عندَك دارٌ نظَرت للذي عندَه دارانِ، وإن كانَ عندَك قصرٌ نظرت للَّذي عندَه قصرانِ، بلِ انظُرْ إلى مَن هو أسفلَ منكَ حتَّى ترتاحَ، وهذا هو توجيهٌ من النبيِّ ﷺ.

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة رقم (٦٥٧/ م).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٣/ ٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الوصفةُ الثانيةُ: إذا تحرَّكَت هذه النوازعُ السامَّةُ في قلبِك فبَرِّكْ مباشرةً.

فَقُلْ: ما شاءَ اللهُ. فقَدْ تَخرُجُ بعضُ الكلماتِ قد يكونُ الإنسانُ يمزحُ فيها، ويلاعبُ غيرَه فيها وبِها، فإنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيُبَرِّكْ عَلَيْهِ**»[(١)]، أي: يقولُ: ما شاءَ اللهُ، تباركَ اللهُ، تباركَ الرحمنُ. حتَّى لا يُصيبَه بداءِ الحسدِ والعينِ.

الوصفةُ الثالثةُ: عليكَ بتَنظيفِ قاعدةِ انطلاقِ الحسدِ الَّتي هي القلبُ.

فلمَّا سُئلَ رسولُ اللهِ ﷺ: أيُّ الناسِ أفضلُ؟ قال: «**كُلُّ مَخْمُومِ القَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ**»، قالوا: صدوقُ اللسانِ نعرفُه، فما مخمومُ القلبِ؟ قالَ: «**التَّقِيُّ النَّقِيُّ**» أي: المَليءُ بالتقوَى والنَّقاءِ «**لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**»[(٢)].

وهذه الوصفاتُ الثلاثُ إذا أخذَ بها الإنسانُ سلِمَ من داءِ الحسدِ، الَّذي أوَّلُ مَن يتضرَّرُ به الحاسدُ، قالَ الأصمعيُّ -رحمه الله تعالى-: سمِعْت أعرابيًّا يقولُ: «ما رأيتُ ظالمًا أشبهَ بمظلومٍ منَ الحاسدِ؛ حزنٌ لازمٌ، ونفسٌ دائمٌ، وعقلٌ هائمٌ، وحسرةٌ لا تَنقضي»[(١)].

فالحاسدُ يعيشُ في هذه الأربعِ؛ فهو في حُزنٍ دائمٍ لازمٍ، ونفسٍ دائمٍ، وعقلٍ هائمٍ، وحسرةٍ لا تَنقضي؛ لأنَّه ينظرُ في هذا، وينظرُ ما عندَ هذا، وينظرُ هناكَ فيتعبُ؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطب، باب العين، رقم (٣٥٠٩)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، رقم (٤٢١٦)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) انظر: الموشى لأبي الطيب الوشاء (ص:٥)، والفوائد المنتقاة للصوري (ص:٤٧)، وزاد المسير لابن الجوزي (١/ ١٠١). انظر: الموشى لأبي الطيب الوشاء (ص:٥)، والفوائد المنتقاة للصوري (ص:٤٧)، وزاد المسير لابن الجوزي (١/ ١٠١).

لأنَّ عقلَه هائمٌ يفكِّرُ فيما عندَ الناسِ، ولا يتمتَّعُ بما أوجدَ اللهُ بينَ يديه منَ النعمِ.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمَكُم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كِتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(٢٥)

أهلاً بالعشرِ

الإنسانُ في هذه الدُّنيا كالمسافرِ الَّذي لا يَدري متَى يَنتهي سفرُه، ولا يَدري متَى يضعُ رَحلَه، ولا يَدري متَى يَنتهي به الطريقُ.

وقد جاءَ في حديثِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ بمَنكبيَّ فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

وكانَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ -على إثرِ هذه المعلومةِ-: «إذا أمسَيْتَ فلا تنتظِرِ الصباحَ، وإذا أصبَحْت فلا تَنتظِرِ المساءَ، وخُذْ مِن صحَّتِك لمرضِكَ، وخُذْ مِن حياتِك لموتِكَ»[1].

فالإنسانُ في هذه الحياةِ الدنيا كالمسافرِ، والمسافرُ قنَّاصٌ للفرصِ، مسارعٌ للغنائمِ، سابقٌ للخيراتِ؛ كما ذكَرَ المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١].

ومِن هذه الفرصِ الَّتي هي في طريقِنا إلى اللهِ: مواسمُ الخيراتِ، وهي تَتكرَّرُ بين الفَيْنةِ والأُخرى، وهذه المواسمُ بالنسبةِ للمسافرِ كمحطَّاتٍ للتزوُّدِ على الطريقِ، والعاقلُ مَن يقِفُ عندَ المحطةِ يتزودُ منها، ويأخذُ منها ما ينتفعُ به، وغيرُ العاقلِ هو الَّذي يمرُّ بالمحَطَّةِ فيقولُ: أتزوَّدُ في التي تَليها. ثُم يقولُ بعدُ: أتزوَّدُ في الَّتي تلِيها. حتَّى ينقطعَ الطريقُ به في مفاوزِ الدنيا ولا يجدَ ما يَتزوَّدُ به.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب»، رقم (٦٤١٦).

ومِن هذه الفرصِ أيضًا: العشرُ الأوائلُ مِن شهرِ ذي الحِجةِ، فهي أيامٌ مباركةٌ، مَن بلَغَها وأدرَكَها وعمِلَ صالحًا فيها فهو من المُفلِحين، ومَن بلَغَها وأدرَكَها فلَمْ يَعمَلْ صالحًا فهو الخاسرُ الخسرانُ المبينُ.

كَمْ مِن واحدٍ منَّا سيُدرِكُ هذه العشرَ؛ وأنفسٌ كثيرةٌ ستَموتُ قبلَ إدراكِها؟!

كَمْ مِن إنسانٍ اشتَرى أُضحيَّةً ورُبَّما ماتَ قبلَ أن يُضحِّيَ بها؟!

فالموفَّقُ هو مَن أدركَ مواسمَ الخيراتِ، واقتنَصَ ما فيها منَ الخيرِ.

وهذا يحتاجُ إلى مجاهدةٍ، وإلى كدٍّ، وإلى إتعابٍ لهذه النفسِ؛ قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٤].

وقالَ سبحانَه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

إنَّ موسمَ العشرِ هو منَ المواسمِ العظيمةِ، ويَكفيكَ مِن ذلكَ قولُ النبيِّ ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ»، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ؟ -هُمْ يُدرِكون أنَّ الجهادَ ذروةُ سنامِ الإسلامِ- قالَ: «وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»[(١)].

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٤)، وأبو داود: كتاب الصوم، باب في صوم العشر، رقم (٢٤٣٨)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر، رقم (٧٥٧)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب صيام العشر، رقم (١٧٢٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، رقم (٩٦٩).

فأيُّ عملٍ صالحٍ توقعُه في هذه الأيامِ العظيمةِ هو أعظمُ الأعمالِ وأحبُّها إلى اللهِ، وأفضلُ مِن درجةِ الجِهادِ؛ فأينَ العامِلون؟ وأينَ المشمِّرون؟ وأينَ مَن تتوقُ نفوسُهم إلى هذهِ العشرِ فيقولون: اللهُمَّ بلِّغْنا هذه العشرَ. فالعملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى اللهِ مِن كلِّ عملٍ يقعُ في غيرِها.

لذا فلْنكُنْ فيها منَ المتعرِّضين لنفحاتِ اللهِ، فإنَّ نبيَّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**افْعَلُوا الخَيْرَ دَهْرَكُمْ**»، أي: أن الأصلَ أن نفعلَ الخيرَ في حياتِنا كلِّها «**وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللهِ؛ فَإِنَّ للهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَسَلُوا اللهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ، وَأَنْ يُؤَمِّنَ رَوْعَاتِكُمْ**»[1]، فالموفَّقُ هو مَن تعرَّضَ لنفحاتِ اللهِ.

ولنكُنْ في هذه العشرِ منَ التائبين إلى اللهِ، العائدينَ إلى اللهِ، فهاهو المولَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينادِينا جميعًا بمُسمَّى الإيمانِ فيقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [التحريم:٨].

ويقولُ سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

وقالَ سبحانه: في الحديثِ القُدسي: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٥٠، رقم ٧٢٠)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٨٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم (٣٥٤٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والعشرُ فرصةٌ، فلْنتعرَّضْ فيها لنفحاتِ رحمةِ اللهِ، ولنجدِّدِ التوبةَ والأَوْبةَ، والعودةَ إلى اللهِ، ولنكُنْ فيها منَ الذاكِرين للهِ؛ فإنَّ الذِّكرَ في هذه الأيامِ العشرِ له مِيزةٌ مُختلفةٌ عندَ اللهِ، يقولُ ﷺ في الحديثِ الذي رواه أحمدُ في (مسنده) وصحَّحَه أحمدُ شاكر -رحمَهُما الله تعالى- يقولُ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ العَمَلِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ»(١).

وانظُروا إلى الاستِجابةِ عندَ سلفِ الأمةِ كيفَ يكونُ:

جاءَ في (صحيح البخاريِّ): أنَّ عمرَ الفاروقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانَ يُكبرُ في قُبَّتِه بمنًى؛ فيسمعُه أهلُ المسجدِ فيُكبِّرون؛ فيُكبِّرُ أهلُ الأسواقِ، -قال الراوي:- حتَّى ترتجَّ منًى تكبيرًا(٢).

وذلكَ لأنَّ هذه العبادةَ من أعظمِ العباداتِ الَّتي يَنبغي أَنْ تقعَ في هذه العَشرِ.

وقد مرَّ النبيُّ ﷺ في أحدِ طرقِ مكةَ بجبَلٍ يقالُ لهُ: جمدانُ. -والحديثُ في صحيح مسلمٍ- فقالَ لِمَنْ معَه: «سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ المُفَرِّدُونَ» قالوا: وما المُفرِّدون يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ»(١).

وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في هذِه الأيامِ: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٧٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) علقه البخاري: كتاب الجمعة، باب التكبير أيام منى وإذا غدا إلى عرفة، (٢/ ٢٠)، ووصله الفاكهي في أخبار مكة رقم (٢٥٨٠)، وابن المنذر في الأوسط (٤/ ٣٤٣)، والبيهقي (٣/ ٣١٢)، وانظر فتح الباري (٢/ ٤٦٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴾ [الحج:٢٧].

ولنكُن فيها منَ الصائِمين، إذِ الصومُ مِن أعظمِ العباداتِ الَّتي تقعُ في عشرِ ذِي الحِجةِ؛ لأنَّه عبادةٌ مِن أطولِ العباداتِ؛ عمرُها الزمنيُّ منَ الفجرِ إلى المغربِ، عددٌ منَ الساعاتِ الطوالِ في عبادةٍ واحدةٍ تستغرقُ العشرَ.

لذا منَ الجميلِ أَنْ يصومَ الإنسانُ في التسعِ، ولو صامَها مَع يوم عرَفة -لغَيْر الحاجِّ- كان خيرًا على خيرٍ؛ لذا قالَ النبيُّ ﷺ يُرغِّبُنا في الصيامِ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا بَاعَدَ اللهُ بِذَلِكَ اليَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»[(١)].

وخصَّ عرفةَ بالصيامِ فقالَ: «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ»[(٢)].

وأنا أُوصي نفسي وإيَّاكم أن نَنويَ أَنْ نَصومَ عرَفةَ؛ فإنَّ الأجرَ يبدَأُ منذُ تبدَأُ نيَّتُك، فلعَلَّنا ندركُ يومَ عرفةَ؛ فنصومَه فنُؤجَرَ، ولعَلَّ أحدَنا يموتُ فيَنالَ الأجرَ دونَ العملِ، فانْوِ منَ الآنَ أن تصومَ يومَ عرفةَ، ولنكُنْ في هذه العشرِ منَ المتقرِّبين إلى اللهِ بأنواعِ العباداتِ والنوافلِ.

وانظُرِ الحديثَ العظيمَ الذي لطالَما سمِعْناه، وكلَّما طرقَ أسماعَنا فرِحْنا به فرحًا شديدًا، قالَ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديثِ القُدسيِّ: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصوم في سبيل الله، رقم (٢٨٤٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، رقم (١١٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِالنَّوَافِلِ» من تسبيحٍ، وبرٍّ والِدَيْن، وصدَقةٍ، وصيام «حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[1].

فلْنكُنْ في هذه العشرِ منَ المتعرِّضين لنفحاتِ رحمةِ اللهِ، ومنَ التائِبين العائِدين الراجِعين إلى اللهِ، ومنَ الذاكِرين كثيرًا للهِ، ومنَ الصائِمين للهِ، ومنَ المُتقرِّبين إليه بأنواعِ العباداتِ والنوافلِ.

ولْنكُنْ فيه منَ المُتقرِّبين إليهِ بالأُضحيَّةِ، فالذبحُ في هذه العشرِ، خاصةً يومَ العيدِ هو منَ العباداتِ العظيمةِ الَّتي لا بُدَّ أن يستحضِرَها المسلمُ قبلَ أن تدخلَ العشرُ؛ لأنَّ لها أحكامًا.

ولهذا أُوصِي أئمةَ المساجِدِ أن يَقرَؤوا على الناسِ في المساجِدِ أحكامَ الأُضحيَّةِ قبلَ أن تدخلَ العشرُ، وهي منَ العباداتِ العظيمةِ الدالةِ على التقوَى، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧].

وهي منَ المناسِكِ الموجودةِ في غيرِ هذه الأُمةِ منَ الأممِ السابقةِ قالَ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤].

وقالَ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢] أي: صلِّ صلاةَ العيدِ وانحَرْ هذا الهديَ وهذا القربانَ.

فمَن وجدَ سَعةً فلْيَنوِ الأُضحيَّةَ وليضَحِّ؛ فإنَّ الأُضحيَّةَ سُنةٌ مؤكدةٌ في حقِّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القادرِ، وقد رغَّبَ ﷺ فيها فقالَ: «مَنْ وَجَدَ سَعَةً لِأَنْ يُضَحِّيَ فَلَمْ يُضَحِّ فَلَا يَحْضُرْ صَلَاتَنَا»[(١)].

لذا فمَن كانَ قادرًا على أن يوفرَ مبلغًا للأضحيَّةِ فليُضَحِّ، ولْيُضحِّ عن نفسِه أوَّلًا، ثُم يُشرِكْ مَن ماتَ مِن أهلِه من والدَيْه وأقاربِه في أضحيَّتِه؛ فإنَّ منَ الأخطاءِ المتكرِّرةِ في كلِّ عامٍ أنَّ الناسَ يُضحُّون عنِ الأمواتِ ويَنسَوْن أنفسَهم، فضحِّ عن نفسِك أوَّلًا وأَشرِكْ والدَيْك، فإنَّ فضلَ اللهِ واسعٌ.

ومَن أرادَ الأضحيَّةَ فإنَّ لها أحكامًا، وعلى رأسِ هذه الأحكامِ ما جاءَ في حديثِ أُمِّ سلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ رَأَى هِلَالَ ذِي الحِجَّةِ، فَأَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلَا يَأْخُذْ مِنْ شَعَرِهِ، وَلَا مِنْ أَظْفَارِهِ حَتَّى يُضَحِّيَ»[(٢)]، فإنَّها مِن هدْيِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

اللهُمَّ بلِّغْنا هذه العشرَ، واجعَلْنا فيها منَ العامِلين، المُتقرِّبين، الناصِحين لأَنفُسِنا يا ربَّ العالَمين.

ثُم صلُّوا وسلِّموا -رحِمَكمُ اللهُ- على نبيِّ الهدَى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢١)، وابن ماجه: كتاب الأضاحي، باب الأضاحي واجبة هي أم لا، رقم (٣١٢٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو مريد التضحية أن يأخذ من شعره أو أظفاره شيئا، رقم (١٩٧٧).

(٢٦)

كيفَ نُدركُ أجرَ الحاجِّ

يا راحِلِينَ إِلى البَيْتِ العَتِيقِ لَقَدْ ... صِرْتُمْ جُسومًا وَصِرْنا نَحْنُ أَرْواحَا

إِنَّا أَقَمْنا عَلى عُذْرٍ وَعَنْ قَدَرٍ ... وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ فَقَدْ رَاحَا[1]

ما مِن نَفْسٍ مُسلمةٍ مؤمنةٍ إلَّا وهي تتشوَّقُ إلى رؤيةِ البيتِ العتيقِ، وتشتاقُ أن تكونَ مع الحجيجِ في حجِّهم، وفيما ينالونَه من أجرٍ ومَثوبةٍ؛ فتتطلعُ إلى ذلك الثوابِ الذي ينالُه الحاجُّ على إثرِ حجِّه.

كيفَ لا وهُمْ قد سمِعوا حديثَ النبيِّ ﷺ الذي قالَ فيه: «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ إِلَّا رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[2].

كيفَ لا وهم يستمِعون إلى حديثِ النبيِّ ﷺ: «الحَجُّ إِلَى الحَجِّ وَالعُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا»[3].

كيفَ لا وهم يستَمِعون إلى حديثِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقول: «تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ؛ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٢) غير منسوبة، ونسبها ابن خلكان في وفيات الأعيان (١/ ١٦٩) لابن العريف.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم (١٥٢١)، ومسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة، رقم (١٣٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العمرة، باب وجوب العمرة وفضلها، رقم (١٧٧٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم (١٣٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الجَنَّةَ»[١].

كيفَ لا وهم يستمِعون إلى حديثِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قالَ فيه: «إِنَّ المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَهْبِطُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي يَوْمِ عَرَفَةَ؛ فَيَقُولُ -مُباهيًا الملائكةَ بهؤلاءِ العِبَادِ-: هَؤُلَاءِ عِبَادِي جَاؤُونِي شُعْثًا غُبْرًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ يَرْجُونَ رَحْمَتِي وَمَغْفِرَتِي، فَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكُمْ كَعَدَدِ الرَّمْلِ، أَوْ كَزَبَدِ البَحْرِ لَغَفَرْتُهَا، أَفِيضُوا عِبَادِي مَغْفُورًا لَكُمْ وَلِمَنْ شَفَعْتُمْ لَهُ»[٢].

إنَّ النفسَ المسلمةَ المؤمنةَ وهي تلحظُ مثلَ هذه الأحاديثِ تتشوقُ أن تكونَ مع الحجاجِ في حجِّهم، وأن تنالَ من الأجرِ مثل ما نالوا.

وقد بيَّنَ لنا هذا الشرعُ العظيمُ على لسانِ النبيِّ ﷺ أنَّ هُناكَ أعمالًا مَن أَتى بها أدركَ أجرَ الحاجِّ؛ وإن كانَ في مدينتِه وفي بلدِه؛ لذا فحديثُنا الآنَ عن موضوعِ: كيفَ نُدرِكُ أجرَ الحاجِّ.

ونحنُ نستمعُ في مجالسِنا وفي دواوينِنا ونقرَأُ عبرَ هذه التغريداتِ مَن يقولُ متأوِّهًا: يا ليتَني كنتُ معَ الحجاجِ، حبَسَني العذرُ. ورُبَّما ألقى باللومِ والعتبِ على فلانٍ، أو على الجهةِ الفلانيةِ الذين وقَفوا في طريقِه عن أداءِ الحجِّ.

فنقولُ له: إن كنتَ صادقًا تريدُ أجرَ الحجِّ، فهاهُنا أعمالٌ هي في العملِ أيسرُ من الحجِّ، فليسَ فيها من التعَبِ مثلُ ما في الحجِّ، وليسَ فيها منَ الغربةِ مثلُ ما في الحجِّ، فأينَ العامِلون؟ بَلْ أينَ الصادِقون المتلهِّفون على أجرِ الحجِّ؟

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والترمذي: كتاب الحج، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة، رقم (٨١٠)، والنسائي: كتاب مناسك الحج، باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة، رقم (٢٦٣١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال رقم (٦١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأعمالُ التي نُدركُ بها أجرَ الحجِّ وإن كُنَّا في بيوتِنا في بلادِنا بين أهلِنا هي:

العَمَل الأوَّل:

النيةُ الصادِقةُ، بأنْ يعلَمَ منك ربُّك تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنَّكَ صادقٌ في هذه النِّيةِ، تقولُ: لو تيسَّرَت لي الأسبابُ أو هُيِّئت لكُنتُ هناكَ على صعيدِ عرفةَ، وكنتُ مع الطائِفين حولَ البيت العتيقِ، وكنتُ مع مَن يَرمي الجمارَ.

وليسَ المقصودُ أن تقولَ ذلك بلسانِك تخبِرَ فلانًا أو فلانًا؛ ولكِنْ دَعْ قلبَك يتكلَّمُ فلا يَسمَعُه إلَّا الله؛ فإن علِمَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى صدقَ عزمِكَ وقصدِكَ ونيتِكَ فلكَ أجرُ الحاجِّ.

قال النبـيُّ ﷺ وهو في طريقِ عودتِه من غزوةِ تبـوكَ لَمَّا دَنا منَ المدينةِ هذا الحديثَ الذي رواهُ البخاريُّ في صحيحه من حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**» قالوا: يا رسولَ الله وهم بالمدينةِ؟ قال: «**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[(١)]؛ بل قال -في روايةِ ابنِ ماجَهْ-: «**أَنَّهُمْ شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ**» أي: اشتَرَكوا معكم في الأجرِ.

وفي سنن ابنِ ماجَهْ من حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقولُ ﷺ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رِجَالًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا وَلَا سَلَكْتُمْ طَرِيقًا إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[(٢)]، وهذا من فضلِ الكريمِ سبحانه.

فإن كانت هذه النيةُ موجودةً وحبَسَك العذرُ فلكَ منَ الأجرِ مثل ما تقدَّم وزيادة، فهذا عملٌ؛ وهو النيةُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٤٢٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الجهاد، باب من حبسه العذر عن الجهاد، رقم (٢٧٦٥).

ولا تحتاجُ أن تخبرَنا عن نيتِك في مجالسِنا، بل دَعْ قلبَك يتكلَّمُ فلا يسمعُه إلَّا اللهُ، ولا تُلقِ باللائمةِ على فلانٍ مسؤولِك في العملِ أنه لم يُعطِك إجازةً، أو على الجهةِ المنظمة الفلانية، ولا تلقِ باللائمةِ على أهلِك وأولادِك، فإن كنتَ معذورًا بحقٍّ فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعلمُ ذلك، فدَعْ قلبَك يتكلَّمُ ويسمعُه الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

العملُ الثاني:

يقولُ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ» أي: ليس في بيتِه «ثُمَّ قَعَدَ» أي: في مصلَّاهُ «يَذْكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ»[1].

والَّذي قال هذا الحديثُ هو نبيُّنا ﷺ، وهو نفسُه الذي قال: «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»، فيعطينا هذه البِشارةَ، وبإمكانِك أن تنالَ هذا الأجرَ كلَّ يومٍ طوالَ العامِ.

فنقولُ للمتأوِّهِ قبلَ قليلٍ: إن كنت صادقًا تريدُ الحجَّ فأينَ أنتَ من صلاةِ الفجرِ؟ وإلَّا فهيَ أحاديثُ مجالسَ، وتأوُّهٌ من كذابٍ غير صادقٍ. فإن كنت تريدُ الأجرَ لا المباهاةَ فصَلِّ الفجرَ في جماعةٍ واجلِسْ في مصلَّاك تذكُرُ اللهَ، ثُم صلِّ ركعتين. وهذا العملُ أيسرُ من الحجِّ.

العملُ الثالثُ:

وهو أسهلُ مِمَّا تقدَّمَ، يقولُ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ غَدَا إِلَى المَسْجِدِ لَا يُرِيدُ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما يستحب من الجلوس في المسجد بعد صلاة الصبح، رقم (٥٨٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أي: لا يقصدُ ولا يَنوي «إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَهُ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامًّا حَجَّتُهُ» فأينَ الصادِقون الذين يَبحثون عن أجرِ الحاجِّ؟

فمَن يذهبُ إلى المسجدِ ويحملُ هذه النِّيَةَ، يقولُ: أحضُرُ إلى هذا المسجدِ دونَ هذا المسجدِ؛ لأنَّ في هذا المسجدِ درسًا أَستمِعُ إليه وأتعلَّمُ. يرجعُ إلى بيتِه بأجرِ الحاجِّ.

أو يقول: أذهَبُ إلى هذا المسجدِ أعلَّمُ فيه علمًا، أو أجلسُ مع أحدِهم أعلِّمه عِلمًا حديثًا.

العملُ الرابعُ:

وهو أيضًا مرتبطٌ بالمسجدِ، وهو أسهلُ مِمَّا تقدمَ، قالَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -والحديثُ رواه أبو داودَ من حديثِ أبي أُمامةَ الباهليِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الحَاجِّ المُحْرِمِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ المُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ»[1].

يُهِمُّنا هنا القِسم الأولُ والثاني: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ» أي: خرجَ إلى الفجرِ، أو إلى الظهرِ، أو إلى المغربِ، أو إلى العشاءِ، يجمعُ في يومِه أجرَ خمسِ حجَّاتٍ.

فإذا رأيتَ إنسانًا متأوِّهًا متحسِّرًا يريدُ الحجَّ، ثُم على أرضِ الواقعِ لا تَراهُ في المسجدِ فاعلَمْ أنه غيرُ صادقٍ؛ لأنَّ هذا الأمرَ أسهلُ منَ الحجِّ، فأينَ أنت من المسجدِ؟

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة، رقم (٥٥٨).

وقد علَّقَ لك رسولُ الله ﷺ هذا الأجرَ وهذا الحافزَ بذَاكَ العَمَل؛ فأينَ أنتَ منَ الأجرِ؟

وكلُّ ما في الأمرِ أن تتوضَّأَ في بيتِك ثُم تَعْمَدُ إلى المسجدِ في كلِّ صلاةٍ.

العملُ الخامسُ:

وهو أسهلُ من هذه الأربعِ الَّتي تقدَّمَت، فقد جاءَ في صحيح البخاريِّ وعندَ غيرِه أيضًا بصيغٍ مختلفةٍ من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاءَ الفقراءُ إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: ذهَبَ أهلُ الدثورِ منَ الأموالِ بالدرجاتِ العلا والنعيمِ المقيمِ؛ يصلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نصومُ، ولهم فَضْلٌ من أموالٍ يَحُجُّون بها، ويعتمِرون، ويجاهِدون، ويَتصدَّقون.

فقَدْ وجدَ الفقراءُ الذين يسابِقون غيرَهم إلى الجنةِ هذه المعضلةَ: أن مَن معَهم منَ الصحابةِ عندَهم أموالٌ، وهم فُقراءُ.

فإذا كانَتِ الصلاةُ والصيامُ مثلًا لا يحتاجانِ إلى أموالٍ؛ فإن الحجَّ يحتاجُ إلى أموالٍ، والجهادُ يحتاجُ إلى أموالٍ، والصدقةُ تحتاج إلى أموالٍ.

فجاؤُوا يستنكِرون؛ ويقولونَ: يا رسولَ الله ذهَبَ أهلُ الدثورِ -يعني: أهل الغِنى وأهل الأموالِ- ذهَبوا بالدرجاتِ العلا والنعيمِ المقيمِ؛ ونحنُ لا نملكُ مثلَ أموالِهم فيَسبقونَنا في الجنةِ.

فتكلَّمَ الرحمةُ ﷺ بما أشفَى الغليلَ؛ لينظُرَ صِدقَ مَن يقولُ: أريدُ نفسَ الأجرِ. قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيهِ -إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ-: تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ**

وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ»[(١)].

فليسَ هناك أيسرُ من هذا العملِ، ومع ذلك تشاهدُ مَن إذا صلَّى وسلَّمَ خرجَ دونَ أن يسبِّحَ!

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ الله، كما أمَرَ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٣)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٥).

(٢٧)

خُطبة عيدِ الأضحى

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٣].

يَأْمُرُ اللهُ عبادَه بإفرادِه بالعبادةِ فيقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١].

وبيَّنَ أنَّ الغايةَ الأسمى في خلقِ العبادِ عبادتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

وحذَّرَ عبادَه مِن عبادةِ غيرِه مبيِّنًا مآلَ هذا الأمرِ الخطيرِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مبيِّنًا مغبَّةَ العبادةِ التي تُصرَفُ لغيرِ اللهِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان:٥٥].

وبيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ السبيلَ الأوحدَ في عبادتِه هوَ اتِّباعُ دينِه الذي أنزلَه على رسلِه وأنبيائِه كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:٢١].

وبيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ الدينَ المقبولَ عندَه هو الإسلامُ فقالَ سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

وحذَّرَ عبادَه من أَنْ يتخذوا ديانةً غيرَ دينِ الإسلامِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وبيَّنَ المآلَ الخطيرَ لِمَنِ اتخذَ دِينًا غيرَ دينِ الإسلامِ فقالَ سبحانَه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

وأمَرَ سبحانَه عبادَه بإفرادِه بالدعاءِ؛ فقالَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وحذَّرَ سبحانَه عبادَهُ مِن مَغبةِ دعاءِ غيرِه فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف:١٩٤-١٩٥].

وأمَرَ سبحانَه عبادَه بطاعةِ رسولِه ﷺ وبيَّنَ أنَّ ذلِكَ مِن لوازِمِ الإيمانِ فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

وجعَلَ طاعتَه ﷺ مِن طاعةِ اللهِ فقالَ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠].

وحذَّرَ عبادَه أن يخالِفوا رسولَه ﷺ أو أَنْ يَخرُجوا من أمرِه فقالَ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وأمرَ بإقامةِ الدِّينِ وإظهارِ شعائرِ الدينِ وجعَلَ ذلك دليلًا على كمالِ التَّقوى فقالَ سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

وجعَلَ مِن أعظمِ هذه الشعائرِ إقامةَ الصلاةِ؛ فامتدَحَ أهلَها فقالَ سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣].

وحذَّرَ عبادَه منَ التهاوُنِ في أدائِها، ومن مغبَّةِ تركِها، أوِ التكاسُلِ فيها فقالَ سبحانَه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ [مريم:٥٩].

وأمَرَ عبادَه بأداءِ الزكاةِ ودَفْعِها كما أوجبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مرغِّبًا في هذه العبادةِ العظيمةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة:٤٣].

ثُم حذَّرَ عبادَه مِن منعِ هذه الزكاةِ والبُخلِ بِها فقالَ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [آل عمران:١٨٠].

وأمَرَ بالعدلِ في كلِّ ناحيةٍ مِن مَناحِي الحياةِ فقالَ سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨].

وحذَّرَ منَ الظُّلمِ في جميعِ صورِه فقالَ سبحانَه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [إبراهيم:٤٢-٥٢].

وأمرَ بالإحسانِ في كلِّ شيءٍ فقالَ سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

وجعَلَ أعظمَ معاني الإحسانِ: الإحسانَ إلى الوالِدين فقالَ سبحانَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

وهكَذا يقولُ نبيُّنا ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»(١).

ثُم صلُّوا وسلِّموا -رحِمكم اللهُ- على نَبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِهِ الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، رقم (١٩٥٥)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢٨)

وقفاتٌ في كَسْبِ الحسناتِ

ما مِنَّا مِن أحدٍ يتقرَّبُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بشيءٍ مِن هذِه القرباتِ إلَّا وعينُه على تِلكَ الحسَناتِ، وهو يرجو الثوابَ وعينُه هناكَ تنظرُ في هذا الحافزِ العظيمِ جنَّةٌ عَرْضُها كعَرْضِ السماءِ والأرضِ، وما مِن عامِلٍ يعمَلُ إلَّا وهو يرجو الثوابَ ويرجو الحسناتِ.

وقد رغَّبَنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في عبادتِه والتـقرُّبِ إليه بذِكرِ هذه الحوافـزِ؛ فقالَ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

أرأَيْتُمُ الحاجَّ لم يذهَبْ إلى الحجِّ إلَّا وهُوَ يرجو الثوابَ، ويرجو المَغفرةَ، ويرجو تلكَ الحسَناتِ الكثيرةَ، ذهَبَ وهو يستمِعُ إلى حديثِ النبيِّ ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(١).

أرأَيْتم هذا الصائمَ الذي صامَ عرفةَ يصومُ وعينُه على تلكِ الأجورِ وعلى تلكَ الحسناتِ وهوَ يستمعُ إلى حديثِ النبيِّ ﷺ: «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم (١٥٢١)، ومسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة، رقم (١٣٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إنَّ الحديثَ عنِ الحسناتِ حديثٌ يتطلَّبُ أن نقِفَ معَه عدةَ وقفاتٍ:

الوقفةُ الأُولى:

اعلَمْ أنَّ الحسناتِ منَّةٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وفضلٌ، وهي ليسَتْ ثمنًا ولا عوضًا لعملٍ أو قربةٍ نَتقرَّبُ بها إلى اللهِ، إنَّما الحسناتُ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وفضلٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إذْ تَرى العبدَ مِنَّا يعملُ عملًا يسيرًا فيُعطيه ربُّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأجرَ الكبيرَ.

وقَدْ قالَ النبيُّ ﷺ: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» أي: بعمَلِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ والحجِّ وبِرِّ الوالِدين. قالوا: يا رسولَ اللهِ ولا أنتَ؟ قالَ: «وَلَا أَنَا» هذا الَّذي عبدَ ربَّه ﷺ معَ كل نفَسٍ كان يَتنَفَّسُه ﷺ، قالَ ذلكَ «إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[1]. فإذا عمِلَ العاملُ عمَلًا فلا يغتَرَّ ولا يَمتنَّ على اللهِ بعمَلِه.

الوقفةُ الثانيةُ:

أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ ميَّزَ هذه الأمةَ بميزةٍ واختَصَّها بهذه الخاصيةِ أَنْ كافأَها فجعَلَ الحسَنةَ بعَشرِ أمثالِها، بَلْ إلى سبعِ مِئةِ ضِعفٍ، بَلْ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠].

وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَدْ جاءَ في صحيح البخاريِّ مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ»[1].

فالحسَناتُ مِنةٌ منَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والحسَناتُ تُضاعَفُ.

الوقفةُ الثالثةُ:

لا حسَناتِ بلا عمَلٍ، فلا يَستوي القاعدُ والماشي، ولا يَستوي مَن دخلَ قبلَ الخطيبِ، ومَن جاءَ بعدَ الخطيبِ، ولا يَستوي أصحابُ الصفوفِ المتقدِّمةِ معَ أصحابِ الصفوفِ المتأخِّرةِ، ولا يَستوي مَن برَّ والِدَيْه معَ مَن عقَّ والِدَيْه، إِذْ لا حسَناتِ إلَّا بعمَلٍ.

فإِنْ قالَ قائلٌ: قُلتَ قبلَ قليلٍ: «فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً»!.

قُلتُ: هذا عَمِلَ؛ فكما أن الجوارحَ تعمَلُ فالقلوبُ تعملُ، وكما أنَّ أعمالَ الجوارحِ لَها حسناتٌ فأعمالُ القلوبِ لها حسَناتٌ، فالهمُّ والقصدُ والنِّيةُ هي مِن أعمالِ القُلوبِ.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، رقم (١٣١).

وقالَ سبحانَه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤].

وقالَ سبحانَه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

الوقفةُ الرابعةُ:

لا حسَناتِ إلَّا بإخلاصٍ، فلو عمِلَ العاملُ منَّا ليلَه ونهارَه، وأنفقَ مالَه كلَّه، وهو يعمَلُ، لكِنْ لا يعملُ وهو مخلِصٌ فلا حسَناتِ، حتَّى وإن عمِلَ للهِ وقَرَن معه غيرَ اللهِ فهذا ليسَ بمُخلِصٍ، إنَّما المخلِصُ هو الَّذي يعمَلُ للهِ وحدَه.

فلا حجَّ بغَيرِ إخلاصٍ، ولا صلاةَ بغيرِ إخلاصٍ، ولا برَّ بغَيرِ إخلاصٍ، ولا حسَناتِ أبدًا إلَّا أَنْ تكونَ خالصةً لله وحدَه.

وقد جاءَ في حديثِ أبي أمامةَ الباهليِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رجُلًا أتَى النبيَّ ﷺ فقالَ: أرأَيْتَ رجُلًا غزا يلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ ما لَهُ؟ -أي: يُريدُ الأجرَ منَ اللهِ، ويريدُ الذِّكرَ، فيُريدُ أن يمدَحَ، ويريدُ الثناءَ، ويريدُ أَنْ يقالَ: فلانٌ مجاهدٌ ضحَّى بنَفْسِه وبأهلِه وبمالِه، فهُوَ يلتمِسُ الأجرَ والذِّكرَ- قالَ ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**»، قالَ: أرأَيْتَ رجُلًا غزا يلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ، ما لَهُ؟ قالَ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**» قالَ: أرأيتَ رجُلًا غزا يلتمسُ الأجرَ والذِّكرَ، ما لَهُ؟ -يردِّدُها ثلاثًا- قالَ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**» ثُم قالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»[(١)].

فإذا عمِلْت أيُّها العاملُ وعينُك على الحسناتِ فاجعَلْ عملَكَ خالصًا لوجهِ اللهِ، فلا تتحرَّكْ حركةً واحدةً إلَّا وهِيَ للهِ وحدَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، رقم (٣١٤٠).

الوقفةُ الخامسةُ:

أنَّ الحسَناتِ لا تنقطعُ وإنِ انقطَعَ العاملُ عَن عمَلِه الذي اعتادَه بعُذرٍ، فإذا كانَ للإنسانِ عملٌ اعتادَ أن يقومَ به؛ كمَنْ يُصلِّي منَ الليلِ، أو يتصدَّقُ، أو يفعَلُ الصالحاتِ، فمنَعَه عذرٌ منَ الصلاةِ أو الصدَقةِ أو عملِ الصالحاتِ كَتَبَ اللهُ له حسَناتِ ذلكَ، وهذا فضلُ اللهِ.

وتدبَّروا حديثَ النبيِّ ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[(١)].

وقالَ ﷺ: «**مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ فَيُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ حَتَّى أَصْبَحَ**» أي: لم يقُمْ ولم يُصلِّ «**كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ**»[(٢)]. وهذا مِن فضلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الوقفةُ السادسةُ:

حسَناتُ الأعمالِ المتعدِّيةِ أعظمُ من غيرِها، فهناك أعمالٌ خاصةٌ، وهناكَ أعمالٌ متعدِّيةٌ؛ فصلاتِي عملٌ خاصٌّ، ودعوتي عمَلٌ متعَدٍّ، فالَّذي يعملُ عملًا متعدِّيًا حسناتُه أكثرُ وأعظمُ وأوفرُ.

أرأَيْتُمُ المؤذِّنَ، هذا الَّذي يقومُ بعملٍ مُتعَدٍّ، قد بيَّنَ نبيُّنا ﷺ أنَّ لَهُ مِنَ الحسَناتِ مثلَ أجرِ مَن صلَّى معَه؛ لأنَّه قامَ بعملٍ مُتعَدٍّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم (٢٩٩٦)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب قيام الليل، باب من أتى فراشه وهو ينوي القيام فنام، رقم (١٧٨٧)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن نام عن حزبه من الليل، رقم (١٣٤٤)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هكَذا قالَ ﷺ ليُرغِّبَنا في الأعمالِ المتعدِّيةِ التي نفعُها متعدٍّ إلى غـيرِنا: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»[(١)].

بل رغَّبَنا ﷺ في العملِ المتعدِّي، فقالَ كما جاءَ عندَ الطـبرانيِّ في (معجَمه الكبير): «وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ» وهذا عملٌ متعَدٍّ، أي: أن يفزعُ إلى إخوانِهِ ويَكونُ في حقِّهم «أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا المَسْجِدِ شَهْرًا»[(٢)] أي: مسجِدِه ﷺ الَّذي الصلاةُ الواحدةُ فيه بألفِ صلاةٍ.

إنَّها وقفاتٌ معَ الحسناتِ ذكرْتُها لنَستبشِرَ بهذا الفضلِ العظيمِ، وبهذِه المِنةِ العظيمةِ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لتَتحفَّزَ هذه النفوسُ، وتنهضَ هذه الجوارحُ فتعمَلَ بما بقِيَ لها من عُمرٍ.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحِمَكم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائِلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، رقم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٤٥٣، رقم ١٣٦٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢٩)

يُحِبُّهم ويُحِبُّونه

جاءَ في حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قالَ: مرَّ النبيُّ ﷺ بأُناسٍ مِن أصحابِه وصبيٌّ بينَ ظهرانَيِ الطريقِ فلمَّا رأَتْه أمُّه خشِيَتْ عليه الدوابَّ، فسعَتْ والهةً تقولُ: ابني! ابني! فاحتَمَلَتِ ابنَها، فقالَ القومُ: يا نَبيَّ اللهِ ما كانَتْ هذه لتُلقيَ ابنَها في النارِ، -أي: بعدَ أنْ وجَدَت هذا الرضيعَ، هذا الَّذي هو قِطعةٌ مِن القلبِ لا يُمكِنُ أنْ تُلقيَه الآنَ في النارِ- فقالَ النبيُّ ﷺ: «**لَا وَاللهِ لَا يُلْقِي اللهُ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ**»[(١)].

فإنْ كانَت هذه المرأةُ تَشهَدون لها لحُبِّ صبيِّها أنَّها لن تلقِيَ ابنَها في النارِ، فأنا أشهَدُ لكُم أنَّ اللهَ لا يُلقِي مَن أحبَّ في النارِ.

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حبُّه لأَوليائِه وأصفيائِه أكثرُ وأكبرُ وأشدُّ مِن حبِّ آبائِهم وأمهاتِهم.

وهناكَ أناسٌ يُحبُّهم اللهُ، وقَدْ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤].

فمَنزلةُ المحبَّةِ هيَ منَ المنازلِ العَظيمةِ، تحدَّثَ عنها ابنُ القيمِ -رحمه الله

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٨)، وأصله في الصحيحين؛ البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله، رقم (٥٩٩٩)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥٤).

تعالى- في كتابِه الماتعِ (مدارج السالِكين) فقالَ: «هي المَنزلةُ الَّتي فيها تنافسَ المُتنافِسون، وإليها شَخَصَ العامِلون، وإلى عِلمِها شمَّرَ السابِقون، وعليها تَفانَى المُحبُّون، وبروحِ نَسيمِها تروَّحَ العابِدون، هي قوتُ القلوبِ، وغِذاءُ الأرواحِ، وقُرَّةُ العُيونِ».

وقالَ أيضًا: «هيَ الحياةُ الَّتي مَن حُرمَها فهو مِن جُملةِ الأمواتِ، هي النورُ الَّذي مَن فقَدَه فهوَ في بحارِ الظلماتِ، هيَ الشِّفاءُ الَّذي مَن عُدِمَه حلَّتْ بجِسمِه جميعُ الأسقامِ، وهيَ اللذَّةُ الَّتي مَن لم يَظفَرْ بها فعيشُه كلُّه همومٌ وآلامٌ»[(١)].

وقد كانَ نبيُّنا ﷺ يسألُ ربَّه حبَّه فيقولُ كما جاءَ في حديثِ مُعاذِ بنِ جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِندَ الترمذيِّ: «**وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ**»[(٢)]، انظُرْ إلى هذِه الجُملِ المليئةِ بالحبِّ!.

وإذا أحبَّ اللهُ عبدًا أفاضَ عليه منَ الآثارِ والخيرِ والبركاتِ الشيءَ الكثيرَ، مِنها على سبيلِ المثالِ:

الأوَّلُ: إذا أحبَّ اللهُ عبدًا حماهُ منَ الدُّنيا.

جاءَ في سنن الترمذيِّ في حديثِ قَتادةَ بنِ النعمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قالَ رَسولُنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا؛ كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ مِنَ المَاءِ**»[(٣)].

أرأَيْتُم لو كانَ عندَنا مريضٌ وقالَ الطبيبُ: لا تَسقوه ماءً، دَعوه يعيشُ على

(١) مدارج السالكين (٣/ ٨).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة صٓ، رقم (٣٢٣٥).
(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الطب، باب ما جاء في الحمية، رقم (٢٠٣٦).

المغذِّي. وهُوَ يقولُ: يا أَبِي قطرةَ ماء! فيقولُ: واللهِ لا أستطيعُ! لقَدْ منعَه الطبيبُ. فتحميهِ منَ الماءِ.

كذلِكَ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَحمينا منَ الدنيا إذا أَحَبَّنا، فنحنُ نَسعى في ليلِنا ونهارِنا إلى الدنيا، ونبذلُ جهدًا ووقتًا، ونشفعُ فلانًا وفلانًا، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَحمينا منَ الدنيا؛ لأنَّه يُحبُّنا.

وليسَ بالضرورةِ أن يَحميَكَ منَ الدنيا أن تَعيشَ فقيرًا؛ فقَدْ يحميكَ منَ الدنيا وأنتَ غنيٌّ، فحمايةُ الدنيا لا تَعني الفقرَ، وإنَّما تَعني: أن يحمِيَك من الدنيا فلا تَنشغِلُ بها عنِ الآخرةِ، وإلَّا فكثيرٌ منَ الأغنياءِ حماهُمُ اللهُ منَ الدنيا؛ فتراهُم في الصفوفِ الأوَلِ في الصلواتِ، وتراهُم في الصفوفِ الأُوَلِ عندَ الصدقاتِ، وتراهُم في الصفوفِ الأوَلِ في بذلِ الخيرِ، دائمًا يَتقدَّمون، فلا يَعني الغنَى أنَّ هذا الإنسانَ لا يُحبُّه اللهُ؛ إنَّما هوَ ألَّا يَنشغِلَ منَ الدنيا عنِ الآخرةِ.

الثاني: إذا أحبَّ اللهُ عبدًا ابتلاهُ.

والبلاءُ إمَّا أَنْ ينزِلَ لمحبَّةِ اللهِ أو ينزلَ عُقوبةً منَ اللهِ، وقدِّرْ أنتَ ذلكَ في نفسِك، ودَعْكَ منَ الناسِ ولا تنشغِلْ بِهِمْ وتقولُ: فلانٌ ابتَلاه اللهُ لأنَّه يُحبُّه، أو فلانٌ ابتَلاه اللهُ لأنَّه يُعاقبُه، فهذا ليسَ لكَ، إنما هوَ للهِ.

وقالَ النبيُّ ﷺ -كما جاءَ في سننِ ابنِ ماجَهْ-: «**عِظَمُ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»[1].

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَبتلِي عبدَه ليَرفعَ له درجتَه في الجَنةِ، وقَدْ جاءَ في صحيح ابنِ حبَّانَ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ الدَّرَجَةُ فَلَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلِهِ، فَلَا يَزَالُ اللهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»[(١)].

الثالثُ: إذا أحبَّ اللهُ عبدًا وضعَ له القبولَ في الأرضِ.

فتجِدُه مَقبولًا عندَ شرائحِ الناسِ المختلفةِ، ومَرْضيًّا عنه، ومحبوبًا عندَ الناسِ، وقد جاءَ في صحيح مسلمٍ من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ» أي: أن اسمَك يتردَّدُ في الملكوتِ الأعلى، ويسمِّيكَ اللهُ باسمِكَ؛ كرامةً لكَ عندَ اللهِ؛ لأنَّه يُحبُّكَ، يقولُ: إنِّي أحبُّ محمدًا، أو عبدَ اللهِ، أو صالحًا، أو أحمدَ، أو خالدًا؛ قالَ: «فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا» فَتَرتجُّ السماءُ باسمِكَ «فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ»[(٢)] أي: أحبَّه اللهُ، فأحبَّه جبريلُ، فأحبَّه أهلُ السماءِ، فوُضِعَ له القبولُ في الأرضِ، فأيُّ خيرٍ أعظمُ مِن هذا الخيرِ؟

الرابعُ: أنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدًا سدَّدَه.

فيُسدِّدُه في سمعِه، وفي بصرِه، وفي يدِه، وفي رِجلِه، ويجعَلُه مستجابَ الدعوةِ إذا دعا. وقَدْ جاءَ في الحديثِ الذي رواهُ البخاريُّ في صحيحه: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي

(١) أخرجه أبو يعلى رقم (٦٠٩٥)، وابن حبان رقم (٢٩٠٨)، والحاكم (١/ ٣٤٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[1]، وهذا كلُّه خيرٌ يصبُّ لهذا الذي نالَ شرفَ محبةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إذَنْ: هذه أفضالٌ وبركاتٌ:

- يَحميه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى منَ الدُّنيا.
- ويَبتليهِ.
- ويُوضَعُ له القبولُ في الأرضِ.
- ويَجعلُه مسدَّدًا في هذه الجوارحِ الَّتي يعمَلُ بها.

فإذا كانَتْ هذه هيَ الآثارُ والخيراتُ الَّتي ينالُها مَن أحبَّه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فكُلُّنا نقولُ ونطمَعُ في هذه المَحبةِ: كلُّنا يريدُ هذه المحبَّةَ، لكِنْ ليسَتِ القضيةُ قضيةَ تَمَنٍّ، إنَّما القضيةُ قضيةُ عمَلٍ، كما سبقَ مِن قولِ ابنِ القيِّمِ -رحمه الله تعالى-: «فيها تنافسَ المتنافِسون، إليها شخصَ العامِلون، وإلى عِلمِها شمَّرَ السابِقون، وعليها تَفانَى المحِبُّون، وبرَوْحِ نسيمِها تَروَّحَ العابِدون».

وحتَّى أحظَى بهذا الشرفِ، وأنالَ هذه الخيراتِ علينا بأمورٍ، أَختصِرُها في هذه الطُّرقِ الثلاثةِ:

الطَّريق الأوَّل: مَن أَرادَ أن يحظَى بمحبَّةِ اللهِ فلْيَتَّبِعْ رسولَ اللهِ ﷺ، فأينَما وضعَ قدمَه فضَعْ قدَمَك، وأيَّ طريقٍ سلَكَه فاسلُكْه، وقَدْ كانَ السلفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَسأَلون عن سُنَّةِ النبيِّ ﷺ ليعمَلوها، ونحنُ نَسألُ عَن سُنةِ النبيِّ ﷺ لنَتخلَّى عنها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا قلتَ لإنسانٍ: افعَلْ هذا الأمرَ. قالَ: هل هو واجِبٌ أَمْ سُنةٌ؟ فإنْ قلتَ: هو سُنةٌ. قالَ: نَترُكُها. وعيبٌ في حقِّ أهلِ السُّنةِ وحرجٌ لهم أن يَترُكوا السُّنةَ.

فمَنْ أرادَ أن يحظَى بمَحبَّةِ اللهِ فلا بُدَّ أن يتبعَ خُطواتِ مَن أَتَى بهذه السُّنةِ، والدليلُ: قولُ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فإذا أَرَدْت مَحبَّةَ اللهِ فاتَّبِعْ رسولَ اللهِ في الصغيرِ والكبيرِ، في كلِّ شيءٍ، في أقوالِه وأفعالِه ﷺ.

الطريقُ الثاني: جاءَ في حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ الساعديِّ -والحديثُ عندَ ابنِ ماجَهْ في سننه-: جاءَ رجلٌ مِنَ الأعرابِ -والصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَفرَحون بهؤلاءِ الأعرابِ، فهُمْ يَأتون بأسئِلةٍ عظيمةٍ، مسدَّدةٍ تَبني مَنهجًا وحياةً- قالَ: يا رسولَ اللهِ دُلَّني على عمَلٍ إذا عمِلْتُه أحبَّني اللهُ وأحبَّني الناسُ. قالَ: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ**»(١).

الطَّريق الثالثُ: جاءَ في (مشكاة المصابيح): أنَّ النبيَّ ﷺ قامَ يَتوضَّأُ فقامَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَتمَسَّحون بوَضوئِه -أي: بما يَتَساقَطُ من وَضوئِه- فقالَ ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَذَا؟**» أي: لماذا انطلَقْتُم إلى هذا العمَلِ؟ قالوا: حبُّ اللهِ ورسولِه. فأرادَ النبيُّ ﷺ أَنْ يُربِّيَهم فقالَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ أَوْ يُحِبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فَلْيَصْدُقْ حَدِيثَهُ إِذَا حَدَّثَ، وَلْيُؤَدِّ أَمَانَتَهُ إِذَا اؤْتُمِنَ، وَلْيُحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَهُ**»(١).

فهُم قاموا يَتمسَّحون بوَضوئِه فلَمْ يَمنَعْهمُ الرسولُ ﷺ، لكِنَّه أرشَدَهم إلى واقعٍ عمَليٍّ يوميًّا يَتعامَلون بهِ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، رقم (٤١٠٢).

(١) مشكاة المصابيح رقم (٤٩٩٠)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق رقم (٢٦٦)، والبيهقي في الشعب رقم (١٤٤٠)، من حديث عبد الرحمن بن أبي قراد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذِه بعضُ العباداتِ التي تُقرِّبُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فتُثمرُ هذه القربَى محبةَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لعبدِه:

وهي كثيرةٌ جدًّا، نطقَ بها النبيُّ ﷺ، وهيَ منَ الطُّرُقِ والقرُباتِ الَّتي يستطعُ كلُّ واحدٍ منَّا أن يأتيَها، أو يأتيَ أكثرَها، ومن هذه القُربِ:

القُربةُ الأولى: محبَّةُ آل بيتِ النَّبيِّ ﷺ، وأصحابِه وأزواجِه.

مَحبَّةُ آلِ بيتِ النبيِّ ﷺ، ويدخلُ في ذلِكَ أزواجُه وصحابتُه، فمَنْ أحبَّهُم أحبَّه اللهُ، هكذا يقولُ ﷺ ويؤكِّدُ على هذا الأمرِ، فقَدْ جاءَ في حديثُ يَعلى بن مرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -والحديثُ رواه البخاريُّ في كتابِه (الأدب المفرد)- أنَّه ﷺ قالَ: «**حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، سِبْطَانِ مِنَ الأَسْبَاطِ**»[1]، فمَن أحبَّ الحسنَ والحُسينَ نال هذه المحبةَ منَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولهذه المَحبةِ ترجمةٌ على أرضِ الواقعِ، ودليلٌ في ميدانِ المُحبِّينَ، كذا يقولُ ﷺ في حديثِ البراءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذي رواه البخاريُّ في (صحيحه) يقولُ: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**الأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ**»[1]، أي: فمَن أحبَّ الأنصارَ وترجمَ هذه المحبةَ على أرضِ الواقعِ وفي ميدانِ المُحبِّينَ أحبَّه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

---

(١) الأدب المفرد رقم (٣٦٤). وأخرجه أيضا أحمد (٤/ ١٧٢)، والترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين، رقم (٣٧٧٥)، وابن ماجه: مقدمة السنن، باب فضل الحسن والحسين، رقم (١٤٤).

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار، رقم (٣٧٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الإيمان، رقم (٧٥)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القُربةُ الثانيةُ: حُسنُ الخُلقِ.

وهذا الَّذي نُؤكِّدُ عليه مرارًا، فإنَّ الأمةَ اليومَ تَعيشُ أزمةَ أخلاقٍ، فإذا حسُنَت أخلاقُ الفردِ أحبَّه اللهُ، إذا حسُنَت أخلاقُه في بيتِه مع والدَيْه، ومعَ زوجِه وأولادِه، ومعَ إخوانِه وجيرانِه، وإذا حسُنَت أخلاقُه في الشارعِ في معاملاتِه أحبَّه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

دليلُ ذلكَ: ما جاءَ في حديثِ أسامةَ بنِ شَريكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ الطبرانيِّ في معجمه: أنَّ أناسًا قدِموا على النبيِّ ﷺ -والصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَفرَحون بالأعرابِ إذا قدِموا؛ لأنَّهم يَسأَلون أسئِلةً- فكانَ من جُملةِ ما سأَلوا عنه أَنْ قالوا: يا رَسولَ اللهِ فمَن أحبُّ عِبادِ اللهِ إلى اللهِ؟ قال: «**أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»(١).

فالمُتميِّزون بحُسنِ الخلقِ يُحبُّهم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وكَمْ نحتاجُ إلى هذه المعانِي العظيمةِ، والأحاديثِ الكثيرةِ التي تتحدَّثُ عنِ الأخلاقِ؟

فإذا جلَسْنا في البيتِ نَرى هذا النقصَ، وإذا سِرْنا في الطرقِ نَرى هذا النقصَ، كمَنْ يقِفُ في الطريقِ ليَطلُبَ له وجبةً من المَطعمِ ويُعطِّلُ السيرَ كلَّه، وكأنَّه يقولُ: أنا فقَطْ. أو يتحدَّثُ مع زميلٍ له في الشارعِ والناسُ خلفَه والطرقُ معطَّلةٌ ولا يلتفِتُ، ولا يشعُرُ أنَّ اللهَ يبغِضُه بهذا الفعلِ، والناسُ يُبغِضونه، ولعلَّهم يَدْعون عليه فيَتحرَّكَ قليلًا، فيُصابَ بدعوةٍ من هذه الدعواتِ.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (١/ ١٨١، رقم ٤٧١)، وأخرجه بنحوه ابن ماجه: كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم (٣٤٣٦).

أَلَمْ يقُلْ نَبيُّنا ﷺ: «اتَّقُوا المَلَاعِنَ الثَّلَاثَ»[١]، فمَنْ عطَّلَ طرقَ الناسِ لعَنوه فنزَلَت عليه لعناتُهم، فلماذا نعرِّضُ أنفسَنا إلى هذا؟!

لذا جاءَ عندَ الطبَرانيِّ من حديثِ الحُسينِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا»[٢].

وجاءَ عندَ التِّرمذيِّ في سننه مِن حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ سَمْحَ البَيْعِ، سَمْحَ الشِّرَاءِ، سَمْحَ القَضَاءِ»[٣]، فالسَّماحةُ من الأخلاقِ، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحبُّ العبدَ السمحَ في بَيْعه، وشرائِه، وقضائِه، وإذا خرجَ من بيتِه وإذا دخَلَه، فلا يتعوَّذُ أولادُه منه إذا سمِعوا صوتَه، ويقولونَ: أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ جاء الوالدُ. فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحبُّ السمحَ.

وإتقانُ العملِ من حُسنِ الخُلقِ، قالَ النبيُّ ﷺ -كما جاءَ في حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عندَ الطبرانيِّ في معجمه الأوسط-: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ مِنْ أَحَدِكُمْ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»[١].

فابحَثْ عن مَحبَّةِ اللهِ دونَك هذه المعانيَ العظيمةَ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، رقم (٢٦)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريق، رقم (٣٢٨)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٣١، رقم ٢٨٩٤)، من حديث الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في استقراض البعير أو الشيء من الحيوان، رقم (١٣١٩).

(١) المعجم الأوسط رقم (٨٩٧).

القُربةُ الثالثةُ: إظهارُ نِعمةُ اللهِ عليك.

فإذا أنعمَ اللهُ عليك بنِعمةٍ أظهِرْها في لباسِكَ، وفي مسكنِكَ، وفي مَركوبِك، وفي حياتِك، دونَ إسرافٍ أو مَخيلةٍ، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحبُّ أَنْ يَرى أثرَ نعمَتَه على عبدِه، هكَذا جاءَ عنه ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»(١).

القُربةُ الرابعةُ: الحبُّ في اللهِ، والوصلُ في اللهِ، والتناصحُ في اللهِ، والزيارةُ في اللهِ.

فهذِه الأعمالُ العظيمةُ كلُّها تستجلِبُ محبَّةَ اللهِ، وقد جاءَ في الحديثِ الصحيحِ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَنَاصِحِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَالْمُتَحَابُّونَ فِيَّ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ»(٢).

القُربةُ الخامسةُ: ما جاءَ في هذا الحديثِ العظيمِ حديثِ أبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ -والحديثُ عندَ التِّرمذيِّ في سننه-: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةٍ مِنْ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَمَّا الأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ»(١).

فأحبُّ الأشياءِ إلى اللهِ تلكَ القطراتُ التي تنزِلُ من مُقلتيكَ خشيةً منَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إذا خلَوْتَ بنَفسِكَ تذكَّرْت عظمةَ الله فبكَيْت، أو تذكَّرْت قدرةَ اللهِ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٢)، والترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، رقم (٢٨١٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادته على المسند (٥/ ٣٢٨)، وأحمد (٥/ ٢٣٧) بنحوه، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل المرابط، رقم (١٦٦٩).

فبكَيْت، أو تذكَّرْت الذنبَ فبكَيْت، أو تذكَّرْت ما مضَى من حياتِكَ وإسرافِك فبكَيْت، فمَن نزَلَت مِن مُقلتَيْه هذه القطراتُ أحبَّهُ اللهُ.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم اللهُ- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه الكريمِ قائِلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ وزِدْ وبارِكْ عليهِ.

• • k • •

(٣٠)

عامٌ جديدٌ

يَأتي العامُ الجديدُ شهيدًا علينا وشاهدًا لنا، والموفَّقُ المسدَّدُ من ملأَه بالصالحاتِ، وأخلاهُ منَ السيِّئاتِ، والأعمارُ تتناقصُ بتَصرُّمِ الأيامِ والليالي والشهورِ، كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

وكما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٧-٤٠].

إذا أُضيفَ لك عامٌ في عمرِك فهذا توفيقٌ منَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لكَ، فاحمَدِ اللهَ؛ فإنَّ الأعرابيَّ الذي جاءَ إلى النبيِّ ﷺ قالَ له سائلًا: مَن خيرُ الناسِ؟ فقالَ ﷺ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ»[(١)].

فكونُنا يُزادُ في أعمارِنا عامٌ جديدٌ فهذا خيرٌ، وهو وعاءٌ لنضَعَ فيه منَ الحسناتِ ما نشاءُ كما يشاءُ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قالَ أبو الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ابْنَ آدَمَ طَأِ الأَرْضَ بِقَدَمِكَ فَإِنَّهَا عَنْ قَلِيلٍ تَكُونُ قَبْرَكَ، ابْنَ آدَمَ إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، فَكُلَّمَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ، ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَمْ تَزَلْ

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، رقم (٢٣٢٩)، من حديث عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِي هَدْمِ عُمُرِكَ مُنْذُ يَوْمِ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»[١].

لِكُــلِّ شَيْءٍ إِذا مــا تَــمَّ نُقْصــانُ ... فَــلا يُغَــرَّ بِطِيــبِ العَــيْشِ إِنْســانُ
هِــيَ الأُمــورُ كَــما شــاهَدْتَها دُوَلٌ ... مَــنْ سَرَّهُ زَمَــنٌ ســاءَتْهُ أَزْمــانُ[٢]

وهناكَ قواعدُ للتعامُلِ معَ العامِ الجديدِ وهي:

القاعدةُ الأُولى: لا تَنشغِلْ بالماضي على حسابِ الحاضرِ، واعلَمْ أنَّ العِبرةَ بالخواتيمِ.

فلا تَنشغِلْ بالماضي فتَتأسَّى عليه وتَحزَنْ، فإِنْ كانَ ماضيكَ عِشرين سَنةً، أو ثلاثين سَنةً، أو خمسين سَنةً فلا تَنشغِلْ بالتفكيرِ والتأسِّي لما وضَعْت فيه، بل أنتَ ابنُ اليومِ، فابْنِ لِلْغَدِ، واشتغِلْ بحاضِرك فإنَّ العبرةَ بالخواتيمِ، حيثُ إنَّ بعضَ الناسِ يَلبَسُ عليهمُ الشيطانُ ويقولُ: الآنَ لا يصلحُ، عِشرون سَنةً، أو ثلاثون سَنةً، أو أربعون سَنةً ملأتَها بالسوادِ. فيُقعِدُه عنِ المَكرُماتِ، وأن يلِجَ بابَ التوبةِ، وأن يُحسنَ ما بقِيَ من حياتِه.

فلا تَلتفِتْ للشيطانِ وتسويلِه، وأصْغِ إلى قولِ النبيِّ ﷺ؛ فقَدْ جاءَ في سنن الترمذيِّ من حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ**» فقيلَ: كيفَ يستعملُه يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوْتِ**»[٣] أي: لا تأتيه مَنيَّتُه إلَّا وهو في عمَلٍ صالحٍ: في سجدةٍ، أو ركعةٍ، أو صلاةٍ،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد رقم (٤٢٦)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠١٨٠).
(٢) الأبيات لأبي البقاء الرندي، انظر: نفح الطيب (٤/ ٤٨٧).
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٦)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار، رقم (٢١٤٢).

أو في بِرٍّ، أو صدقةٍ، أو صيامٍ، فانشغِلْ بالحاضِرِ ودَعْك من الماضي، نعَمْ تذكَّرِ الماضيَ لتنتفعَ به في حاضِرِك.

وقد مَرَّ الفضيلُ بنُ عياضٍ -رحمه الله تعالى- على رجُلٍ كبيرٍ في السِّنِّ فقالَ له: كَمْ أتَى عليك؟ قال: سِتُّون سَنةً. قالَ: فأنتَ منذُ سِتين سَنَةً تسيرُ إلى اللهِ، ويُوشِكُ أن تبلُغَ.

قالَ الرجلُ: إنا للهِ وإنا إليهِ راجِعون. قال: مَن علِمَ أنه لله عبدٌ، وأنه إليه راجِعٌ فليعلَمْ أنه بينَ يديه موقوفٌ، ومَن علِمَ أنه موقوفٌ فليعلَمْ أنه مسؤولٌ، ومَن علِمَ أنه مسؤولٌ فليُعِدَّ للمسألةِ جوابًا.

قالَ الرجلُ: فما الحيلةُ؟ قال الفُضيلُ: يسيرةٌ. قال: فما هِيَ؟ -وهذا هو الشاهدُ- قالَ: تُحسِنُ فيما بقِيَ يُغفَرْ لك ما مضَى؛ فإنَّك إذا أسَأْت فيما بقِيَ أُخِذْت بما مضَى وبما بقِيَ[1]. إنَّها فلسفةٌ ربانيةٌ.

فأحسِنْ في أيامِك هذه ولا تَلتفِتْ إلى الوراءِ وتنشغِلْ به، ولا يَكُنْ ذاكَ الأملُ الَّذي يُقعِدُك عن التوبةِ، وتقولُ: إنْ شاءَ اللهُ السنةَ القادمةَ، أو التي بعدها، أو الَّتي تَليها.

القاعدةُ الثانيةُ: كُنْ شديدَ المحاسَبةِ معَ نفسِك.

فحاسِبْ نفسَك هذه التي تتمرَّدُ، ونحن نحتاجُ جميعًا أن نحاسِبَ نفوسَنا، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ لَنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ وهذه مُحاسبةٌ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١١٣).

ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر:٦٢]، فيحاسبُ الإنسانُ نفسَه في كلِّ ليلةٍ؛ ماذا عمِلت؟ إلى أينَ وصَلْت؟ ماذا قدَّمْت؟

ومن روائعِ عُمرَ الفاروقِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه كانَ يكتُبُ لعُمَّاله؛ فكانَ مِمَّا يَكتُبُه لعُمَّالِه أن يقولَ: «حاسِبْ نفسَك في الرَّخاءِ قبلَ حِسابِ الشدةِ، فإنَّه مَن حاسبَ نفسَه في الرَّخاءِ قبلَ حسابِ الشدةِ عادَ مرجعُه إلى الرضا والغِبطةِ، ومَن أَهْمَلَه حياتُه وشغلَه هواهُ عادَ مرجعُه إلى النَّدامةِ والحسرةِ»[(١)].

وموضوعُ المحاسبةِ يحتاجُ إلى بسطٍ أكثرَ، فهناكَ أقوالٌ ودُررٌ وأحاديثُ وآياتٌ ترشدُ إلى أهمِّيةِ المحاسبةِ، ولكن أَختصِرُ ذلكَ في قولِ ميمونِ بنِ مهرانَ -رحمه الله تعالى- يقولُ: «لا يكونُ العبدُ تقيًّا حتَّى يكونَ أشدَّ محاسبةً لنفسِه منَ الشَّريكِ لشريكِه»[(٢)] ولذا قيل: النَّفسُ كالشَّريكِ الخوَّانِ، إن لم تُحاسِبْه ذهَبَ بمالِك.

القاعدةُ الثالثةُ: إذا وقَعَت فانهَضْ، وإذا أخطَأْت المَسيرَ فصحِّحْ مسارَك، وإذا أَسَأْت فاعتذِرْ، وإذا أَذنَبْت فاستغفِرْ.

وفي نهايةِ كلِّ عامٍ وبدايتِه يتناقلُ الإخوةُ رسائلَ الاعتذارِ عبرَ الجوالاتِ، وطلب التحلُّلِ. وأنا أقولُ: لنرسِلْ هذه الرسائلَ إلى الواحدِ الغفارِ، ولنصحِّحْ مسارَنا إليه، ولنَعتذِرْ إليه، ونستغفِرْه، ففي الوقتِ إمهالٌ.

وقَدْ قالَ الحقُّ سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس رقم (١٦)، والبيهقي في الشعب (١٠١١٧).
(٢) أخرجه هناد في الزهد (٢/ ٥٨٠)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٦٤١٩).

يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران:١٣٥-١٣٦] فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وفي بداية الآية قال: ﴿فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فهؤلاءِ الذين فعَلوا الفاحشةَ وظلَموا أنفُسَهم إذا تذكَّروا فصحَّحوا مسيرَهم، واعتَذَروا مِمَّا أَساؤُوا، واستغفَروا اللهَ جازاهم بالمغفرةِ، وبجنَّاتٍ تَجري من تحتِها الأنهارُ.

بل قالَ نبيُّنا ﷺ: «يَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[(١)]، وهَذا فضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضلِ العَظيمِ.

القاعدةُ الرابعةُ: أسِّسْ لمشاريعَ جديدةٍ.

قال الحسنُ البصريُّ -رحمه الله تعالى-: «كلُّ يومٍ ينشقُّ فجرُه يُنادِي: يا ابنَ آدمَ أنا يومٌ جديدٌ، وعليكَ شهيدٌ، فتزوَّدْ منِّي فإنِّي إذا مضَيْت لا أعودُ»[(٢)].

فإذا كانت في الأعوامِ التي مضَتْ ليسَ من مشاريعِك الصلاةُ في جماعةٍ، فأسِّسْ لمشروعٍ جديدٍ اسمُه: صلاةُ الجماعةِ في المسجدِ، من هذا العامِ.

كذلِك قُلْ في نفسِك: السننُ الرواتبُ لن أَترُكَها من هذا العامِ، فهذا مشروعٌ جديدٌ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم (٣٥٤٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي الدنيا في الزهد رقم (٤٢٤).

وقل: صَلاة الضُّحى أصلِّيها في كلِّ يومٍ.

وإذا كنتَ مُدْبِرًا عن بِرِّكَ لوالديكَ وإحسانِك لهما فضَعْ لك مَشروعًا جديدًا سَمِّهِ: برُّ الوالِدين.

إذَنْ أسِّسْ لمشاريعَ جديدةٍ؛ فإنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أبقاكَ عامًا جديدًا لتملأَه بالطاعاتِ، ولا ندرِي أيضافُ إلى أعمارِنا عامٌ آخرُ أم لا.

وهي نَصيحةُ مشفِقٍ، اصرُخْ بها في وجهِ نفسِكَ وقُلْ:

يَا نَفْسُ تُوبي فَـإِنَّ المَـوْتَ قَـدْ حانَـا ... واعْصِي الهَوَى فَالهَوَى ما زالَ فَتَّانَـا

أَمَـا تَـرَيْنَ المَنايـا كَيْـفَ تَلْقُطُنـا ... لَقْطًـا فَتُلْحِـقُ أُخْرانـا بِأُولانـا

في كُـلِّ يَـوْمٍ لَنـا مَيْـتٌ نُشَـيِّعُهُ ... نَـرَى بِمَصْـرَعِهِ آثـارَ مَوْتانـا[1]

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهدَى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) ذكرها ابن الجوزي في المدهش (ص:٣٧٥)، ويوسف بن عبد الهادي في آداب الدعاء (ص:٢٩٤)، غير منسوبة.

(٣١)

مكانةُ المرأةِ في الإسلامِ

لَسْنا في حاجةٍ إلى تشريعاتٍ واتفاقياتٍ تحفظُ للمرأةِ المسلِمةِ حقوقَها، ولَسْنا في حاجةٍ إلى استيرادِ ثقافاتِ الغربِ أوِ الشرقِ لنشكِّلَ بها هُويةَ نسائِنا، وشخصيةَ بناتِنا، وليسَ في دينِنا تَعدٍّ وظُلمٌ للمرأةِ حتَّى نبحثَ لها في فلسفاتِ الكفَّارِ ما يحفظُ لها مكانتَها ويرفعُ عنها ذلك الظلمَ والتعدِّيَ، بل إن دينَنا رفعَ الظلمَ والتعدِّيَ عن المرأةِ قديمًا وحديثًا.

ونحنُ لا نريدُ تشريعاتٍ غَرْبِيَّةً وشرعُ ربِّنا بينَ أيدينا، ولا نُريدُ اتفاقياتٍ ونهجُ نبيِّنا ﷺ نهجُنا.

إذَنْ: لماذا هذا السعيُ الحثيثُ، والإصرارُ الدائمُ على تجريدِ المجتمعِ منَ البقيةِ الباقيةِ من دينِه، المحصورةِ في دائرةِ القضاءِ، وفي دائرةِ الأحوالِ الشخصيةِ وما يتعلَّقُ بالأسرةِ؟!

ولماذا يروَّجُ في مثلِ هذه الأيامِ لتلكَ الاتفاقيةِ المشؤومةِ -اتفاقيةِ السِّيدَاوْ- يعرفُها بعضُنا وربَّما يَجهلُها أكثرُنا، ولا يضرُّ مَن جهلَها، وهي الاتفاقيةُ المشؤومةُ الَّتي يُقصَدُ بها هدمُ ما بقِيَ منَ الدينِ، ومعارضةُ شرعِ ربِّ العالمين عن طريقِ هدمِ هذا العمودِ المتبقِّي وهو عمودُ الأسرةِ.

أقولُ لكلِّ حريصٍ: أينَ نحنُ من قولِ ربِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

أينَ نحنُ من قولِ ربِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

أينَ نحنُ من قولِ ربِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

أينَ نحنُ من قولِ ربِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

أينَ نحنُ من قولِ نبيِّنا ﷺ وقد خرجَ إليه الفاروقُ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالَ: يا رسولَ اللهِ إنَّا نسمعُ أحاديثَ مِن يهودَ فتُعجِبُنا أفترَى أن نكتبَ بعضَها؟ قال: «أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»[1]، أي: أمتحيِّرون في أمرِ دينِكم حتَّى تَبحَثوا في حُثالةِ اليهودِ والنصارى وكتابُ ربِّكم بين أيديكم.

ولَمَّا جاءَ الإسلامُ إذا بالمرأةِ مُهانةً ذليلةً حقيرةً، تعيشُ في دَيَاجِيرِ الظُّلمِ، فأخرَجَها إلى النورِ، وإلى العدلِ، وإلى الفسحةِ، ورفعَ عنها الجَورَ، فقَدْ أتاها وهي مُهانةً، ويُهانُ مَن عندَه امرأةٌ حتَّى إذا بشِّرَ الرجلُ بمَولودةٍ علَتْه الكآبةُ والحزنُ؛ قالَ الحقُّ سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٨- ٥٩]، فهوَ بين خِيارَيْن إمَّا أن يئدَ هذه المولودةَ، أو يُبقِيها مُهانةً لا قيمةَ لها ولا إنسانيةَ لها.

وقد جاءَ الإسلامُ إلى المرأةِ وليس لها حقٌّ ولا نصيبٌ ولا إرثٌ، وإنما هي متاعٌ تُورثُ، قالَ الحقُّ سبحانه -يرفعُ هذا الظلمَ عنِ المرأةِ-: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء:٧].

قد جاءَ الإسلامُ إلى المرأةِ فوجَدَها متاعًا كأثاثِ البيتِ، بل أقلَّ من ذلِك، إذا ماتَ الرجلُ عن زوجتِه ورِثَها أبناؤُه، فنكَحوها، قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٢٢]، فأيُّ مهانةٍ أعظمُ مِن ذلك؟

لذا تجدُ وصيةَ نبيِّنا ﷺ تتردَّدُ من زمَنٍ بعيدٍ إلى قيامِ الساعةِ وصيةً بالنساءِ، دوَّى بها ﷺ في أعظمِ موقِفٍ في أعظمِ يومٍ في حَجةِ الوداعِ حينَما قالَ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ**» أي: أسيراتٌ، هذه روايةُ ابنِ ماجَهْ[(١)].

وفي (صحيح مسلم) قالَ ﷺ: «**فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ**»[(٢)].

إذَنْ: نحنُ لا نحتاجُ إلى اتفاقياتٍ، ولا إلى تشريعاتٍ، بل نحتاجُ أن نطبِّقَ شرعَ اللهِ، لا أَنْ نُنحِّيَه ونستبدلَه بهذه التشريعاتِ الهابطةِ الأرضيةِ التي هي من نَتاجِ أفكارِ الناسِ، هذا هو الَّذي تحتاجُه الأمةُ أن تعودَ بكلِّها إلى دينِ اللهِ كلِّه.

والمجالُ ليسَ مجالَ الحديثِ عن مكانةِ المرأةِ في الإسلامِ، لكنَّني أطوفُ على بعضِ المعاني والزوايا:

يُوصي هذا الدينُ العظيمُ بالمرأةِ خيرًا؛ فيحرِّمُ عقوقَها أمًّا، ويحرِّمُ وأْدَها بنتًا،

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، رقم (١٨٥١)، من حديث عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما جاءَ في صحيح البخاريِّ قالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَوَأْدَ البَنَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ»[(١)]، فجعلَ الأُمَّ مكانَ تكريمٍ، وجعَلَ البنتَ مكانَ رحمةٍ، فلا تُعقَّ أمٌّ، ولا تُوأَدُ بنتٌ.

وكذا يقولُ نبيُّنا ﷺ وهو يجعلُ المرأةَ على رأسِ أصحابِ الحقوقِ تُجاهَ الأبناءِ؛ حينَما أتى إليه رجلٌ وسألَه: يا رسولَ اللهِ مَن أحقُّ الناسِ بحُسنِ صَحابتي؟ قالَ: «أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَن؟ قالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قال: ثُم مَن؟ قال: «ثُمَّ أُمُّكَ» قال: ثُم مَن؟ قال: «أَبُوكَ»[(٢)].

وهذا إعزازٌ للمرأةِ وإكرامٌ لها لم تَجِدْه في الجاهليةِ لا القديمةِ ولا الحديثةِ.

بل يُوصي هذا الدينُ العظيمُ الرجلَ بامرأتِه خيرًا؛ فيوصيه بها بنتًا وأمًّا وزوجةً وأختًا، فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاءَ في (صحيح مسلمٍ): «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً» أي: لا يَكرَه مؤمِنٌ مؤمنةً يعني: زوجتَه «إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»[(٣)].

وقالَ أيضًا كما جاءَ في (صحيح ابنِ حبَّانَ): «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»[(٤)].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم (٥٩٧٥)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم (٥٩٧١)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم (٢٥٤٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم (١٤٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) صحيح ابن حبان رقم (٤١٧٦)، وأخرجه أيضا أحمد (٢/ ٤٧٢)، والترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فانظُرْ إلى هذا التعظيمِ والاحترامِ والتوقيرِ للمرأةِ، فقد ربطَ احترامَها وتوقيرَها بالإيمانِ.

وقد أتَى رجلٌ -كما جاءَ في سنن أبي داودَ- فقالَ: يا رسولَ الله ما حقُّ زوجةِ أحدِنا عليه؟ قالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، أَوِ اكْتَسَبْتَ، وَلَا تَضْرِبِ الوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي البَيْتِ»[(١)]، أي: مِن علوِّ مَنزلةِ المرأةِ ألَّا يُقالَ لها: قبَّحَك اللهُ. فأيُّ إكرامٍ وإعزازٍ هذا؟! وهل تبحثُ النساءُ اللاهثاتُ وراءَ اتفاقياتِ السِّيدَاوْ وغيرِها عن إعزازٍ أفضلَ من هذا الإعزازِ، وإكرامٍ أفضلَ من هذا الإكرامِ؟!

وقد جعَلَ النبيُّ ﷺ المرأةَ سببًا لدخولِ الجنةِ والوقايةِ من النارِ، فقَدْ جاءَ في (صحيح مسلمٍ) أنَّ امرأةً دخلَت على النبيِّ ﷺ ففتَحَت لها عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا البابَ، فإذا بِها فقيرةٌ ومعها ابنتانِ تسألُ، فبَحَثَت عائشةُ لها في البيتِ فلم تَجِدْ إلَّا تمرةً واحدةً فأعطَتْها الأمَّ، فقسمَتْها بين ابنتَيْها ثُم خرَجَت، فإذا بالنبيِّ ﷺ يدخلُ فتقصُّ عليه عائشةُ الحدثَ، فإذا به يقولُ -وما أعظَمَ ما قالَ!-: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ البَنَاتِ بِشَيْءٍ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»[(٢)]، أي: رفعَ قيمةَ البنتِ فارتَفَعَت قيمتُها عندَ الرجالِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٧)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب في حق المرأة على زوجها، رقم (٢١٤٢)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، رقم (١٨٥٠)، من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، رقم (١٤١٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم (٢٦٢٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفي روايةِ الترمذيِّ قالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ» أي: بِنتَيْن «دَخَلْتُ أَنَا وَهُوَ الجَنَّةَ كَهَاتَيْنِ» وأشارَ بأُصبُعَيْه[(١)].

وقالَ ﷺ -والحديثُ عندَ ابن ماجَهْ في سُننه-: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ، وَسَقَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ» أي: ممَّا يجِدُ «كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(٢)].

إذَنْ: نحنُ لسنا في حاجةٍ إلى تشريعاتٍ واتفاقياتٍ يُخدعُ بها عمومُ الناسِ.

وهذا الكلامُ الذي تقدَّمَ إنَّما أقولُه ناصحًا لنفسي ولكلِّ مسؤولٍ يمرُّ تحتَ يديه هذا القرارُ فيمرِّرُه بتوقيعٍ أو بتزكيةٍ أو بثناءٍ ومدحٍ، لا لشيءٍ إلَّا لأجلِ فلانٍ أو فلانةٍ، وقد يَنسَى فأُذكِّرُه أنَّنا في هذه الحياةِ الدنيا غيرُ باقين، بل نحنُ مرتَحِلون عنها، ولَنْ نجدَ أمامَنا إلَّا أعمالَنا، ولن يأتِينا في قبورِنا إلَّا آثارَنا، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢].

فنَصيحتي لكَ أيًّا كانَ موقِعُك أن تراعِيَ اللهَ في دينِك وفي دينِ مَن ولَّاك اللهُ عليهم، ولا يَأتي مَن يَأتي إلى جنابِ الدينِ وأسوارِ الدينِ في ولايتِك وفي عهدِك وفي مسؤوليتِك، فإنَّ الناسَ لا يُغنون عن بعضِهم شيئًا، وإنَّ العبدَ إذا سَنَّ سُنةً سيئةً فعليه وزرُها ووزرُ مَن عمِلَ بها من بعدِه، هكذا أخبرَ النبيُّ ﷺ، فقَدْ جاءَ في صحيح

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم (٢٦٣١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات، رقم (١٩١٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، رقم (٣٦٦٩)، من حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مسلمٍ أن النبيَّ ﷺ قالَ: «وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ»[(١)]، فأينَ المفرُّ إذا كُنَّا سنحملُ أوزارَنا وأوزارَ الآخَرين.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهدَى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ الربُّ الكريمُ في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• ● k ● •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣٢)

آفــةُ الكَسَلِ

كم نجدُ منَ الناسِ مَن يتذرَّعُ عندما يفتُرُ ويَكْسَلُ عنِ الصالحاتِ، ويتراجعُ عن فِعلِ الخيراتِ بذريعةِ أنَّه كسلانُ؛ فيتركُ حُضورَ الجمعِ والجماعاتِ، أو يتأخَّرُ عنها، وإذا سئِلَ قالَ: أشعرُ بالتعبِ، كذلك إذا ناداه والِداه تكاسَلَ عن تلبيةِ النداءِ، أو إذا احتاجَتْه الأُمةُ ليُعطيَ مِن زهرةِ شبابِه أو في فُحولتِه ورُجولتِه، تذرَّعَ بالخمولِ والكسلِ.

ونحن نحذِّرُ من الكسَلِ كما قِيل:

وَدَاعًـــا أَيُّهَـــا الكَسَـــلُ ... أَتَـــاكَ العَـــزْمُ وَالعَمَـــلُ
أَتَـــاكَ الفَجـــرُ مؤتلقًـــا ... فأَحْيَـــا في نُفوسِـــنا الأمَـــلُ

وقد قال شدادُ بنُ أوسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: «يَا شَدَّادُ بْنَ أَوْسٍ إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدِ اكْتَنَزُوا الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ، فَاكْنِزْ هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ»(١).

وربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى يريدُنا أشدَّاءَ مُتحرِّكين لا ساكنينَ خامِلين؛ لذا قال لنبيِّه موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه:٤٢]، أي:

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٧٩، رقم ٧١٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٦٦- ٢٦٧).

لا تتأخَّرا. قالَ الشيخُ السعديُّ -رحمه الله تعالى- عندَ هذِه الآيةِ: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ أي: ولا تَفتُرا ولا تَكسلَا عن مُداومةِ ذِكْري، بلِ استمِرَّا عليه، والْزَماهُ كما وَعَدْتُما بذلك ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٣٣-٣٤][(١)].

كذلكَ قالَ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح:٧-٨]، فأنتَ أيُّها المباركُ بإيمانِك وإسلامِك في حرَكةٍ دائمةٍ؛ فإذا فرَغتَ من عِبادةٍ نصَبْت إلى غيرِها، وكلُّ ذلك رغبةً فيما عندَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

بل جاءَ في الحديثِ الصحيحِ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العُطَاسَ، وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ**»[(٢)]، أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ العُطاسَ؛ لأنه دليلٌ على النشاطِ والحركةِ، ويَكرَهُ التثاؤُبَ؛ لأنَّه دليلٌ على الخمولِ والفتورِ والراحةِ.

وما أجملَ ما جاءَ في قولِ الراغبِ -رحمه الله تعالى- في كتابِه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) حيثُ قالَ: «مَن تَبطَّل وتعطَّلَ انسلَخَ منَ الإنسانيةِ، بَلْ منَ الحَيوانيةِ، وصارَ مِن جِنسِ الموتَى، ومَن تعوَّدَ الكسلَ ومالَ إلى الراحةِ فقَدَ الراحةَ؛ لذا قيلَ: إذا أرَدْت ألَّا تتعبَ فاتْعَبْ لئلَّا تَتعبَ»[(٣)]. إنها فَلسفةٌ عظيمةٌ؛ فإنَّك إذا أرَدْت ألَّا تتعبَ في مستقبَلِ أيامِك في الآخرةِ فاتعَبْ هُنا.

لذا هذا الحديثُ أُوجِّهُه على وجهِ الخصوصِ لشبابِ الأُمةِ: إنَّك إذا تعِبْت الآنَ ارتَحْتَ غدًا، سواءٌ كانَ هذا الغدُ غدَ الدنيا، أو غدَ الآخرةِ.

---

(١) تفسير السعدي (ص:٥٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يستحب من العطاس، رقم (٦٢٢٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الذريعة (ص:٢٦٩).

لذا تَقولُ العربُ: إيَّاكَ والكسلَ والضجَرَ؛ فإنَّك إذا كسلْتَ لم تُؤدِّ حقًّا، وإذا ضجِرْت لم تصبِرْ على الحقِّ.

وقَدْ قالَ عمرُ بنُ الخَطابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَرى الرجُلَ فيُعجِبُني فأَسألُ عن عمَلِه، فيُقالُ: لا مَهنةَ له. فيَسقُطُ من عَيْني»[(١)]، فهذه نظرةُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ نحو أولئِكَ البطَّالينَ الَّذينَ لا عَملَ لهم لا في دُنيا ولا في آخِرةٍ، بل هُم خامِلُون لا تَنتفَعُ بهمُ الأمةُ، ولا ينتفعُ بهم أهلُهم، ولا ينتفِعون هم بأنفُسِهم.

والكسلُ له مخاطرُ أُوجِزُها فيما يَلي:

الخطرُ الأوَّلُ: خَسارةُ الدنيا قبلَ الآخرةِ.

فانظُرْ إلى هؤلاءِ الكسالَى الذين يتأخَّرون في دراستِهم، وعن أعمالِهم، وعن صالحِ عبادتِهم، فهم يخسَرون الدنيا ويَخسَرون الآخرةَ، يقولُ ابنُ الجوزيِّ -رحمه الله تعالى-: «ومَن ساكَنَ الكسلَ إذا رأَى أقرانَه برَزوا في العِلمِ وهو جاهلٌ، أوِ استغنَوْا وهو فقيرٌ، فهل يَبقَى للالتذاذِ بالكسلِ والراحةِ معنًى؟»[(٢)].

وقد قيلَ لعبدِ الواحدِ بنِ سُليمانَ بنِ عبدِ الملكِ -من أُسرةٍ مالكةٍ، كان فيها المُلكُ، فزالَ ملكُهم-: ما أذهَبَ مُلكَكُم؟ قال: «نومُ الغدواتِ، وشربُ العشواتِ»[(٣)]. أي: في الصباحِ الذي تَنتشرُ فيه البركاتُ، وينشطُ فيه العاملون كانَ أربابُنا وآباؤُنا نائمينَ، وفي الليلِ حينَما يقومُ القائمُ فيكونُ من المتهَجِّدين كان آباؤُنا من الشارِبين؛ فذهَبَ مُلكُنا.

---

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم رقم (٢٥١٧).
(٢) صيد الخاطر (ص:٣١٤).
(٣) انظر: ربيع الأبرار للزمخشري (٥/ ٢٩٢).

لذا يقولُ صخرٌ الغامديُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما جاء في سنن ابنِ ماجَهْ: كانَ نبيُّنا ﷺ يقولُ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»، وكانَ إذا أرسلَ سَريةً أو بعَثَ جيشًا بعثَهم في أوَّلِ النهارِ[(١)].

لذا أخذَ صخرٌ الغامديُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذه الوصيةِ وكان تاجرًا فكانَ لا يبعثُ تجارتَه إلَّا في أولِ النهارِ، فأثرَى وكثُرَ مالُه.

بل قَدْ أخبرَ نبيُّنا ﷺ أنَّ الحيواناتِ والطيورَ تسيرُ في هذا الكونِ على نهجِ هذا الناموسِ، فقالَ ﷺ والحديثُ عندَ الترمذيِّ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»[(٢)].

الخطرُ الثاني: أنَّ الكسلَ آفةُ العبادةِ.

فإذا دخلَ الكسلُ على العبادةِ أصابَها في مقتَلٍ، وقَدْ جاءَ في (مصنف ابنِ أبي شَيبةَ) عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قالَ: «لكلِّ شيءٍ آفةٌ، وآفةُ العِلمِ النِّسيانُ، وآفةُ العبادةِ الكسَلُ»[(٣)].

وقالَ الزمخشريُّ: «التعبُّدُ يثقلُ على أهلِه كثقلِه في الميزانِ، والكسلُ يخفُّ على أهلِه كخفتِه في الميزانِ»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٧)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر، رقم (٢٦٠٦)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة، رقم (١٢١٢)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما يرجى من البركة في البكور، رقم (٢٢٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم (٤١٦٤)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ١٣٨).

(٤) ربيع الأبرار (٣/ ٤٠٢).

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

وقد بيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ هذه الآفـةَ رُبَّما تكونُ سببًا لردِّ العمـلِ فقالَ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

الخطرُ الثالثُ: أنَّه أحدُ سهامِ إبليسَ الَّتي يُوجِّهُها ويصوبُها تُجاهَنا.

قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الشيطانُ جاثِمٌ على قلبِ ابنِ آدمَ؛ فإذا سَها وغفَلَ وسوَسَ، وإذا ذكَرَ اللهَ خنَسَ»(١)، فهو حاضرٌ على الدوامِ، ومِن أدواتِه أنْ يصيبَنا بالكسلِ.

وممَّا يُبيِّنُ دقةَ حُضورِه ما جاءَ في صحيح البخاريِّ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَتَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلَاثًا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيْشُومِهِ**»(٢).

بل قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاءَ في صحيح البخاريِّ: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ**»، وكلُّنا يحصلُ له ذلكَ، فإذا وضعَ رأسَه على وسادتِه جاءَ الشيطانُ فضربَ على رأسِه بثلاثِ عُقدٍ، يختمُ على كلِّ عقدةٍ بهذا الختمِ: «عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ»،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (٣٧٥٠)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٩١٩)، وأبو داود في الزهد رقم (٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٩٥)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الإيتار في الاستنثار، رقم (٢٣٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»(١).

وهذه إرشاداتٌ يبيِّنُ فيها نبيُّنا ﷺ خطورةَ الكسلِ، وأنَّه سهمٌ في يدِ إبليسَ يصيبُ به هؤلاءِ الغافلينَ، الَّذين هُم في سهوٍ عن الأخذِ بأسبابِ النجاةِ.

وقد جاءَ في حِلية الأولياءِ مِن حديثِ يزيدَ بنِ مَرثدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «وَكَمَا لَا يُجْنَى مِنَ الشَّوْكِ العِنَبُ لِذَلِكَ لَا يَنْزِلُ الأَبْرَارُ مَنَازِلَ الفُجَّارِ؛ فَاسْلُكُوا أَيَّ طَرِيقٍ شِئْتُمْ؛ فَأَيُّ طَرِيقٍ سَلَكْتُمْ وَرَدْتُمْ عَلَى أَهْلِهِ»(٢).

فبيَّنَ لنا النبيُّ ﷺ في الحديثِ أنَّ الخيارَ لنا، وهما طريقانِ، وكلُّ طريقٍ يوردُ على أهلِه، فمَنْ أرادَ أهلَ الهِمَّةِ والنشاطِ والطموحِ سلكَ طريقَهم، ومَن أرادَ أهلَ الفتورِ والتراخي والكسلِ سلكَ طريقَهم، فلا يمكنُ أن يسلُكَ الإنسانُ طريقَ الفجارِ فينزلُ في منازلِ الأبرارِ.

والناظرُ في حالِ الأمةِ يجدُ أنَّ القِلةَ هم ذَوُو الهمةِ النشطاءُ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ في حديثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِئَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً»(٣)، فالناظرُ إلى حالِ الناسِ يَجِدُهم بهذه الأعدادِ الغفيرةِ، فإذا أرادَ مَن يحملُ عليه ثقلَه

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل، رقم (١١٤٢)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع، رقم (٧٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) حلية الأولياء (١٠/ ٣١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم (٦٤٩٨)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: «الناس كإبل مئة»، رقم (٢٥٤٧).

وهمومَه لا يجدُ واحِدًا في المِئةِ، وكما قالَ الأوَّلُ:

فَمَا أَكْثَرَ الأَصْحَابَ حِينَ تَعُدُّهُمْ لَكِنَّهُمْ فِي النَّائِبَاتِ قَلِيلُ[١]

وقد رغَّبَنا النبيُّ ﷺ في القُوةِ والنشاطِ، وحذَّرَ منَ العجزِ والكسلِ كما جاءَ في صحيح مسلمٍ من حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالَ: «الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[٢].

فإذا أرَدْنا النجاةَ من آفةِ الكسلِ لا بُدَّ أَنْ نسلُكَ الطريقَ الصحيحَ، وأَنْ نأخذَ بالدواءِ الناجعِ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً»[٣]. فأمَرَنا بأخذِ الدواءِ.

ودواءُ داءِ الكسلِ ما نجِدُه في هذه الوَصفةِ:

أولًا: استعِنْ باللهِ في خلَواتِكَ وفي سِرِّكَ وجهرِك.

فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقولُ لَنا في سورةِ الأنعامِ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٧-١٨].

---

(١) البيت للشافعي، نسبه له البيهقي في المناقب (٢/ ١٠٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم (٢٦٦٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤١٣)، وابن ماجه: كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء، إلا أنزل له شفاء، رقم (٣٤٣٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم (٥٦٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ سبحانه في سورةِ يونُسَ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:٤٢].

فادْعُ اللهَ قبلَ أن تعجِزَ، وقبلَ أن تُصيبَكَ آفةُ الكسلِ، فإنْ أصابَتْك الآفةُ فادْعُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّ الدعاءَ ينفعُ ممَّا نزلَ وممَّا لم ينزِلْ، هكَذا أخبَرَ النبيُّ ﷺ حيثُ قالَ: «إِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللهِ بِالدُّعَاءِ»(١).

فتعوَّذْ باللهِ مِنَ الكسلِ، فإنَّنا لَسْنا أفضلَ مِن نبيِّنا ﷺ، فقَدْ جاءَ من حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ البخاريِّ في صحيحه قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يتعوَّذُ يقولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ»(٢).

وأوصَى النبيُّ ﷺ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(٣)، فتعلَّقْ باللهِ وقُلْ: يا اللهُ.

لكنَّ المصيبةَ أنَّ العاجِزين الكسالى يَعجِزون حتَّى عنِ الدعاءِ؛ لذا جاءَ في (صحيح الجامِعِ): أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ، وَأَبْخَلُ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٤٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ من أرذل العمر، رقم (٦٣٧١)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره، رقم (٢٧٠٦).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم (١٥٢٢)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٣)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ»[١]، فإذا رأيتَ الإنسانَ يَعجِزُ حتَّى عنِ الدعاءِ فاغسِلْ يديكَ منه، فقَدْ تُودِّعَ منه، فإنَّ آخرَ الأمرِ الدعاءُ.

ثانيًا: تأمَّلْ وتفكَّرْ في عاقبةِ الأمورِ حسَنِها وقبيحِها.

فتفكَّرْ في عاقبةِ الأمورِ الَّتي كسلْتَ عنها وهي من جملةِ الطاعاتِ، وتفكَّرْ في عاقبةِ الأمورِ التي كسلْتَ عن تركِها وهِيَ من جملةِ المعاصِي والذنوبِ.

ولابنِ الجوزيِّ -رحمه الله تعالى- كلامٌ قيِّمٌ ذكَرَه في كتابِه (صفة الصفوةِ) حيثُ قالَ: «ومَنْ لَمْ يعرِفْ ثوابَ الأعمالِ ثقُلَتْ عليه في جميعِ الأحوالِ»[٢].

وأَذكُرُ مِثالَيْن:

المثالُ الأوَّلُ: قالَ النبيُّ ﷺ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ**» أي: التبكيرِ في كلِّ أمرٍ عامَّةً، وفي الصلاةِ خاصَّةً «**لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي العَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»[٣]، فلو يعلمُ هؤلاءِ المتخلِّفون عن طاعةِ صلاةِ الفجرِ والعشاءِ لأَتَوْهما ولو حبوًا.

وكذلكَ الذي يكسلُ عن تركِ المعصيةِ، يقولُ فيها ﷺ -في مِثالٍ أذكُرُه- هؤلاءِ الإخوةُ الذين يترُكون صلاةَ الجمعةِ، وتمرُّ عليهمُ الجمعةُ الواحدةُ، والجُمعتانِ،

---

(١) صحيح الجامع رقم (١٠٤٤)، وأخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٥٥٩١)، والبيهقي في الشعب رقم (٨٣٩٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٥٠٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان، رقم (٦١٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم (٤٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبعضُهم صارَ له زمنٌ لا يصلِّي الجمعةَ، وقد يكونُ صوتُ الخطيبِ يصلُ إليه في بيتِه، وهو لا يزالُ في غفلةٍ، وقَدْ قالَ النبيُّ ﷺ عن مثلِ هذا: «مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوُنًا بِهَا طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ»[1]، ولا يُرتجَى خيرٌ من شخصٍ قد طُبِعَ على قلبِه، وهذِه ثلاثُ جُمعٍ، فكيفَ بالَّذي مرَّتْ عليه ثلاثُ سنَواتٍ أو ثلاثون سَنةً وهو لم يصلِّ الجُمعةَ، وهو يُعِدُّ نفسَه منَ المسلِمين ويُمنِّي نفسَه بجَنَّةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ، وهو مطبوعُ القلبِ.

ثالثًا: اعرِضْ نفسَك على المواعظِ.

فأوجِدْ نفسَك في سِياطِها، واستمِعْ إلى واعظِ الخيرِ الموجهِ الناصحِ الواعظِ المشفقِ في كلِّ مكانٍ، فإذا وَجَدْت نفسَك لا تنتفعُ بالخُطبةِ في مسجدٍ ولا يلينُ قلبُك، فاذهَبْ إلى مسجدٍ آخرَ، وأوجِدْ نفسَك في المحاضنِ التربويةِ الناصحةِ تنتفِعْ، واطلُبِ الموعظةَ.

وقد جاءَ معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبيِّ ﷺ -والحديثُ عندَ الطبرانيِّ في معجمه- فقالَ: يا رسولَ الله أَوْصِني، فقالَ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى، وَاذْكُرِ اللهَ عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَشَجَرٍ، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ بِجَنْبِهَا حَسَنَةً؛ السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالعَلَانِيَةُ بِالعَلَانِيَةِ»[2]، فهكذا مَن يريدُ الخيرَ في نفسِه والنشاطَ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجمعة، رقم (١٠٥٢)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في ترك الجمعة من غير عذر، رقم (٥٠٠)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب التشديد في التخلف عن الجمعة، رقم (١٣٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب فيمن ترك الجمعة من غير عذر، رقم (١١٢٥)، من حديث أبي الجعد الضمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المعجم الكبير (٢٠/ ١٧٥، رقم ٣٧٤).

دخلَ أبو العتاهيةِ الشاعرُ المعروفُ على هارونَ الرشيدِ، فقالَ له هارونُ: أبو العتاهيةِ؟ قالَ: أبو العتاهيةِ. قال: الَّذي يقولُ الشعرَ؟ قال: الَّذي يقولُ الشعرَ. قالَ: عِظْني بأبياتِ شعرٍ وأوجِزْ -يريدُ أن ينتفِعَ- قال: عِظْني بأبيات شعرٍ وأوجِزْ، قالَ:

لا تَأمَنِ الموتَ في طـرفٍ ولا نفـسٍ ... ولـو تَمَنَّعْـتَ بالحُجَّـابِ والحَـرَسِ
واعلَـمْ بـأنَّ سِـهامَ المـوتِ قاصِـدةٌ ... لكُـــلِّ مُـــدَّرعٍ مِنَّـــا ومُـــتَّرسِ
تَرجو النَّجـاةَ ولَمْ تَسـلُكْ مَسـالِكَها ... إنَّ السَّـفينةَ لا تَجْـري عـلى اليَـبَسِ

ثُم خرجَ[1].

وهكَذا مَن أرادَ النجاةَ سلكَ طريقَ النجاةِ، ومَن أرادَ الخيبةَ والخُسرانِ سلكَ طريقَ الخيبةِ والخُسرانِ، قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنِّي لأُبغِضُ الرجلَ أَراه فارغًا ليسَ في شيءٍ من عمَلِ الدُّنيا، ولا مِن عمَلِ الآخِرةِ»[2].

وقالَ أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَكونُ في آخِرِ الزمانِ أقوامٌ أفضلُ أعمالِهم التلاومُ»[3]، أي: ليسَ عندَهم عملٌ، ولا يُقدِّمون شيئًا، فالحاكمُ يلومُ المحكومَ، والمحكومُ يلومُ الحاكمَ، والصغيرُ يلومُ الكبيرَ، والكبيرُ يلومُ الصغيرَ، والوالدُ يُلقي باللائمةِ على أولادِه ويَشتكي مِن عقوقِهم، والصغيرُ يُلقي باللائمةِ على الوالدِ ويَشتكي من ظُلمِه، والمجتمعُ يلومُ بعضَه، فتَمضي الأيامُ والسِّنونَ، والأمةُ تتراجعُ حتَّى

(١) ديوان أبي العتاهية (ص:٢٣٠)، وانظر: روضة العقلاء (ص:٢٨٤-٢٨٥).
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٢٥٦-٢٥٧ رقم ٧٤١)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٧٠٤)، وأبو داود في الزهد رقم (١٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠).
(٣) أخرجه أبو داود في الزهد رقم (١٨٢).

تتلاشَى ويأكلُ بعضُها بعضًا بالتلاومِ، فإذا رأيتَ الأُمةَ هكذا فاعلَمْ قربَ زوالِها؛ لأنَّه ليسَ هناك عمَلٌ.

والآنَ قَد وُجِدَت الصفحاتُ الَّتي تفتحُ بابَ التلاومِ، فتجِدْ مَن يَضعُ لَوْمَهُ كلَّه في التغريدِ وعلى الواتسابِ وفي خُطُوطِ التواصُلِ، ويَكتُبُ ما شاءَ، ثُمَّ تَرَى المجتمعَ كلَّه يلومُ بعضُه بعضًا.

رابعًا: إذا أردْتُمُ النجاةَ فلا تَصحَبوا الكسالَى.

فإنَّ النبيَّ ﷺ معَ عظيمِ قَدرِه ومَع عظيمِ ما حصَّنَه اللهُ به كانَ يقولُ في دعائِه كما جاءَ عندَ الطبرانيِّ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ يَوْمِ السُّوءِ، وَمِنْ لَيْلَةِ السُّوءِ، وَمِنْ سَاعَةِ السُّوءِ، وَمِنْ صَاحِبِ السُّوءِ، وَمِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ**»[(١)]، يتعوَّذُ ﷺ مِن صاحبِ السوءِ؛ لأنَّ صاحبَ السوءِ يُورِدُك المهالكَ.

لهذا قيلَ:

لا تصحَبِ الكَسلانَ في كـلِّ حالـةٍ ... فكَـمْ صـالِحٍ بفَسـادِ آخَـرَ يفسُـدُ

عَـدْوى البليـدِ إلى الجَليـدِ سَريعـةٌ ... كالجَمْرِ يُوضَعُ في الرمادِ فَيَخمَـدُ[(٢)]

أي: أنَّ بعضَ الناسِ نشِطٌ ملتهِبٌ كالجمرِ، فإذا وضَعْته في الرمادِ خمدَ، وهكذا بعضُ الناسِ تجدُه صاحبَ همةٍ وصاحبَ عطاءٍ، فإذا أوجَدَ نفسَه في الرمادِ خَمَدَ؛ لأن الرمادَ لا يُرتَجَى منه شيءٌ، كما قيلَ:

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٧/ ٢٩٤، رقم ٨١٠)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) نسبها الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص:١٢٤)، والماوردي في أدب الدنيا والدين (ص:١٠٧) لأبي بكر الخوارزمي.

ولَــوْ نــارًا نَفَخْــتَ بِهــا أَضــاءَتْ ولَكِــنْ أَنْــتَ تَــنفُخُ في رَمــادِ[1]

عبادَ اللهِ صلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهُدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • k • •

(١) نسبه ابن المستوفى في تاريخ إربل (١/ ٤٠٣) لمرجَّى الواسطي.

(٣٣)

العِوضُ على اللهِ

جاءَ في مسند أحمدَ عن أبي قتادةَ وأبي الدَّهماءِ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ أنهما أتيا على رجلٍ من أهلِ الباديةِ، فقالا له: هَلْ سمِعْت من رسولِ اللهِ ﷺ شيئًا؟ قالَ: نعَمْ، سمعتُه يقولُ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا للهِ إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»[(١)].

وهي قاعدةٌ جرَتْ على ألسنِ الناسِ أن يقولوا: اترُكْها والعِوضُ على اللهِ. بَيْدَ أنَّ الناسَ يقولونَها بلسانِ العاجزِ المتضايقِ المترددِ المرتابِ، واللهُ يريدُ منا أن نقولَها بلسانِ المتفائلِ المتيقِّنِ.

فهذا المنكرُ أو هذه المعصيةُ أو الشبهةُ الَّتي وقَعْنا فيها لِنَترُكْها ولْنبشُرْ بالعِوضِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا ينطقُ عنِ الهوى، ويقولُ: «إِنَّكَ لَا تَدَعُ شَيْئًا للهِ» أي: لا لمخافةِ فلانٍ، والدًا كان أو والدةً، ولا لحرَجٍ من فلانٍ رئيسًا كانَ أو مرؤوسًا «إِلَّا عَوَّضَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ».

وقد جاءَ في كتاب (ذم الهوى) لابنِ الجوزيِّ -رحمه الله تعالى-: عن قتادةَ السدوسيِّ -تابعيٍّ جليلٍ- قالَ: «لا يَقْدرُ رجلٌ على حرامٍ ثُمَّ يدعُه، ليسَ به إلَّا مخافةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلَّا أبدلَه اللهُ في عاجلِ الدنيا قبلَ الآخرةِ ما هو خيرٌ له من ذلكَ»[(٢)].

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمه الله تعالى -وقد أوردَ هذا القولَ ابنُ القيمِ في كتابِه الماتعِ (روضة المحبِّين)-: «جناتُ النعيمِ بينَ الفردوسِ وجناتِ عدنٍ، فيها جَوارٍ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٣).
(٢) ذم الهوى (ص:٢٤٥)، وأخرجه الطبري في التفسير (١٧/ ٤٤٦).

خُلِقْنَ مِن وَرْدِ الجنةِ، يسكنُها الذين هَمُّوا بالمعاصي، فلمَّا ذَكَروا اللهَ عَزَّوَجَلَّ راقَبوه فانشَنَتْ رقابُهم من خشيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[1].

إذَنْ: دَعْها وأبشِرْ بالعِوضِ، ونذكرُ هنا نماذجَ مِن ذلك:

النموذجُ الأولُ: غضُّ البصرِ.

فغُضَّ بصرَك عن أيِّ صورةٍ من صورِ الحرامِ، وأبشِرْ بالعوضِ منَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فهَذِه الجارحةُ تستحقُّ منَّا أن نشكرَ اللهَ عليها لا أن نَكفُرَها، وتدبَّروا هذه الآياتِ الأربعَ تتحدثُ عن نعمةِ البصرِ وضرورةِ الشكرِ:

قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة النحلِ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، وقالَ في سورةِ المؤمنون: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون:٧٨]، وقالَ في سورةِ السجدةِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٩]، وقالَ في سورةِ المُلكِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٣].

وهذه نعمةٌ واحدةٌ نعمةُ البصرِ أمرَنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن نغضَّها عنِ الحرامِ، ووالله إنَّ كثيرًا من الأسرِ المهدَّمةِ اليومَ ما هُدِمَت إلَّا من بابِ إطلاقِ البصرِ في الحرامِ؛ فتأتي العقوبةُ منَ اللهِ؛ خاصةً إذا كانَ هذا البصرُ مصروفًا إلى النساءِ وإلى الأجسادِ العاريةِ، وليس بالضرورةِ أن يشاهدَها في طريقٍ أو عملٍ، إنما عن طريقِ هذه النعمةِ الَّتي حولَها الناسُ إلى نِقمةٍ، هذه الأجهزةُ المحمولةُ يُبصرُ فيها الإنسانُ ما يريدُ منَ المناظرِ الإباحيةِ، فيزهدُ في أهلِه، فيهدمُ بيتَه بنفسِه.

---

(١) روضة المحبين (ص:٤٥٢).

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

فمَنْ أرادَ الزكاةَ والطُّهرَ والعفافَ فلْيَغضَّ بصرَه، وهذا البابُ يُفتَحُ على القلبِ مباشرةً، فإذا فُتِحَ على القلبِ انطلَقَتِ المحارمُ منه، وصارَ السبيلُ إلى الفرجِ مفتوحًا، فليَغضُّوا أبصارَهم ويَحفَظوا فروجَهم.

قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُبيِّنُ أن الجوارحَ تَزني: «فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ»[(١)] أي: أنَّ التَّرْجُمانَ عندَ الفرجِ، فمَنْ أطلقَ لبصَرِه العنانَ وقعَ في الحرامِ، ومَن أمسكَ به فلْيَبشُرْ بالعِوضِ.

وقد جاءَ في حديثِ ابنِ بُرَيْدةَ عن أبيهِ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا عَلِيُّ، لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ»[(٢)].

وقالَ الأولُ:

كُـلُّ الحَـوادِثِ مَبْـداها مِـنَ النَّظَـرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّـرَرِ

وَالعَبْـدُ مَـا دامَ ذا طَـرْفٍ يُقَلِّبُـهُ ... فِي أَعْيُنِ الغِيدِ مَوْقُوفٌ عَـلَى الخَطَـرِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، رقم (٦٢٤٣)، ومسلم: كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره، رقم (٢٦٥٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥١)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، رقم (٢١٤٩)، والترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء في نظرة المفاجأة، رقم (٢٧٧٧).

يَسُـــرُّ مُقْلَتَـــهُ مَـــا ضَرَّ مُهْجَتَـــهُ لا مَرْحَبًا بِسُـرورٍ عـادَ بِالضَّـــرَرِ[١]

فمَن غضَّ بصرَه عن الحرامِ فلْيَبشُرْ بالعِوضِ، وأولُ هذا العِوضِ:

قالَ فيه النبيُّ ﷺ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا أَضْمَنْ لَكُمُ الجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا ائْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»[٢]، فهَلْ نريدُ عِوضًا أكثرَ من ذلك؟! فلَسْنا نصومُ ونصلِّي إلَّا طمعًا في جنةٍ عرضُها السمَواتُ والأرضُ، والخيارُ بأيدينا.

هذا العِوضُ الأولُ، ولو تأمَّلَ المتأملُ لقالَ: كفَى لا نحتاجُ إلى ثانٍ؛ لأنَّنا جميعًا نحتاجُ الجنةَ، وما بعدَها تحصيلُ حاصلٍ.

النموذجُ الثاني: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَرزُقُه نورًا في بصيرتِه.

فالبصرُ في جارحةِ العينِ تُبصِرُ به الأشياءَ، لكنَّك قد تُخدعُ وقد يُخيَّلُ إليك القبيحُ حسنًا، وقد تَسحَرُك شبهاتُ الآخرين؛ لكنَّك إذا رُزِقْت البصيرةَ لا يُخيَّلُ إليك ولا تُسحَرُ، والبصيرةُ لا تصِحُّ إلَّا إذا حُفِظَتْ جارحةُ البصرِ.

قالَ الشُّجاعُ الكرمانيُّ -رحمه الله تعالى-: «مَن عمَّرَ ظاهرَه باتباعِ السُّنةِ، وباطنَه بدوامِ المراقبةِ، وغضَّ بصرَه عنِ المحارمِ، وكفَّ نفسَه عن الشبهاتِ، واغتَذَى بالحلالِ، لم تخطِئْ له فراسةٌ»[٣].

---

(١) ذكرها ابن القيم في الداء والدواء (ص:٣٥٠-٣٥١) غير منسوبة، والبيتان الثاني والثالث نسبهما ابن الجوزي في ذم الهوى (ص:١٠١) لعبد المحسن بن غالب الصوري.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٣)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الداء والدواء (ص:٤١٧).

وقالَ الأوَّلُ:

ليسَ الشُّجاعُ الَّـذي يَحْمِـي مَطِيَّتَـهُ يَـوْمَ النِّـزالِ وَنـارُ الحَـرْبِ تَشْـتَعلُ
لَكِنْ فَتًى غَضَّ طَرْفًا أَوْ ثَنَى بَصَـرًا عَنِ الحَرامِ فَذاكَ الفـارِسُ البَطَـلُ[١]

وقالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن حفِظَ بصرَه أورثَه اللهُ نورًا في بصيرتِه»[٢].

النموذجُ الثالثُ: مَن غضَّ بصَرَه أَغْلقَ عَنْهُ أبوابَ الشيطانِ.

فقَدْ جاءَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -كما جاءَ في صحيح مسلمٍ- يسألُ النبيَّ ﷺ عن نظرِ الفَجأةِ -الَّذي ليس له يدٌ فيه- قالَ: «فأَمَرني رَسولُ اللهِ ﷺ أَنْ أصرِفَ بصَرِي»[٣].

كذا قالَ النبيُّ ﷺ أيضًا لعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ**»[٤].

وهذا شابٌّ من أبناءِ المسلمين عمرُه قريبٌ منَ العِشرين، يعيشُ في دولةٍ من دولِ الغربِ -حيثُ تنتشِرُ الفواحشُ ولا ضابطَ لها- كان مُتجِهًا إلى عملِه في يومٍ منَ الأيامِ، فصعِدَ المصعدَ ومعَه مجموعةٌ منَ الناسِ رجالٌ ونساءٌ، فنزلَ بعضُهم تلوَ الآخرِ، حتَّى لم يبقَ في المصعدِ إلَّا هو وفتاةٌ حسناءُ، لم يرَ أجملَ منها قطُّ، فنكَّسَ رأسَه

(١) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى (ص:١٤٣) غير منسوب.
(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩- ٤٠).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب الآداب، باب نظر الفجأة، رقم (٢١٥٩).
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥١)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، رقم (٢١٤٩)، والترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء في نظرة المفاجأة، رقم (٢٧٧٧)، من حديث بريدة الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

في الأرضِ، وهي تنظرُ إليه خائفةً ترقبُه بطَرفِ عينِها، فكلَّما التفتَتْ رأَتْه قد نكَّسَ رأسَه لا ينظرُ إليها، وهي في حالِ ترقُّبٍ خائفةٌ، وهو لا يَدري بها، بل ينظرُ إلى الأرضِ، حتَّى وصلَ إلى المكانِ الذي يُريدُه فخرجَ.

فتبعَتْه هذه المرأةُ الكافرةُ وقالَتْ له: قَفْ، أَسأَلُك: لِمَ لَمْ تَنظُرْ إليَّ؟ ألا تراني جَميلةً؟ قال: دِيني يأمُرُني ألَّا أنظرَ إليك. قالت: فما دِينُك؟ قال: دِيني الإسلامُ. فقالَتْ: إنَّ دينًا يمنعُ أصحابَه من الاعتداءِ بالنظرِ لهُوَ دينٌ عظيمٌ، هل تَتزوَّجُني؟ قالَ: إني أريدُ أَنْ أرتبِطَ بامرأةٍ مسلمةٍ. قالَتْ: أُسلِمُ. قالَ: إذَنْ أَتزوَّجُك.

إنَّه حقًّا وعدُ رسولِ اللهِ ﷺ حيثُ قالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لله إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ**».

النموذجُ الرابعُ: قُمْ إلى صلاةِ الفجرِ وأبشِرْ بالعِوَضِ.

جاءَ في صحيح ابنِ حِبانَ من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، ثَارَ عَنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي**»[1].

إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعجبُ من رجلٍ قامَ عن فِراشِه وألقَى بلِحافِه، وهو في مَأمنٍ بينَ أهلِه وحِبِّه، لا يقصدُ إلَّا بيتَ اللهِ ليُؤدِّيَ صَلاةَ الفجرِ في جَماعةٍ.

وإذا نظَرْت إلى حالِنا قبلَ صلاةِ الفجرِ الساعاتِ الَّتي تسبقُ صلاةَ الفجرِ، حينَما تمتلِئُ الطرُقاتُ، وتَزدحمُ بالمسيراتِ، فلا تجدُ لكَ طريقًا بين أولئِكَ الناسِ،

(١) صحيح ابن حبان رقم (٢٥٥٨)، وأخرجه أيضا أحمد (١/ ٤١٦).

فإذا أذَّنَ الفجرُ وقُمتَ من فِراشِكَ إلى صلاةِ الفجرِ استَوْحَشْت الطريقَ من قِلةِ السالكين، فتقولُ: سبحانَ اللهِ! الذين امتَلأَت بهمُ الطرقاتُ؟ أين ذاكَ الازدحامُ؟ فإنَّك لا تكادُ تلتقي إلَّا بآحادٍ منَ الناسِ، فيعجَبُ ربُّنا من هذا الإنسانِ الفردِ الذي تفرَّد عن هؤلاءِ الذين غفَلوا عن أعظمِ العباداتِ.

فقُمْ إلى صلاةِ الفجرِ، وألْقِ عنكَ لحافَ العجزِ والكسلِ، وتغلَّبْ على أهوائِك، وعلى رغباتِ نفسِك، وصَلِّ الفروضَ الخمسةَ في المسجدِ وأبشِرْ بالعِوَضِ.

وقد بشَّرَنا النبيُّ ﷺ بهذه البشائرِ العظيمةِ، حيثُ جاءَ في حديثِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سمِعْت رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ صَلَّى العِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ»[1].

فمَنْ قامَ إلى صلاةِ الفجرِ كانَ في ذِمةِ اللهِ؛ أي: كانَ في أمانِ اللهِ وعهدِه.

وقد جاءَ في حديثِ جندبِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -في صحيح مسلمٍ- يقولُ: قالَ نبيُّنا ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»[2].

والبُشرى في هذا الحديثِ أنَّ مَن صلَّى الصبحَ فهوَ في ذِمةِ اللهِ وأمانِ اللهِ، فهو في حِصنٍ حصينٍ، ولا يَعني هذا الحديثُ أنَّ الأذى لا يُصيبُه، إنما إرشادُ هذا الحديثِ أنَّه في أمانِ اللهِ، فإذا آذاه أحدٌ أخذَه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فلا تَتعرَّضْ لرجلٍ صلَّى الصبحَ في جماعةٍ، ولا تؤذِ رجلًا صلَّى الصبحَ في جماعةٍ؛ لأنَّه في أمانِ اللهِ وفي ذِمةِ اللهِ الَّذي قالَ عن نفسِه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة، رقم (٦٥٦).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة، رقم (٦٥٧).

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، وقالَ أيضًا: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، وقالَ أيضًا: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد:٢].

فقُمْ إلى صلاةِ الفجرِ وأبشِرْ بالنورِ التامِّ يومَ القيامةِ، وأحوجُ ما يحتاجُه العبدُ يومَ القيامةِ النورُ، والنجاةُ في يومِ القيامةِ تكونُ على قدرِ النورِ، والنورُ يكونُ على قدرِ العملِ، وأعظمُ الأعمالِ بعدَ توحيدِ اللهِ الصلاةُ، وأعظمُ الصلواتِ صلاةُ الصبحِ.

فقَدْ جاءَ في حديثِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -كما هو في الحِلية-: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ عِنْدَ اللهِ صَلَاةُ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي جَمَاعَةٍ**»(١).

وجاءَ في حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ ابنِ ماجَهْ-: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ، بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

وقالَ النبيُّ ﷺ والحديثُ في صحيح ابنِ حِبَّانَ من حديثِ أبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ مَشَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ إِلَى الْمَسَاجِدِ، آتَاهُ اللهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣).

وقد تحدَّثْنا عن هذا النورِ فيما سبقَ، من ذلكَ ما رواهُ الحاكمُ في مستدركه مِن حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**فيُعطَوْن نورَهم على قدرِ أعمالِهم؛ فمِنْهم مَن يُعطَى نورَه مثلَ الجبلِ بينَ يدَيْه، ومِنهم مَن يُعطَى نورَه فوقَ ذلكَ، ومِنهم مَن يُعطَى نورَه مثلَ النَّخلةِ بيَمينِه، ومِنهم مَن يُعطَى نورَه دونَ**

(١) حلية الأولياء (٧/ ٢٠٧)، وأخرجه أيضا البيهقي في الشعب رقم (٢٧٨٣).
(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة، رقم (٧٨١).
(٣) أخرجه ابن حبان رقم (٢٠٤٦)، وأخرجه أيضا ابن أبي شيبة رقم (٦٤٩٩)، والطبراني في الأوسط رقم (٦٦٤٤).

ذلكَ، حتَّى يكونَ آخرَ ذلك مَن يُعطى نورَه على إبهامِه يُضيءُ مرةً ويُطفِئُ مرةً، فإذا أضاءَ قدَّمَ قدمَه، وإذا طُفِئَ قامَ فيمرُّ ويمُرُّون على الصراطِ، والصراطُ كحدِّ السيفِ دَحْضُ مَزِلَّةٍ، فيُقالُ: انْجُوا على قَدْرِ نورِكم»[1].

فتَأتي صلاةُ الفجرِ في تلكَ اللحظةِ، فهؤلاءِ الذين مشَوْا في ظلمةِ الليلِ إلى المساجدِ على أقدامِهم، أو على دوابِّهم ورَوَاحلِهم، يجدون النورَ أمامَهم.

وصدقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذ يقولُ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ أي: انتَظِرونا ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: هناكَ في الدُّنيا ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد:١٢].

وهؤلاءِ الذين مشَوْا إلى صلاةِ الفجرِ ربَّما مشَوْا إليها في عشرِ دقائقَ، وأدّوْها في نصفِ ساعةٍ، ورجَعوا إلى بيوتِهم في عشرِ دقائقَ، أي: في زمنٍ ربَّما لم يتعدَّ الساعةَ، وأولئِكَ الذين في المسيراتِ يَسيرون خمسَ ساعاتٍ أو عشرَ ساعاتٍ ولا يَتعَبون ولا يَكلُّون، فلا يُمكنُ أَنْ يكونَ هؤلاءِ كأُولئِكَ.

قالَ الأولُ:

يُحاوِلُ نَيْلَ المَجْدِ وَالسَّيْفُ مُغْمَدٌ ... وَيَأْمَلُ إِدْراكَ العُلا وَهْوَ نَائِمُ[1]

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٦)، وأخرجه أيضا الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٣٥٧، رقم ٩٧٦٣).

(١) نسبه الصفدي في الوافي بالوفيات (٤/ ٦٠) لمحمد بن عتيق السوارقي.

إذَنْ: قُمْ إلى صلاةِ الفجرِ وأبشِرْ بالعِوَضِ، وما أعظمَ العِوضَ الذي قالَه النبيُّ ﷺ! فقَدْ قالَ: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»[(١)]، والبَرْدانِ هما صلاةُ الفجرِ وصلاةُ العصرِ.

وقُمْ إلى صلاةِ الفجرِ يُكتَبِ اسمُك في صحيفةِ المُكرَمين؛ فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، أي: تشهَدُ الملائكةُ صلاةَ الفجرِ.

وقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[(٢)]، أي: يَتَناوبُ في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصرِ ملائكةٌ، يقولونَ: ربَّنا وجَدْنا فلانًا معَ المصلِّين، ووجَدْنا فلانًا معَ المصلِّين، ووجَدْنا فلانًا معَ المصلِّين. يذكرونُه هكذا في صحيفةِ المُكرَمين.

وقُمْ إلى صلاةِ الفجرِ تَنجُ مِن أن تكونَ منَ المنافِقين؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الفَجْرِ وَالعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٥)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل العشاء في الجماعة، رقم (٦٥٧)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -كما في مصنَّف ابنِ أبي شَيبةَ-: «كُنَّا إذا فقَدْنا الرجلَ في صلاةِ العشاءِ وصلاةِ الفجرِ أَسَأْنا به الظنَّ»[(١)].

وقُمْ إلى صلاةِ الفجرِ تنجُ من عذابِ الدنيا وعذابِ الآخرةِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ، بعدَ أَنْ ذُكِرَ عندَه رجلٌ باتَ ليلتَه حتَّى أَصبَحَ، قالَ: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ»[(٢)]، فما ظنُّكم برجُلٍ قد بالَ الشيطانُ في أُذنَيْه.

وجاءَ في صحيح البخاريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ رأَى رجُلًا مضطجِعًا على ظهرِه وآخرَ قائمًا على رأسِه بحجارةٍ كلَّما رفعَها أهوَى بها على رأسِه فيثلَغُ رأسَه فيتَدَهْدَهُ الحجرُ، فيأخذُه ويعودُ إليه، فيعودُ رأسُه كما كانَ، فينزلُ ويهوِي عليه بهذا الحجرِ؛ فقالَ نبيُّنا ﷺ للملَكينِ: «مَنْ هَذَا؟ وَمَا شَأْنُهُ؟» فقالا: «فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ المَكْتُوبَةِ»[(٣)].

عبادَ اللهِ صلُّوا وسلِّموا -رحمكم اللهُ- على نبيِّنا محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابِه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ وزِدْ وبارِكْ على عبدِك ورسولِك نبيِّنا محمدٍ، واعْرِضْ عليه صلاتَنا إلى يومِ الدينِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة رقم (٣٣٧٢)، وأخرجه أيضا البزار في مسنده (١٢/ ١٨٨، رقم ٥٨٤٧)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١٤٨٥)، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٠٩٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه، رقم (١١٤٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (٧٧٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم (٧٠٤٧)، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع •• k •• الصفحة

مقدمة (قالت المنابر – المجموعة الثانية) ٥
مقدمة (قالت المنابر – المجموعة الأولى) ٧
➢ (١) **طريقُ السعادةِ** ١١
قصةٌ مشهورةٌ لابن حَجَرٍ العسقلانيِّ مع يَهوديٍّ ١١
السعادةُ هي التوفيقُ إلى طاعةِ الله ١٢
الطريق الموصلِ إلى السعادةِ ١٨
محطاتٌ للتزود منها:
المحطةُ الأولى: الإقبالُ التامُّ على الله عَزَّوَجَلَّ ١٨
المحطةُ الثانيةُ: الانعتاقُ مِنْ كلِّ ذنبٍ ومعصيةٍ ٢٠
المحطةُ الثالِثةُ: الاستِسلامُ لقضاءِ الله تعالى وقدَرِه ٢٠
المحطةُ الرابِعةُ: القناعةُ بكلِّ شيءٍ ٢١
المحطةُ الخامسةُ: إذا أرَدْت أن تَسعَدَ فانظُرْ إلى مَن هوَ أسفلَ منكَ ٢٢
المحطةُ السادسةُ (الأخيرة): وهِيَ الدُّعَاءُ ٢٣
➢ (٢) ﴿ **وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ** ﴾ ٢٥
بعضُ مَنازِلِ تَعظيمِ قَدْرِ الصَّلاة وأهميَّتها:
المنزلةُ الأُولى: جعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الصلاةَ في مكانةٍ عظيمةٍ تأتِي مباشرةً بعدَ توحيدِه والأمرِ بعبادتِه ٢٥

المنزلةُ الثانيةُ: أنَّها تقرَنُ بأعظمِ الفرائضِ وأعظمِ الطاعاتِ ٢٦
المنزلةُ الثالثُة: أنَّها منَ الأوامرِ المتكرِّرةِ في كتابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٢٧
المنزلةُ الرابعَةُ: أنَّها لم تُشرَعْ في أمةِ محمدٍ ﷺ، وإنَّما شُرِعَتْ عندَ الأنبياءِ والمرسلِينَ ممَّنْ سبقَ النبيَّ ﷺ ٢٨
المنزلةُ الخامسَةُ: أنَّ الصَّلاةَ مقياسُ الإيمانِ ٢٩
المنزلةُ السادسةُ: أنَّ جميعَ الكائناتِ تُصلِّي وتسجدُ لله ٢٩
المنزلةُ السابعَةُ: أنَّ الصَّلاةَ تُكفِّرُ الذُّنُوب والمعاصِي ٣١
المنزلةُ الثامنةُ: أنَّ الصلاةَ تغيظُ الشيطانَ ٣٢
المنزلةُ التاسعَةُ: أنَّ الصلاةَ سياجٌ يحمينا ونحنُ في قبورِنا ٣٥
المنزلةُ العاشرَةُ: أنَّ الصلاةَ فيها نجاةٌ مِنْ عقوبةِ الدارَيْنِ ٣٦
المنزلةُ الحادية عشرَة: مَنْ حافظَ على الصلاةِ نالَ الفلاحَ والنصرَ والتأييدَ ٣٧
المنزلةُ الثَّانية عَشرة: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استودعَ في الصلاةِ أجورًا عظيمةً كثيرةً جدًّا ٣٨
المنزلةُ الثَّالثة عَشرة: أنَّ في الصلاةِ أجورًا غيرَ متوقَّعةٍ ٣٨
➢ (٣) **وبلغَ أربعين سنةً** ٤٠
رَسائلُ لَمن بَلَغ الأَرْبعِين:
الرسالةُ الأُولى: تَعوَّذْ باللهِ مِن أَنْ تردَّ إلى أرذلِ العُمرِ ٤٣
الرِّسالةُ الثانيةُ: إلى مَن بلغَ الأربَعين فلْيَعلَمْ أنَّه لا بُدَّ أَنْ يَلتفِتَ إلى قضيةِ حُسنِ الختامِ ٤٣
الرسالةُ الثالثةُ: عجِّلْ بالفرارِ إلى اللهِ، واغتنِمِ الأوقاتَ، بَلِ اغتنِمِ الثوانِيَ قبلَ

الدقائقِ، فما بقِيَ أقلُّ مِمَّا مضَى، وعلمُ ذلكَ عندَ اللهِ ٤٥
➢ (٤) توقيرُ الكبارِ ٤٧
الحقوقُ الَّتي تَجِبُ علينا تُجاهَهم كثيرةٌ ٤٨
رسالةٌ للشبابِ أَنْ يَتلطَّفَ معَ كبيرِ السنِّ ٥٠
➢ (٥) بادِروا بالأعمالِ ٥٥
أمثلَةُ المبادرةِ إلى فِعلِ الخيراتِ:
المثالُ الأولُ: أبادرُ إلى تجديدِ الإيمانِ ٥٧
المثالُ الثاني: يبادرُ الإنسانُ إلى فعلِ ما أمرَ اللهُ بِهِ منَ الفرائضِ ٥٨
المثالُ الثالثُ: أَنْ يبادرَ بتحصينِ نفسِه بالأذكارِ الشرعيةِ ٥٨
المثالُ الرابعُ: أَنْ يبادرَ الإنسانُ إلى التضحيةِ مِن أجلِ هذا الدِّينِ العظيمِ الَّذي هو أعزُّ ما يملكُ العبدُ المسلمُ ٦٠
المثالُ الخامسُ: أَنْ يبادرَ العبدُ إلى التوبةِ والإنابةِ إلى اللهِ ٦٠
➢ (٦) وفي إبريل لا يكذبون أيضًا! ٦٤
للكذبِ صور في المجتمعاتِ:
الصُّورةُ الأُولى: وهو أعظمُ هذه الصورِ وأخطرُها وأشنَعُها: الكذبُ على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أوِ الكذبُ على رسولِه ﷺ ٦٤
الصُّورةُ الثانِية: الكذبُ في البيعِ والشراءِ ٦٥
الصُّورةُ الثالثةُ: أَنْ يكذبَ في مَزحِه ٦٥
الصُّورةُ الرَّابعةُ: الكذبُ لإضحاكِ الناسِ ٦٦
الكاذبُ الَّذي إذا ذُكِّرَ بحرمةِ الكذبِ فلَمْ يرتدِعْ فإنَّه يسيرُ بنَفْسِه إلى عواقبَ:

العاقبةُ الأُولى: عاقبةُ النفاقِ ٦٧
العاقبةُ الثانيةُ: عاقبةُ الفجورِ ٦٧
العاقبةُ الثالثةُ: سوادٌ يعلُو وجهَ الكاذبِ في الدنيا والآخرةِ ٦٨
➢ (٧) مَسؤوليةُ الكلمةِ ٧١
أهمِّيةُ الكلمةِ فيما يَلي:
أوَّلًا: أنَّ الكلمةَ الطيبةَ مِن سِماتِ المؤمنين الصادِقين ٧٠
ثانيًا: أنَّها سببٌ رئيسٌ في الحصولِ على الرضوانِ، وسببٌ رئيسٌ في الحصولِ على السخطِ والحرمانِ..... ٧٠
ثالثًا: أنَّها معيارُ التفاضلِ بينَ المسلِمين ٧١
رابعًا: أنَّ لها ارتِباطًا وثيقًا بالإيمانِ ٧١
خامسًا: أنَّها سببٌ رئيسٌ في دخولِ الجنةِ ٧١
سادسًا: أنَّها سببٌ رئيسٌ في دخولِ النارِ ٧٢
نَستفيد مِن الكلمةِ الخارجةِ مِن أفواهِنا عبرَ بواباتٍ ثلاثٍ:
البوابةُ الأُولى: الاستِشعارُ الدائمُ برقابةِ الله عليها..... ٧٣
البوابةُ الثانية: الاستِذْكارُ الدائمُ بعواقبِ الكلمةِ ٧٣
البوابةُ الثالثةُ: الالتزامُ التامُّ بضوابطِ الكلمةِ ٧٤
آدابُ الكلمةِ:
أوَّلًا: أنَّه يجبُ عليكَ أَنْ تأتِيَ بالكلِمةِ الأحسنِ قبلَ الحسنةِ..... ٧٥
ثانيًا: أنَّها لا تخرجُ إلَّا لمقصدٍ..... ٧٥
➢ (٨) السابِقون إلى الجَنَّةِ ٧٨

وَصَايا للفَوْز بالسَّبق للجَنَّة:
الوصيةُ الأولى: لا تقبلُ بغيرِ الفوزِ والصفوفِ المتقدمةِ ٧٧
الوصيةُ الثانيةُ: لا تَرضَى لنفسِك أن تكونَ في ذيلِ القائمةِ ٧٩
الوصيةُ الثالثةُ: لا تضيِّعِ الفرصَ فإنَّها لا تتكررُ ٨٠
الوصيةُ الرابعةُ: لا تكثِرِ الالتفاتَ وركِّزْ على الطريقِ ٨١
➢ (٩) شيءٌ مِن أخبارِ الصالِحين ٨٥
الخبرُ الأولُ مِن أخبارِ الصالِحين: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تكفلَ بحفظِ الصالِحين ورعايتِهم ٨٤
الخبرُ الثاني: الصَّالحون ينتفعون بصلاحِهم في الأوقاتِ الحرجةِ واللحظاتِ الصعبةِ ٨٥
الخبرُ الثالثُ: أنَّهم همُ المحضنُ الآمنُ والرفقةُ المباركةُ لِمَنْ ألهبَه حرُّ الذنوبِ، وأرادَ أن يعودَ ويتوبَ ويؤوبَ ٨٥
الخبرُ الرابعُ: أنَّهم همُ الأَولى بحفظِ الأمنِ ٨٦
الخبرُ الخامسُ: أنَّ لجنائزِهم شأنًا مختلفًا ٨٦
الخبرُ السادسُ: أنَّ لهم شأنًا أيضًا مختلفًا في قبورِهم ٨٦
➢ (١٠) شعارُ الصالِحين ٩٠
في أدبياتِ السلَفِ يُؤكِّدون تأكيدًا جازمًا على حُسنِ الأدب ٩١
الأدبُ وحسنُ الخلقِ نوعانِ:
نوعٌ هبةٌ منَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فتجدُ الطفلَ يشِبُّ على ذلكَ دونَ تعليمٍ، مؤدَّبًا ذا خلقٍ ٩٣

ونوعٌ يحتاجُ إلى كسبٍ وجَهدٍ ومَهارةٍ ٩٣
➢ (١١) الأدبُ معَ اللهِ ٩٧
صورُ الأدبِ معَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كثيرةٌ، ومنها:
الصورةُ الأولى في حُسنِ الأدبِ معَ المولَى سبحانه: إفرادُه بالعبادةِ ٩٦
الصورةُ الثانيةُ: إخلاصُ العملِ والقصدِ والقولُ له سبحانَه ٩٨
الصورةُ الثالثةُ: الاستسلامُ لأمرِه، والاستسلامُ لشرعِه ٩٩
الصورة الرابعةُ: الاعترافُ بفضلِه ونِعمِه ١٠١
➢ (١٢) الأدبُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ ١٠٥
الآدابُ معَ رسولِ الله ﷺ كثيرةٌ، ومنها:
الأدبُ الأولُ: الإيمانُ به ﷺ إيمانًا صادقًا برسالتِه وبمَنهجِه وبشريعتِه الَّتي أتَى بها ١٠٤
الأدبُ الثاني: اتِّباعُه، والاستِسلامُ لرسالتِه، والانقيادُ لشرعِه ﷺ ١٠٥
الأدبُ الثالثُ: محبتُه ﷺ ١٠٦
الأدبُ الرابعُ: الإكثارُ منَ الصلاةِ عليه ﷺ ١٠٧
➢ (١٣) الأدبُ معَ القرآنِ الكريمِ ١١٢
خصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كتابَه الكريمَ بعددٍ من الخصائصِ ١١٠
الآدابُ معَ القُرآنِ الكَرِيم كثيرةٌ، ومنها:
الأدبُ الأوَّلُ: الاستمساكُ به والعملُ بما فيه، وعدمُ العدولِ عنه إلى غيرِه ١١٢
الأدبُ الثاني: الإخلاصُ في تعليمِه وتعلُّمِه ١١٣
الأدبُ الثالثُ: ألَّا يُقرَأ إلَّا على طهارةٍ ١١٣

الأدبُ الرابعُ: تطهيرُ الفمِ عندَ قراءتِه ١١٤
الأدبُ الخامسُ: لا بدَّ أن يُجَلَّ القرآنُ ويرفعَ قدرُه ١١٤
الأدبُ السادسُ: أن يَحرصَ المسلمُ وهو يقرَأُ القرآنَ على أَنْ يزيِّنَ صوتَه بالقرآنِ .. ١١٥
الأدبُ السابعُ: ألَّا ترفعَ به الأصواتُ إذا كنَّا في محضرِ غيرِنا ممَّنْ يقرَأُ ١١٥
➢ (١٤) أدَبُ المساجِدِ ١٢٠
آداب المساجدِ متعدِّدةٌ، مِنها:
الأدبُ الأولُ: السعيُ في بنائِها، وتكثيرِها في الأماكنِ الَّتي تحتاجُ إليها، والاشتراكُ في بنائِها وتعميرِها ١١٩
الأدَبُ الثاني: أن تُنظَّفَ المساجدُ وتُطيَّبَ ١٢١
الأدبُ الثالثُ: لا تُنشَدُ الضَّالةُ في المسجدِ ١٢٢
الأدبُ الرابعُ: لا يُباعُ فيها ولا يُشترَى ١٢٢
الأدبُ الخامسُ: لا تُزخرفُ المساجدُ، ولا يُبالغُ في بنائِها ١٢٢
الأدَبُ السادسُ: أن يَتجنَّبَها الجنبُ والحائضُ والسكرانُ ١٢٤
➢ (١٥) حقائقُ للتذكيرِ ١٢٧
الحقيقةُ الأُولى: أنَّ الناسَ في الميزانِ اثنانِ ١٢٦
الحقيقةُ الثانيةُ: لا ولاءَ للكافِرين أبدًا ١٢٧
الحقيقةُ الثالثةُ: أنَّ قِتالَ الكُفَّار للمُسْلِمين سببُهُ تَمسُّكُهُم بدِينِهم ١٢٩
الحقيقةُ الرابعةُ: أنَّ هذه الأمةَ لا تُنصرُ ولا يُمكَّنُ لها إلَّا إذا رفَعَت رايةَ الإسلامِ .. ١٢٩
➢ (١٦) أدبُ الساجِدِ ١٣٣
إنَّ آدابَ الساجِدِ متعددةٌ، منها:

الأدبُ الأولُ: الاستعدادُ للصلاةِ ١٣٢
الأدبُ الثاني: أن يذهبَ إلى الصلاةِ في حالِ وقارٍ وسكينةٍ وطمأنينةٍ..... ١٣٤
الأدبُ الثالثُ: أن يذهبَ في زينتِه ١٣٤
الأدبُ الرابعُ: ألَّا يؤذيَ أحدًا ببدنِه، أو بلسانِه، أو برائحتِه ١٣٥
الأدبُ الخامسُ: أَنْ يصلِّيَ العبدُ إذا دخلَ المسجدَ ركعتين..... ١٣٥
الأدبُ السادسُ: أَنْ يتقدمَ مَن دخلَ المسجدَ إلى الصفوفِ الأولى لكن لا يَتخطَّى الرقابَ..... ١٣٦
الأدبُ السابعُ: القِيامُ للصلاةِ في خُشُوع فَلا يَنظرُ إلَّا لموضِعِ سُجُوده ١٣٧
الأدَبُ الثامنُ: مِن السُّنةِ أن يقومَ الإنسانُ ممسكًا بيدِه اليمنَى على الشِّمالِ غير مُسدلٍ..... ١٣٧
➢ (١٧) **الدعاء: فَضْلُه، ومكانتُه، وآدابُه** ١٤٠
جعلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى للدعاء حوافزَ:
الحافزُ الأولُ: بالدعاءِ يُرفَعُ البلاءُ ويُستدفعُ القضاءُ ١٣٩
الحافزُ الثاني: الدعاءُ أكرمُ الأشياءِ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٤٠
الحافزُ الثالثُ: أنَّ اللهَ يحبُّ إلحاحَك بالدُّعاء ١٤١
الحافزُ الرابعُ: بالدعاءِ يُستنزَلُ النصرُ..... ١٤٢
آدابُ الدعاءِ:
الأدبُ الأوَّلُ: الثناءُ على الله عَزَّوَجَلَّ بين يدَيِ الدعاءِ، ثُم الصلاةُ على النبيِّ ﷺ ... ١٤٤
الأدَبُ الثاني: الدعاءُ واستحضارُ اليقينِ بالإجابةِ ١٤٥
الأدَبُ الثالثُ: الدعاء باسمٍ من أسماءِ اللهِ تعالى بما يناسبُ حالَ الداعي ودعوتِه.. ١٤٦

الأدَبُ الرابـعُ: ارفَـعْ يـدَيْك في الـدعاءِ، وبـالِغْ في الرفـعِ، وأظهِـر الانكِسـارَ والخضوعَ لله..... ١٤٦
الأدَبُ الخامسُ: إذا أرَدْت أن تَستجابَ دعوتُك فادْعُ اللهَ في حالِ الرخاءِ قبلَ الشدةِ ١٤٧
الأدبُ السادسُ: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى جعَلَ لِمَن كانَ كثيرَ الذكرِ دعوةً مستجابةً ١٤٨
الأدَبُ السابعُ: تحرِّي الأوقاتِ الفاضلةِ ١٤٨
➢ (١٨) **الزكاةُ فريضةُ العامِ**..... ١٥٢
الصدَقةُ بُرهانٌ على إيمانِ العبدِ ويَقينِه ١٥١
الصدقاتُ تَتنزلُ بها البركاتُ ١٥٢
الصدقاتُ تَقي الآفاتِ والهلكاتِ والنكَباتِ ١٥٢
صَنَائِعُ المَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ..... ١٥٢
مانعُ الزكاةِ في خطرٍ عظيمٍ..... ١٥٣
البركاتُ والخيراتُ تُنزعُ من مانعِ الزكاةِ ١٥٣
مَانِعُ الزَّكَاةِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي النَّارِ ١٥٤
➢ (١٩) **المروءة** ١٥٨
تحصيلُ المروءةِ عبرَ بواباتٍ ثلاثة:
البوابةُ الأُولى: أن يَتربَّى عليها منَ الصغرِ ١٥٨
البوابةُ الثانيةُ: أن يجالسَ ذوي المروءاتِ ١٥٩
البوابةُ الثالثةُ: أن يتجنَّبَ خوارمَ المُروءةِ ١٦٠
➢ (٢٠) **يا أهلَ السُّنةِ رفقًا بأهلِ السُّنةِ** ١٦٥

بعض الأدواتِ التي تُستخدَم لتقوِّضَ بناءَ أهل السُّنة:
الأداةُ الأولى: الشماتةُ بالمسلمِ ١٦٤
الأداةُ الثانيةُ: تتبعُ عوراتِ المسلمِ، ثم إفشاؤُها، ثُم التعييرُ بها ١٦٥
➢ (٢١) دَعوها فإنَّها مُنتنةٌ ١٧١
السُّبُلُ لدفعِ تفرق الأُمَّة:
السَّبيلُ الأوَّلُ: تغليبُ حُسنِ الظنِّ ١٧١
السبيلُ الثاني: ترفَّعْ وأعرِضْ عنِ الجاهِلين ١٧٣
السبيلُ الثالثُ: الرحمةُ بالموافقِ وبالمخالفِ ١٧٤
➢ (٢٢) السائِرون إلى اللهِ ١٧٨
➢ (٢٣) المعلمُ الناجحُ ١٨٤
قصَّة الإمبراطورِ الياباني عنِ تقدُّم بلدِه الذي أبهرَ العالَمَ ١٨٣
كيفَ أُساوِيكم بمَنْ علَّموكم؟! ١٨٣
لا بدَّ أن يلتزمَ المعلِّم بصفاتٍ:
الصفةُ الأولى: الإخلاصُ ١٨٥
الصفةُ الثانيةُ: الصدقُ ١٨٥
الصفةُ الثالثةُ: الأمانةُ ١٨٦
الصفةُ الرابعةُ: أَنْ يطابقَ قولُه فعلَه ١٨٧
الصفةُ الخامسةُ: العدلُ ١٨٨
الصفةُ السادسةُ: حُسْنُ الخُلُقِ ١٨٨
المعلمُ يحملُ أشرفَ المهنِ، وأعلاها درجةً ١٨٩

➢ (٢٤) ومِن شرِّ حاسدٍ إذا حسدَ ١٩٣
الحسدُ هو آكِلُ الحسناتِ ١٩٢
حُصونٌ منيعةٌ نَتَّقي بها هذا الحسدَ، منها:
الحصنُ الأولُ: أن تُخفيَ نِعمَكَ الَّتي تَتنعَّمُ بها عن الحاسدِ ١٩٢
الحِصنُ الثاني: عليكَ بالأذكارِ التِي ورَدَت عَنِ النبيِّ ﷺ ١٩٣
الحِصنُ الثالثُ: أن تُبعِدَ نفسَك عن أماكنِهم ومقارِّهم ١٩٣
الوصفاتُ الثلاثُ للتخلُّص من داءِ الحسدِ:
الوصفة الأولى: لا تتطلَّعْ إلى ما عندَ الناسِ الذين فُضِّلوا عليكَ ١٩٤
الوصفة الثانية: إذا تحرَّكَت هذه النوازعُ السامَّةُ في قلبِك فبَرِّكْ مباشرةً ١٩٥
الوصفة الثالثة: عليكَ بتَنظيفِ قاعدةِ انطلاقِ الحسدِ الَّتي هي القلبُ ١٩٥
➢ (٢٥) أهلاً بالعشرِ ١٩٩
منَ الجميلِ أَنْ يصومَ الإنسانُ هذِه الأيامَ ٢٠١
مَن وجدَ سَعةً فلْيَنوِ الأُضحيَّةَ وليضَحِّ ٢٠٢
➢ (٢٦) كيفَ نُدركُ أجرَ الحاجّ ٢٠٧
الأعمالُ التي نُدركُ بها أجرَ الحجِّ:
العَمَل الأوَّل: النيةُ الصادِقةُ ٢٠٦
العملُ الثاني: «مَنْ صَلَّى الغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ...» ٢٠٧
العملُ الثالثُ: «مَنْ غَدَا إِلَى المَسْجِدِ...» ٢٠٧
العملُ الرابعُ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الحَاجِّ المُحْرِمِ» ٢٠٨

العملُ الخامسُ: الدعاءُ والمبادرةُ بالأعمالِ الصالحاتِ ٢٠٩
➢ (٢٧) خُطبة عيدِ الأضحى ٢١٤
يَأْمُرُ اللهُ عبادَه بإفرادِه بالعبادةِ ٢١١
اتِّباعُ دينِ الله الذي أنزلَه على رسلِه وأنبيائِه ٢١١
الدينُ المقبولُ عندَه هو الإسلامُ ٢١١
أمَرَ الله سبحانَه عبادَه بطاعةِ رسولِه ﷺ ٢١٢
أمرَ الله بإقامةِ الدِّينِ وإظهارِ شعائرِ الدينِ ٢١٢
أمَرَ الله بالعدلِ ٢١٣
حذَّرَ الله منَ الظُّلمِ ٢١٣
أمرَ الله بالإحسانِ ٢١٤
➢ (٢٨) وقَفاتٌ في كَسْبِ الحسناتِ ٢١٨
الوقفةُ الأُولى: اعلَمْ أنَّ الحسناتِ منَّةٌ مِنَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وفضلٌ ٢١٦
الوقفةُ الثانيةُ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ ميَّزَ هذه الأمةَ فجعَلَ الحسَنةَ بعَشرِ أمثالِها ... ٢١٦
الوقفةُ الثالثةُ: لا حسَناتِ بلا عمَلٍ ٢١٧
الوقفةُ الرابعةُ: لا حسَناتِ إلَّا بإخلاصٍ ٢١٨
الوقفةُ الخامسةُ: أنَّ الحسَناتِ لا تنقطعُ وإنِ انقطَعَ العاملُ عَن عمَلِه الذي اعتادَه بعُذرٍ ٢١٩
الوقفةُ السادسةُ: حسَناتُ الأعمالِ المتعدِّيةِ أعظمُ من غيرِها ٢١٩
➢ (٢٩) يُحِبُّهم ويُحِبُّونه ٢٢٤
مَنزلةُ المحبَّةِ هيَ منَ المنازلِ العَظيمةِ ٢٢٢

وإذا أحبَّ اللهُ عبدًا أفاضَ عليه منَ الآثارِ والخيرِ والبركاتِ الشيءَ الكثيرَ، ومنها:
الأوَّلُ: إذا أحبَّ اللهُ عبدًا حماهُ منَ الدُّنيا ٢٢٢
الثاني: إذا أحبَّ اللهُ عبدًا ابتلاهُ ٢٢٣
الثالثُ: إذا أحبَّ اللهُ عبدًا وضعَ له القبولَ في الأرضِ ٢٢٤
الرابعُ: أنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدًا سدَّدَه ٢٢٤
نَوالُ الخيراتِ بطُرقٍ ثلاثةٍ:
الطَّريق الأوَّل: مَن أَرادَ أن يحظَى بمحبَّةِ الله فلْيَتَّبعْ رسولَ الله ﷺ..... ٢٢٥
الطريقُ الثاني: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»..... ٢٢٦
الطَّريق الثالثُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ أَوْ يُحِبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فَلْيَصْدُقْ حَدِيثَهُ إِذَا حَدَّثَ»..... ٢٢٦
بعضُ العباداتِ التي تُقرِّبُ إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
القُربةُ الأولى: محبَّةُ آل بيتِ النَّبيِّ ﷺ، وأصحابِه وأزواجِه ٢٢٧
القُربةُ الثانيةُ: حُسنُ الخُلقِ ٢٢٨
القُربةُ الثالثةُ: إظهارُ نِعمةُ الله عليك ٢٣٠
القُربةُ الرابعةُ: الحبُّ في الله، والوصلُ في الله، والتناصحُ في الله، والزيارةُ في الله ... ٢٣٠
القُربةُ الخامسةُ: ما جاءَ في هذا الحديثِ العظيمِ حديثِ أبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢٣٠
➢ (٣٠) **عامٌ جديدٌ** ٢٣٥
قواعدُ للتعامُلِ معَ العامِ الجديدِ:

القاعـــدةُ الأُولى: لا تَنشـــغِلْ بالمـــاضي عـــلى حســـابِ الحـــاضرِ، واعلَـــمْ أنَّ العِبرةَ بالخواتيمِ ٢٣٣
القاعدةُ الثانيةُ: كُنْ شديدَ المحاسَبةِ معَ نفسِك ٢٣٤
القاعدةُ الثالثةُ: إذا وقَعَت فانهَضْ، وإذا أخطَأْت المَسيرَ فصحِّحْ مسارَك، وإذا أسَأْت فاعتذِرْ، وإذا أَذنَبْت فاستغفِرْ ٢٣٥
القاعدةُ الرابعةُ: أسِّسْ لمشاريعَ جديدةٍ ٢٣٦
➢ (٣١) مكانةُ المرأةِ في الإسلامِ ٢٤١
اتفاقيةِ السِّيدَاوْ ٢٣٨
يُوصي هذا الدينُ العظيمُ بالمرأةِ خيرًا ٢٤٠
➢ (٣٢) آفَةُ الكَسَلِ ٢٤٨
الكسلُ له مخاطرُ:
الخطرُ الأوَّلُ: خَسارةُ الدنيا قبلَ الآخرةِ ٢٤٧
الخطرُ الثاني: أنَّ الكسلَ آفةُ العبادةِ ٢٤٨
الخطرُ الثالثُ: أنَّه أحدُ سهامِ إبليسَ الَّتي يُوجِّهُها ويصوبُها تُجاهَنا ٢٤٩
دواءُ داءِ الكسلِ:
أولًا: استعِنْ باللهِ في خلَواتِكَ وفي سِرِّكَ وجهرِك ٢٥١
ثانيًا: تأمَّلْ وتفكَّرْ في عاقبةِ الأمورِ حسَنِها وقبيحِها ٢٥٣
ثالثًا: اعرِضْ نفسَك على المواعظِ ٢٥٤
رابعًا: إذا أردْتُمُ النجاةَ فلا تَصحَبوا الكسالَى ٢٥٦
➢ (٣٣) العِوضُ على اللهِ ٢٦١

نماذجُ مِن ذلك:
النموذجُ الأولُ: غضُّ البصرِ ٢٥٩
النموذجُ الثاني: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَرزُقُه نورًا في بصيرتِه..... ٢٦١
النموذجُ الثالثُ: مَن غضَّ بصَرَه أَغْلَقَ عَنْهُ أبوابَ الشيطانِ ٢٦٢
النموذجُ الرابعُ: قُمْ إلى صلاةِ الفجرِ وأبشِرْ بالعِوَضِ ٢٦٣
فهرس الموضوعات..... ٢٧٣

• • k • •